

اهداءات ۲۰۰۱

۱. ک. احمد ابو زيد

انٹرویو لوجی

الطبعة الأولى: ١٩٨٨

هذه هي الجزائر

ملتزمة النشر والنشر

نكتة الخوض المصيرية
٩ شارع عدلي بإشاعة القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأهداء

إلى شحابا معركة الحربة الحاسمة في فطر الجزائر النبيل .
إلى أرواح الشهداء ، ودماء الأبرياء ، ودموع اليتامى .
إلى الذين ماتوا لتحيي مقدساتهم .
إلى الذين كسروا بأيديهم الجبهة أغلال الاستعمار .
إلى الذين تحطمت فوق صخرة إيمانهم موجة الاستعمار .
إلى الذين بنوا بمزائهم الصادقة ، بين أكلام سن الجثث وبحر من
الدماء وطوفان من ألسنة اللهب ، صرح الجزائر الحرة ، السميدة المستقلة .
أوسم هذه الدراسة المتواضعة ، اعترافاً بفضلتهم ، وتخليداً لذكراهم ،
وشهادة لهم أمام الله والناس أجمعين ، بأنهم استحقوا تقدير الوطن
والتاريخ . وتمجيد العروبة والإسلام .

أ . نوفي المطري

تقديم

من هي هذه الأمة التي أدهشت العالم بجيادها ، وبهزت الدنيا بقباتها
أمام أعظم قوة استعمارية جردت في قطر من الأقطار ، في أي عصر من
العصور ، واشترأبت إليها أنظار سائر الشعوب تشهد على بدعها من
الظالمين ، وتمزيق آخر صفحة من صفحات الاستعمار الذي القدر ؟

وما هي هذه البلاد التي بسجل التاريخ فوق جبالها ونجودها ، وبين
شمايها وكثبانها ، صفحة من أروع صفحات البطولة والمجد ، ويروي قصة
ضال تحريري لا مثيل له في العالم ، شاركت فيه أجيال وأجيال مناضلة ،
حتى صار ذلك الفضال التحرري « القاسم المشترك الأعظم » بين سائر
أفراد هذه الأمة ، وبين سائر أبناء هذا الوطن الشريف ؟

تلك هي أمة الجزائر . وذلك هو قطر الجزائر !

اسمان أصبحا ملء السمع وملء الفم وملء الضمير ؛ اسمان أصبحا
علما على كل المعاني التي تقدها الرجولة الفاضلة ، وتمجدها الكرامة
الإنسانية : الجهاد في سبيل الحرية ، والموت في سبيل الله والوطن ،
والتضحية ، والإيثار ، والبطولة الصامتة ، والقيام بالواجب ، كل الواجب ،
إلى آخر قطرة من الدم ، وإلى آخر رمق من الحياة .

تلقت الأمة ، عن أجدادها ، فوق أديم هذا الوطن ، علماً ، و
 وخميراً ، وتوارثت ذلك كابراً عن كابر ، منذ أقدم السور . فاسقط
 العلم ، علم الحرية ، من يد شهيد ، سقى تلقت أيدى الذين يقتفون في
 الشرف خطاه ؛ من استقر ذلك السيف ، سيف الكفاح والنضال في
 يوماً ، فهو دولة بن الأجداد والآباء والأحفاد ، لا يزال مشهوراً منذ
 السنين ، يعجد الماضي ، وببشيء الحاضر ، ويهيئ المستقبل . وما خبز
 ذلك الضمير المتقدة ، ولا خفت نوره البضاء ، فهو ضمير الإمان وال
 والشور . هو روح قدسية جامعة ألفت بين الوحدانية والدين ، بين
 وبينهم ، ما كان لهم من شأن ، من شأن الأجداد الذين هم في الحاضر
 ويعتبرون المقامات ، وما هم إلا الذين هم في الماضي ولا يابن .

لكن العالم ، والسلام الربى على الأخضر ، لا يسرف عن هذا الت
 ولا عن بلاده الشيء الكثير . بالاستثمار الفردي قد أقام بين العالم و
 هذه القلعة الثمينة الدائرية من أرض المرونة والإسلام ، جداراً حديدياً
 أراد ، هو أديباً ، وأراد الله مؤقّتاً ، فلم نشع أحباره ، ولم يذع ذكر
 وتمدد الاستثمار بحق معاله ، وطعن تاريخه ، ونحو جديديه ، وإعما
 شخصيته ، كبلا يذكر بعد ذلك في عالم المرونة ، ولا ضمن بلاد الإسلا
 ولا بين سفوف الأمم الحرة .

غير أن المستثمر لم يستطع أن يفرض إرادته ، رغم وسائل البط.

والقوة العسكرية الرهيبة اللذين ، باتت يهزجان في وجه الشعب الجزائري
الناضل ، فكان الشعب الجزائري في الشجعان ، والذي نرفض إرادته قوية
إيماناً ، بقوة ساعديه ، وقوة نضاميته ، وأصبح العالم اليوم — والعالم
الذي نحن فيه — ، يريد أن يسرف عن هذا الشعب النكالي الباس
رغم بلاده كل شيء .

وهذا هو موضوع بحثنا اليوم .

فإننا لم أكتبه للدعاية ، إنما كسأله تسجيلاً للواقع ، ونصيراً لها .
القطر ، وفي هذا الشعب ، فهو يندفع على الصادي ، من أجل المارخ ، من
الثابت من أرقام الانعقاد ، وسبب الحاله التي كانت بها ، من
الأصل ، فلا بهالفة ولا سهو بل ، نأذا ما صدر القاذف ، وأذا عن
نهايته ، وجد نفسه ملأاً بكل ما يجب أن يعرفه عن هذا القطر ، وعن هذا
الشعب ، وعن هذا الجهاد .

ثم إنني قد استجبت في تأليفه ، لرغبة عربية وطنية كريمة ، أبداهها
أخ مؤيد صادق كريم ، ألا وهو المجاهد الكبير الأستاذ محمد فؤاد جلال ،
سكرتير عام مجلس الخدمات ، ورئيس مؤتمر الخريجين العرب .

فقياماً بواجبي ، وتلبية لهذه الرغبة الخاصة ، أقدم لعالم العروبة ،
ولأقطار الإسلام ، هذا الكتاب ، وأرجو أن يكون وسيلة تزداد بها

روابط الأخوة والتضامن والكفاح ، بين العالم العربي النامض ، وبين
شعب الجزائر المجاهد ، واسطة عقد المغرب العربي الكريم ، حتى نشترك
سما في تقويض آخر معاقل الاستعمار ، وإقامة جدران المستقبل العربي
الباهر ، على أسس الأخوة الصادقة ، والتضامن الفعّال ، تحت راية الحرية ،
وفي نعيم الاستقلال .

١ . ست . المرني

القسم الأول

التعريف بالبلاد والبحر السطحي

اسمها :

لماذا أطلقوا على هذه الأرض الساسعة الممتدة بين حدود الماسني التونسية شرقا ، والماسني المراكشية ، غربا ، اسم « فطر الجزائر » . وهل هذا القطر مؤلف من بئرعة من الجزر البحرية ، حتى استبحر هذا الاسم ، . إن هذا القطر كان يدعى في التاريخ العربي القديم « المغرب الأوسط » إلى سنة ١٥٠٠ ميلادية ، حين تدخل الأتراك العثمانيون في أسره ، استجابة لطاب أهله ، وساعدوا على إلقائه من السقوط تحت ضربات الاستعمار الأسباني الفتاك ، بعد أن انتهى أمر الممالك الإسلامية ببلاد الأندلس .

وإذ جمع الأتراك العثمانيون ورجال المغرب الأوسط سائر البلاد تحت إدارة مركزية موحدة ، اتخذوا عاصمة لها بلدة صغيرة ، ذات موقع جغرافي ممتاز ، تقوسط الساحل كأنها درة تاجه ، تدعى « جزائر بني مزغنة »

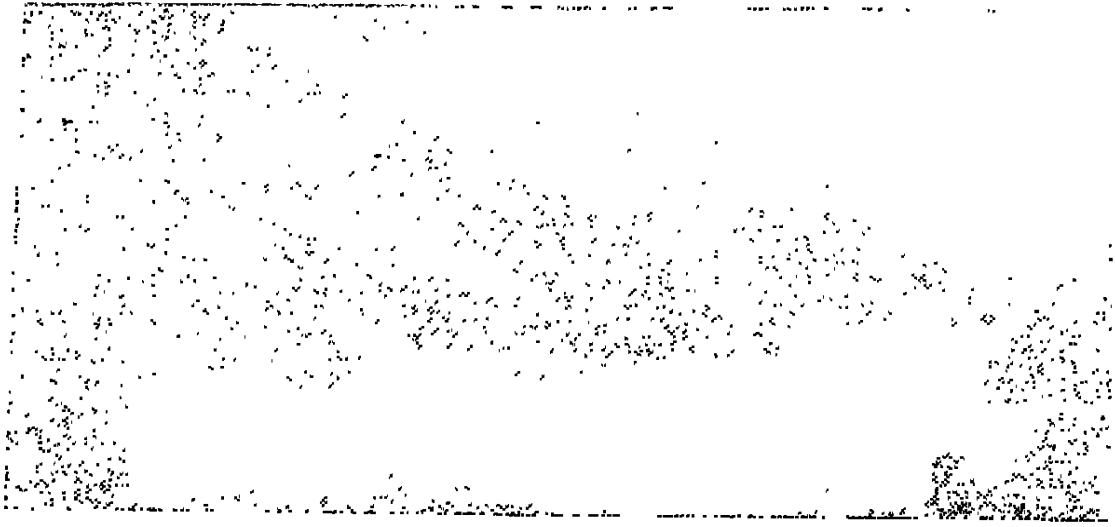
لوجود عدد من الجزر الصغيرة أمامها ، تستعملها لحماية سفنها والدفاع عن ديارها ضد غارة الأعداء فأخذ الأتراك وأهل البلاد يعمرون تلك المدينة ، وينشئون بها الدور والقصور إلى أن تضخمت وأصبحت من أكبر المدن الأفريقية قاطبة ، وصارت تدعى باختصار « مدينة الجزائر » ثم أطلقوا اسمها على كامل البلاد الترابية الأطراف التي تدين لحكمها ، وهكذا نشأت في مستهل القرن السادس عشر ، وحدة تدعى الجزائرية ، أو قطر الجزائر ، مع نشأة العصر التاريخي الحديث في العالم .



(شكل ١) مدينة الجزائر أيام الدولة المستقلة

ساحلها :

تقع البلاد الجزائرية كلها على البحر الأبيض المتوسط ، ولها ساحل صخري في الغالب ، يمتد نحو ١٢٠٠ كيلو متر ، فيما بين مملكة تونس ومراكش . ويكاد هذا الساحل يسير على خط مستقيم ، ليس به كثير من الخلجان أو الجوانات أو الجزر ، قد شيدت عليه من الشرق إلى الغرب ، وراء جدران وسدود سمكة ، أهم المدن والمراسي البحرية : عنابة



(شكل ٢) حاجج قرب مدينة جيجل

(بونة) سكسيدة (فليب فيل) ، بجاية ، الجزائر ، وهران ، جيجل . الخ

صمودها :

الحد الشرقي الجزائري حد وضعي ، يفصل عمودياً بينها وبين مملكة

تونس ، من نقطة تبتدىء شرق « القالة » على البحر ، إلى نقطة تذهب
على مقربة من مدينة « غدامس » في المملكة الليبية .

أما الحد الغربى ، فهو وضعى كذلك ، لا يعتمد على أى حاجز طبيعى
فينحدر عمودياً من نقطة غرب « الغزوات » (غور) إلى واحة « الفقيق »
ثم ينتهى غربا جنوب المملكة المراكشية .

وأما الحد الجنوبي فهو يفصل ، بصفة وضعية بحتة ، بين قطر الجزاء
وأفريقيا الغربية الفرنسية ، بحيث يترك لقطر الجزائر بلاد « الهقار » التي
تسكنها قبائل « الطوارق » المتيقة .

مما همها :

يتألف القطر الجزائرى من قسمين : القسم الشمالى الآهل ، وقسم
الصحراء والواحات الجنوبية .

أما مساحة بلاد الجزائر الشمالية فتبلغ ٢٠٧,٥٠٠ كيلو متر مربع

ومساحة بلاد الصحراء الجنوبية تبلغ ١,٩٨٧,٦٠٠ » » »

فتكون جملة مساحة القطر الجزائرى ٢,١٩٥,١٠٠ » » »

طبيعة الأرض الجزائرية :

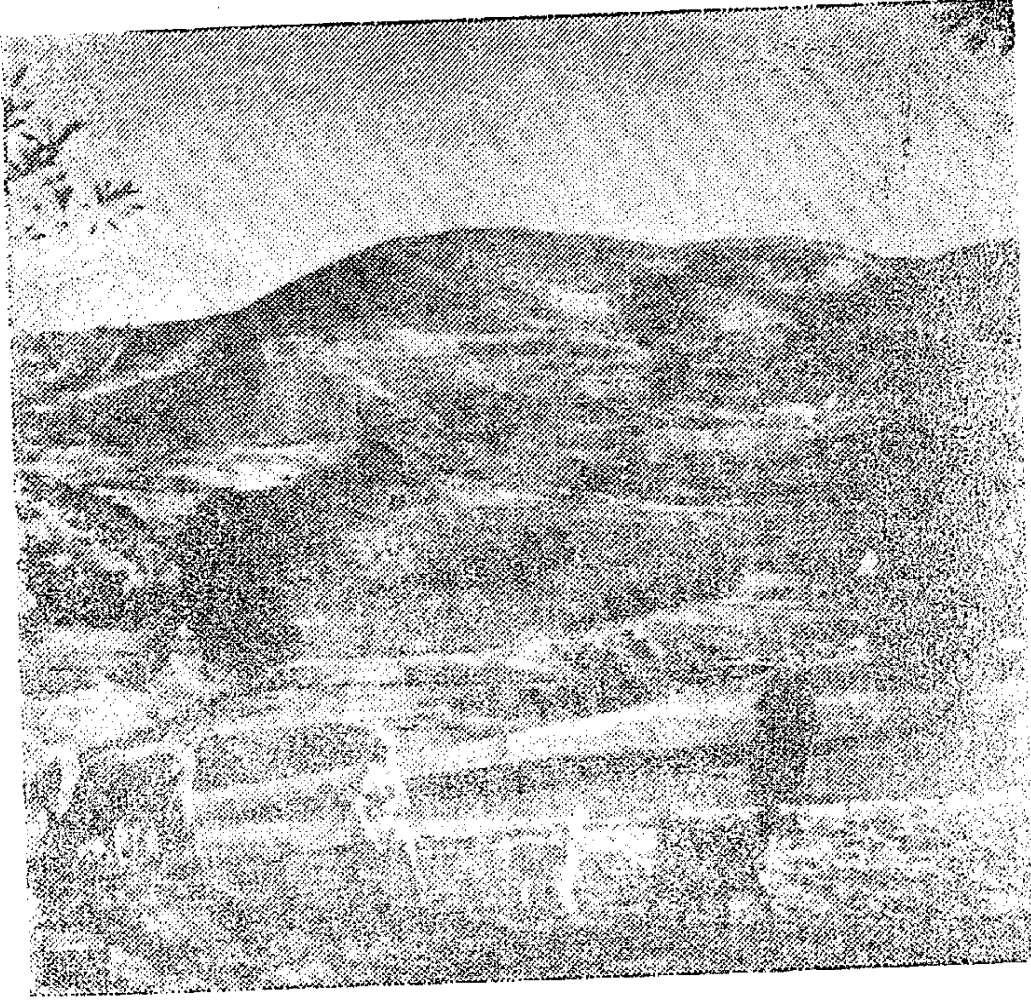
القطر الجزائرى فى مجموعه نجد مرتفع ، فإذا ما ألقيت نظرة على
خارطة القطر الجغرافية ، رأيت سهولا ضيقة شاسعة الغنى بديعة الحسن

تنحدر بين الجبال وساحل البحر . و وراء هذه السهول الساحلية تمتد سلسلة جبال الأطلس التلى ، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب . فإذا ما انحدرت من هذه الجبال المتواصلة رأيت نفسك فى إقليم « النيجود » المتراعى الأطراف ، والذي يبلغ ارتفاعه أحياناً نحو ٨٠٠ متر . فإذا استمررت بأك السير نحو الجنوب ، ارتفعت أمامك شامخة عظيمة سلسلة جبال الأطلس الصحراوى التى تخترق القطر بأسره من شرقه إلى غربه ، كأنها سد منيع أحكمت صنعه يد الله ، ليحول دون تسرب رمال الصحراء إلى إقليمى النيجود والأطلس التلى .

وإذا ما اخترقت تلك الجبال الصعبة المرتقى ، الوعرة المنحدر ، وجدت نفسك أمام إقليم الصحراء المتراعى الأطراف . وإليك نبذة وجيزة عن كل قسم من هذه الأقسام التى هى كل البلاد الجزائرية المجاهدة :

الثل والساحل :

الساحل الجزائرى جنة يانعة ، وحديقة غناء ، هو غوطة دمشق ، أو دلتا النيل . إنه القطعة الحيوية من أرضنا الجزائرية ، حيث الأشجار الباسقة والفواكه والثمرات ، والأعشاب التى يرتد الطرف عنها خاسئاً وهو حسير . فى هذا الساحل تمتد سهول عناية وسهول متيعة ، وسهول وهران ، وقد صيرها الاستعمار الفرنسى قطعة من أوربا ، بعد أن أبعد عنها بشتي الوسائل سكانها المساكين ، وتركهم كمنبوذى الهند فى العهد القديم .



(شكل ٣) الأطلس التلي عند سكا مودي

أما الأطلس التلي فهو يمتد ويتضخم ، وينفصح أحياناً عن السهول
الشاسعة الثرية ، وأهمها سهول المديّة ، وسيدى بلعباس ، حيث المزارع
العنية . وترتفع جبال التل أحياناً إلى ٢٣٠٨ أمتار (قمة لالا خديجة
بيلاد الجرجرة) .

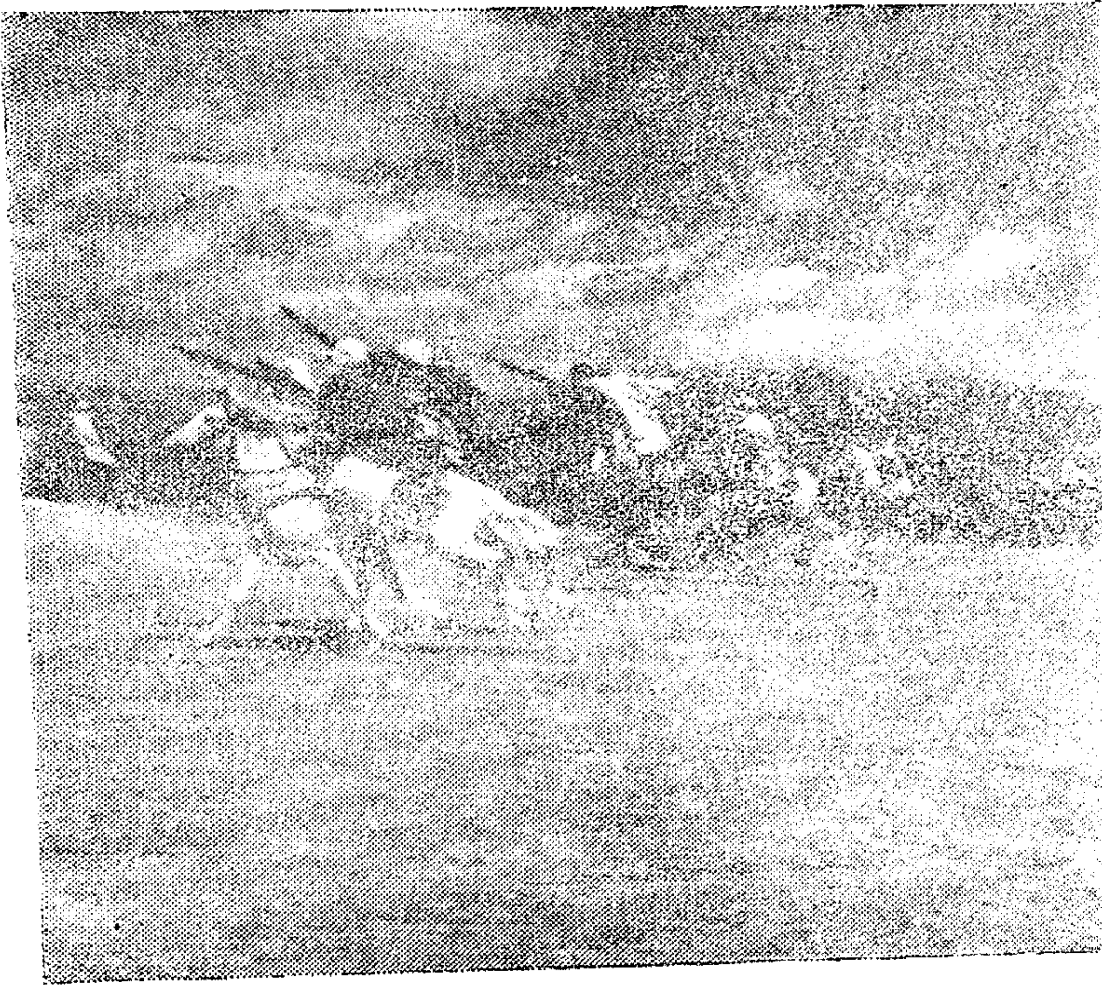
هذه الجبال التلية غنية ، فيها المزارع ، وتكتنفها الغابات السميكة ، ويسكنها الجبليون من أصلب الناس عودا . وتشمل هذه السلسلة عدة جبال مثلاًحقة ، أهمها من الشرق للغرب : جبال سوق أهراس . وجبال بايور . وجبال جرجرة وتدعى بلاد القبائل الكبرى حيث يعيش مليون من الناس السكادحين العاملين . وجبال الونشريس ذات الغابات البديعة ، وجبال تلمسان التي هي من أجمل ما تراه العيون .

فثلاثة أرباع القطر الجزائري يعيشون من خيرات هذه السهول وهذه الجبال . وفي هذه المنطقة تقع أهم وأكبر المدن الجزائرية الساحلية ، مثل عنابة . وسكيكدة ، وبجاية ، والجزائر ، ووهران ، والداخلية مثل سوق أهراس ، وقالة ، وقسنطينة ، وسطيف ، والبايدة ، والمدينة ، ومنيانة ، وسيدى بلعباس ، وتلمسان الخ . وتتماز هذه المنطقة بجو معتدل ، وطقس جميل ، وأمطار منتظمة .

الصحور :

هذه المنطقة الشاسعة تنحصر بين سلسلتى الأطلس النلى ، والأطلس الصحراوي ، فهي بلاد المراعى والفضاء الفسيح ، لا تجد بها مدناً كبيرة ولا عمراناً واسعاً ، وقلما وجدت بها نبع ماء أو مجرى واد ، فأرضها تكتسى بنبات « الحلفة » الذي يجمعه الأعراب لبعض الشركات الاستعمارية الكبرى المحتركة ، ويستعمل في أوربا لصناعة الورق الرفيع وبعض الأقمشة ، ويكاد يكون ذلك هو المورد الوحيد الضئيل لسكان هذه

الناحية . والطقس فيها قاس شديد : ثلوج في الشتاء ، وقيظ في الصيف .
وفي فصل الربيع تسكتسي هذه النجود كلها حلة سندسية من
الأعشاب الزرجدية ، ذات الزهور المختلفة الألوان ، فيغدو النجد كله كأنما
هو زربية (سجاد) أتقنت صنعها يد الله .



(شكل ٤) سباق الخيل عند العرب في النجود

الجزائر الشمالية

البحر الأبيض المتوسط

الجزائر



فرعاة الغنم بالصحراء ، يصعدون بماشيتهم إلى هذه النجود أثناء الربيع ويمضون بها جزءاً من الصيف والخريف ، يفتنون قطعان الماشية بالأعشاب الخضراء ربيعاً ، فإذا ما جفت تلك الأعشاب أصبحت تدعى « الهيشر » وصارحت لغذاء الماشية صيفاً . وبما أن الاستعمار لم يملك هذه الأرض ، فهو لم يحدث بها أى إصلاح ، ولم يفكر فى إيجاد وسائل لجمع الماء بها وادخاره لئلا ينفذ الصيف ليكون مصدراً حياً للرعاة العرب وسكان الجنوب . فالماشية الجزائرية ، وهى أهم مصادر الثروة عند العرب ، تصاب فى غالب الأحيان بكوارث فادحة من جراء العطش ، تذهب نخبتها ملايين الأغنام ، وويل لأمة لا تحكمها الفئة الصالحة من بينها ، وليست إدارتها فى يد ذويها .

الصحراء :

الجبال الشاهقة التى يجدها المرء فاصلة بين النجود والصحراء ، وهى من الشرق إلى الغرب : جبال التمامشة ، وأوراس ، موطن الأبطال ومنبت الصناديد من أقدم العصور ، ثم جبال أولاد نائل ، وجبال الجلفة ، وجبال عمور ، وجبال القصور .

ومن هذه الجبال ما هو مأهول مسكون ، كجبال أوراس التى تعتبر روضة من رياض الدنيا ، وجبال أولاد نائل وعمور ، من أقحاح العرب ، سلائل بنى هلال ، ومنها ما هو خلو تقريباً من السكان ، كجبال القصور .

على جبال أوراس الأشم ترتفع قمة « الشلية » وهي أعلى نقطة في القطر الجزائري (٢٣٢٧ متراً) .

خلف هذه الجبال الشاهقة ، ذات الجبال والعمران ، تمتد الصحراء بقسميها : الحمادة ، وهي بلاد الصخور المحترقة بوهج الشمس ، حيث لا حياة لحيوان أو لنبات ؛ والعرق ، وهو بلاد الرمال الذهبية ، مرتفع الغزلان ، حيث توجد الحياة كلها وجد نبع ماء ، فهناك الواحات الواسعة



(شكل •) واد بو سعادة

الغنية التي تضرب بجبالها وبنخيلها الأمثال . ولا تنزل الأمطار بهذا الإقليم الصحراوي إلا نادراً جداً . وجوه قاس شديد ، حيث إن حرارته تبلغ صيفاً درجة ٧٠ ، وتنزل إلى درجة منخفضة جداً أثناء الليل ، أما زمن الشتاء فالبرد فيه لا يطاق .

الملحقات وبهოდ الطوارق :

الملحقات هى الامتداد الطبيعى لقطر الجزائر جنوب الصحراء . وهذه الملحقات ناحية شاسعة تمر بها طرق القوافل الكبرى نحو الجنوب ، وتقع بها واحات توات ، وعين صالح ، والمنيعه وغيرها .

أما بلاد الهقار ، ويسكنها الطوارق المثلثون ، من قدماء البربر الامازيغ ، فهى قطر جبلى واسع ، أمطاره كثيرة ، وجباله شاهقة ، (٣٠٠٠ م) .

وللمرأة فى بلاد الطوارق السيادة . ويدعى الحاكم « أمين العقال » . وعدد الطوارق نحو ١٥ ألفاً ، وقد أثبتت البحوث الجيولوجية (علم طبقات الأرض) أن ثروات معدنية عظيمة جداً تختفى فى الصحراء والملحقات . لهذا أصبح الاستعمار الفرنسى يفسكر فى سلبها عن قطر الجزائر وجعلها مقاطعة فرنسية ، ومساومة رؤوس الأموال العالمية عليها لاستثمارها . وهكذا يموت الاستعمار وهو يسير مع الأحلام .

الأمطار :

القطر الجزائرى قطر فلاحى بحت ، حال الاستعمار بينه وبين التصنيع ، والفلاحة فى قطر الجزائر لا تعتمد إلا على المطر ، فنظام الأمطار فى قطرنه هو مقياس الحياة وخاصة بالنسبة للمسلمين .

فالاستعمار الفرنسى قد استحوذ على سائر الأرض الفلاحية الجيدة ،
موشاد بها السدود . أما الأرض الفلاحية الفقيرة التى بقيت بيد أهل البلاد
لزهّد الاستعمار فيها ، فقد بقيت فى إهمال تام ، فإن لم يجد عليها المزن بماء
حدث الجذب ، وكانت الكارثة .

فالأمطار فى قطر الجزائر تكون غزيرة فى المناطق الساحلية الغنية —
حيث ضرب الاستعمار أوتاده — وخاصة فى الساحل الشمالى الشرقى ، وينزل
المطر فى هذه الناحية على معدل ١٠٠٠ ملليمتر فى السنة .

وتليها منطقة أخرى لا تنال من لغيث إلا بمعدل ٧٠٠ م . م . وهى
الناحية الشرقية الشمالية من البلاد — مما يلى المنطقة الأولى .

وهكذا تقل الأمطار كلما انحدرنا صوب الجنوب ، فنجد أرض النجود
لا تنال إلا بمعدل ٣٠٠ م . م ثم الصحراء التى تنال أقل من ٢٠٠ م . م فى السنة
وتتهاطل الثلوج على المناطق الساحلية والتلية كلما زاد ارتفاع الأرض
عن ٦٠٠ متر . وكذلك جهات النجود والأطلس الصحراوى ، أما جبال
الجرجرة الشاخة ، فالثلج يلزمها نحو سبعة أشهر كل سنة .

الأودية والأنهار :

الأودية بقطر الجزائر — وخاصة الجهة الشمالية — عديدة ، لكنها
ضعيفة جداً ، وأغلبها يجرى زمن الشتاء دافقاً ، فإذا ما حل فصل الصيف
جف أكثرها . فما كان موجهاً منها بالمناطق الاستعمارية بنيت عليه

السدود للارتفاع بمياهه ، أما ما كان بالمناطق التي بقيت للعرب فيضيع سدا ولا ينتفع به .

وليس بقطر الجزائر من الأنهار التي تسمى مع التسامح أنهاراً ، لأنها لا تجف زمن الصيف ، إلا ثلاثة ، : مجردة في شرق البلاد ، والحراش في الوسط ، والشلف في الغرب ، وهو النهر الجزائري الوحيد ، ويبلغ طوله (٧٠٠ كيلو متراً) ، وكل هذه الأنهار تصب في البحر المتوسط .

وهناك أودية ثانوية تصب مياهها في البحيرات والسبخا الداخلية الآتي ذكرها . أما الأنهار التي تتكون في شعاب الجبال الجنوبية ، فإنها تتجه نحو الصحراء ، ومن فضل الله على هذا القطر الصحراوي أن تلك الأودية ترسب في الرمال إلى أن تجد طبقة طينية ، فتسير معها مخفية ، إلى أن تقترب تلك الطبقة الطينية من سطح الأرض ، فتتكون الواحات الغناء ويكثر العمران ، ويستمر سير المياه تحت الرمال بهذه الصفة ، إلى أن يبرز طبيعياً فتنشأ الواحة أو إلى أن يقع البحث عنها بواسطة حفر الآبار الفوارة (الارتوازية) ولولا أن النظام الاستعماري الشنيع المفروض على أرض الجزائر قد أهمل النجود والصحراء ، لأن سكانهما من العرب ، واهتم أكبر الاهتمام بأقليمي الساحل والتل ، لأنهما محط رحال المستعمرين الأجانب ، لكانت حياة المسلمين في الصحراء والنجود ، بواسطة حفظ المياه والبحث عنها ، حياة رغد وهناء ، وهذا ما استنشه الجزائر المستقلة بحول الله .

وأهم الأودية التي تتكون حولها الواحات : وادي أريغ ، وعاليه واحات

ثقلت وتماسين — ووادى سوف ، الذى قامت على مياهه المباركة
واحات : الواد ، وقار ، وكوينين — ووادى جدى ، وهو مصدر حياة
مدن وواحات : الأغواط وأولاد جلال — ثم وادى ميزاب الذى تكونت
حوله حضارة وعمران الميزابيين فى سبع من المدن والواحات الجميلة أهمها
غرداية ومليكة وبنى يزقن .

السياخ والبحيرات :

فى داخل إقليم النجود السالف الذكر ، يوجد عدد من السياخ
والبحيرات ، يسمى بعضها : الزاغر ، إذا كانت صغيرة ، فإذا كبرت
سميت : الشط ، وأهمها : شط الحضنة ، ومساحته ٢٧٦٥٠ هكتارا ، ثم
الزاغر الشرقى ومساحته ٥٠٠٠٠ هكتار وتقدر كمية الملح الذى فيه بنحو
٣٣٠ مليون طن . ثم الشط الشرقى ، وهو بحيرة تقع على ارتفاع ١٠٠٠ م
عن سطح البحر ، وتمسح ١٦٥ ألف هكتار ، ويقول علماء الجيولوجيا إن
المياه الغزيرة التى تتسرب من هذه البحيرة تكون كمية هائلة من المياه
المالحة ، لا يستطيع العقل تصورها ، تضيع دون جدوى فى بطن الأرض .
فلو كانت الجزائر مستقلة ، ولو كانت مقاليد أمورها بأيدي أبنائها ، لوقعت
العناية بهذه المياه الضخمة فكانت مصدر حياة ورخاء ، فى قطر حكم عليه
الاستعمار بالموت فقراً وإهمالا .

السدود :

أنشأ الاستعمار لنفسه ، من أموال الميزانية التي يدفع المسلمون معظمها ، عدداً من السدود العظيمة في مختلف الجهات التي استحوذ عليها وجعلها مصدر غناه ومنبع قوته . وتتجلى عظمة هذه السدود خاصة بالناحية الغربية من قطر الجزائر ، حيث أصبح المستعمرون يمثلون الربع من مجموع السكان فلم يستعمر الأرض والثروة والسدود ، والمدن والقصور ، والمسلم الفقير والفاقة والحرمان ومدن القصدير . وقصارى أمره أن يكون أجيراً ، يعمل لصالح المستعمر بأبخس الأثمان . شأنه في ذلك شأن بقية إخوانه المسلمين في قطر الجزائر ، حيثما وجد الاستعمار الكبير .

وأهم هذه السدود : سد الغريب ، على وادي الشلف ، يوزع سنوياً ١٤٠ مليون متر مكعب من الماء ، ويسقى ٣٠ ألف هكتار من الأرض . وسد بو خيفية ، في الغرب الجزائري ، يوزع سنوياً على الأرض الاستعمارية (١٠٠ مليون متر مكعب) ، ويسقى (٢٠ ألف هكتار) الخ . فمجموع السدود في الأرض الاستعمارية — ولا ينتفع منها إلا عدد قليل جداً من المسلمين بقوا في شئ من الأرض — ١٢ سداً ، (تسقى ١٢٥ ألف هكتار) ، ومجموع الماء المخزون بها سبعمائة مليون متر مكعب . وتوزع سنوياً على الأرض الاستعمارية (٥٠٠ مليون متر مكعب) .



(شکل ۶) سد وادی سیق

الغابات :

كان القطر الجزائري غنياً بغاباته الكثيفة قبل الاحتلال ، إلا أن العدوان الفرنسي الشنيع على البلاد سنة ١٨٣٠ والحروب الطاحنة التي وقعت إثر ذلك فدامت عشرات السنين ، قد خربت البلاد ، وأتلفت القرى وأحرقت الغابات وأعدمتهما . فالاستعمار الفرنسي قد استقر في البلاد الجزائرية على أشلاء الضحايا ، ورفع مدنه فوق خرابات المدن والقرى الجزائرية ، وغرس كرومه في الأرض التي كانت مصدر حياة الأمة الجزائرية وقد سقتها بدمائها ، فكان عدد الذين ماتوا دفاعاً عنها ، أكثر من عدد الذين بقوا إلى حين عبيداً للاستعمار فيها (أنظر قسم السكان) .

فالغابات في قطر الجزائر لا تحجب اليوم إلا نحو ثلاثة ملايين من الهكتارات . بينما البلاد في حاجة إلى ما يزيد على السبعة ملايين هكتاراً . والاستعمار لا ينفق أموال البلاد إلا فيما يعود بالنفع القريب على المستعمرين وعلى الإدارة الاستعمارية . وعلى القوى الاستعمارية التي يجب أن تخضع أهل البلاد ، فلم يبق من الموارد ما ينفق على تعمير البادية ولا على تشجير الجبال ، ولا على ما يعود بالنفع على السكان المسلمين في المناطق الجبلية والنجود والصحراء .

فغابات القطر الجزائري التي لا تزال موجودة ، تقع غالباً في إقليم التل كغابات القرو (Chêne) والصنوبر (Pin) والبلوط أو الفلين (Chêne Hler) ببلاد الجرجرة الأبية ، رافعة رأس الشعم إلى السماء . وغابات الأرز (Cedre) الشهيرة ببلاد الوشريين . وكذلك غابات الصنوبر الحلبي (Pin d'aep)

ثم ما بقى من غابات الزاياتين التى سيايتك ذكرها فى القسم الاقتصادى .
هذه فذلكة موجزة ، عن الجغرافية الطبيعية للقطر الجزائرى المجاهد .
فإن أردت أخى زيادة فى التفصيل ، أو تعمقاً فى البحث ، فاسمح لى
أحيلك على كتابى (جغرافية القطر الجزائرى) طبع الجزائر عام ١٩٥٢
دار الكتب المصرية عدد ط ٢٢٠٣ — أو كتابى (كتاب الجزائر) هـ
الجزائر عام ١٩٣١ — دار الكتب المصرية عدد .

القسم الثاني

سكان القطر الجزائري

جاء في الإحصاء الرسمي، الذي وقع في أكتوبر سنة ١٩٤٨ أن سكان القطر الجزائري كان يومئذ ٧,٦٧٩,٠٠٠ من المسلمين، و ٩٢٢,٢٧٠ من غير المسلمين .

وبما أن مصلحة الإحصاء تثبت أن عدد المسلمين يزداد كل سنة ١٦٥,٠٠٠ وعدد غير المسلمين يزداد كل سنة ١٨,٠٠٠ نسمة ، فيكون عدد السكان هذه السنة كما يلي :

مسلمون ٩,٠٠٠,٠٠٠

فرنسيون وأجانب ٠,٨٦٦,٠٠٠

يهود جزائريون متفرنسون ٠,٢٠٠,٠٠٠

مجموع عدد السكان ١٠,٠٦٦,٠٠٠

واليسكم كلمة موجزة عن كل قسم من هذه الأقسام .

المسلمون

هم سكان البلاد الأصليون ، وأصحابها الشرعيون . عرف التاريخ منذ عهده الأول أصولهم وأنسابهم ، وسجل لهم أجدادهم قبل الإسلام وبعده والمسلمون الجزائريون — والله الحمد والمنة — عصبية واحدة هي عصبية الإسلام ، وأمة واحدة هي أمة القرآن ، وجماعة واحدة هي جماعة القومية الجزائرية ، قد اعتنقوا الإسلام ديناً منذ القرن الأول الهجري بصفة اجماعية واتخذوا العربية لساناً ، والسنة المحمدية مذهباً ، لا فرق في ذلك بين جبال الجزائر وسهولها ونجودها وصحرائها ولطالما حاول المستعمرون وأنصار المستعمرين أن يحدثوا التفرقة بين المسلمين بإثارة النعرات العصبية والجنسية التي يحاربها الإسلام وتقاومها الوطنية ، فما نجح الاستعمار في ذلك ، لا قليلاً ولا كثيراً .

وقامت الثورة الكبرى على الاستعمار ونظمه وأحكامه ، فإذا بالامة الإسلامية الجزائرية تهب كلها عن بكرة أبيها ، مشاركة في الثورة ، مؤيدة لها ، وربما كانت الجهات التي حاول الاستعمار إيعادها عن العروبة وصدها عن الإسلام ، أكثر الجهات إمعاناً في الثورة وإقداماً عليها .

أما إذا نظرنا إلى أصول المسلمين الجزائريين ، نظرة بحث علمي بحث ، رأيناهم ينحدرون من أصلين اثنين : الأصل الأمازيغي ، الذي أطلق عليه

اللاتينيون ومن والاهم اسم البربر ، والأصل العربى الوارد مع الفتوحات الإسلامية .

العرب :

العرب هم الأغلبية الساحقة من سكان القطر الجزائرى ، (٧ من ١٠) . وقد استقرت أقدامهم فى بلاد المغرب العربى منذ أيام الفتح الإسلامى الأولى ، وتغلغلوا بين السكان الأولين الأمازيغ — نسبة إلى جد هم الأعلى مازيغ — يعلمونهم الدين ويجمعونهم حول القرآن وسنة محمد صلى الله عليه وسلم .

لكن الجند العربى الأول ، جند الرواد ، لم يكن كثير العدد ، فبقيت أكبر أقسام البلاد على مازيغيتها ، إلى أن حدثت تلك الهجرة التاريخية الشهيرة ، هجرة قبائل بنى هلال وبنى سليم ، من صحراء شرق النيل إلى المغرب العربى ، سنة ٤٤٤ هجرية ، فتدفق سيلهم وتكاثر عددهم ، وانتصبوا فى سائر السهول والواحات وأغاب الجبال ، واختلطوا بالعنصر الأمازيغى المسلم اختلاطاً وثيقاً فتصاهر العنصران وامتزجا ، وصهرتهم بوتقة الإسلام والعروبة ، فكانت منهم الشعب الجزائرى ، العربى المسلم ، المجاهد فى سبيل دينه وعروبه ووطنه .

كان الخليفة الفاطمى المستنصر ، يريد أن ينتقم من أمراء صنهاجة فى المغرب العربى ، لأنهم خلعوا بيعته ، وخطبوا باسم الخليفة العباسى ، فأمر

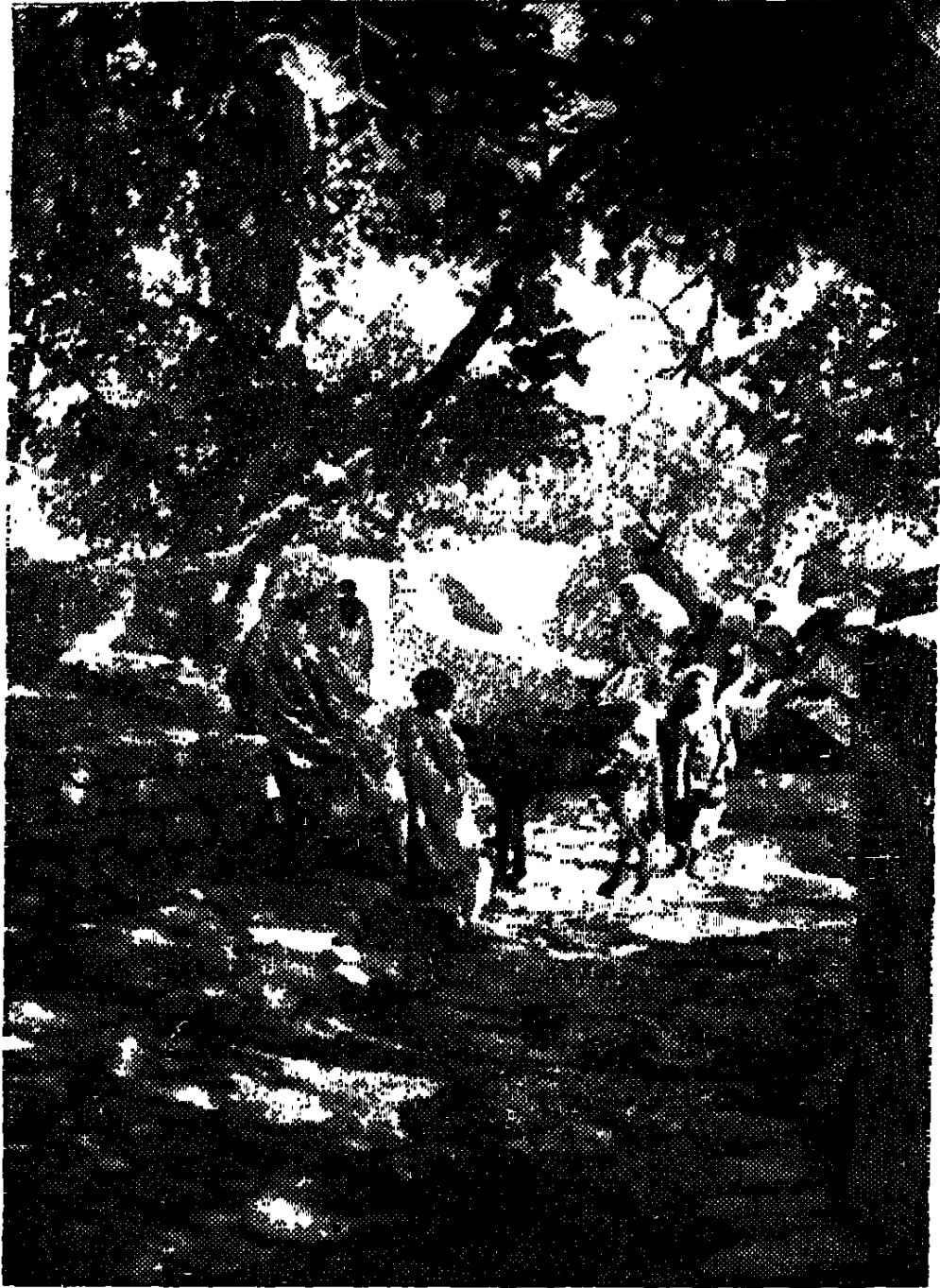
العرب الصحراء الشرقية المصرية بالاجتياز إلى أرض المغرب ، وما كان يدور بخلفه يومئذ أنه وطد أقدام العروبة في هذه الأرض إلى الأبد . فرغم وقوع اضطراب سياسى واقتصادى في البلاد من جراء هذه الهجرة ، دام عدداً من السنين فقد تمكن السكان الأقدمون من أمازيغ وعرب ، والسكان الجدد ، من بنى هلال وبنى سليم ، من الاختلاط والامتزاج ، فتكونت الجامعة الإسلامية العربية على فلول العنصرية القديمة .

والعرب في قطر الجزائر ينتسبون إلى هذه القبائل العربية الأصيلة :
أثبج — جوشم — رباح — زغبة — معقل — وكلهم من بنى هلال
ابن عامر .

ثم قبائل : دياب — هيب — زغب — عوف — وهم من بنى سليم
ابن منصور .

ومن أراد الاطلاع على تفصيل قبائل العرب ، وأصولهم وبطونهم ، ومصاربهم ، ومواطنهم في القطر الجزائري ، فإنه يجد ذلك مفصلاً في كتابنا (كتاب الجزائر) صفحة ١٢٩ إلى صفحة ١٣٨ .

والعرب اليوم في قطر الجزائر يتحلبون بأرقى وأرفع ما في العادات والتقاليد العربية الكريمة : النجدة والمروءة والكرم والوفاء . ولسانهم — وخاصة في الجهات التي لم تدنس باستقرار الاستعمار الفرنسى — فصيح بصيغة مدهشة ، لم يختلط بأى كلمة دخيلة ، فهم يتكلمون لغة قريش ،



(شكل ٧) جِباة الواحة العربية

«يستعملون تراكيب القرآن ، وراثه عن آباءهم وأمهاتهم لا تعلموا وتصنعوا
وهذا شأن البادية الجزائرية كلها ، وخاصة في النجود وفي الجنوب .»

الأمازيغ (البربر) :

هم أصل سكان المغرب العربي كافة ، وهم الذين اخترقوا عشرات القروا
من تاريخه ، كما سيمر بك بمد قليل ، إلى أن وحد الله البلاد تحت را
الإسلام في دائرة العروبة .

وهل الأمازيغ الأحرار ، بماء عن العرب ، أغراب عن العرو
الأولى ؟ كلا فان خلدون مؤرخ البربر الأكبر ، وعمدة تاريخ البلاد القد
والعتر بأصله البربري كما يبدو من تاريخه ، يؤكد أن الأمازيغ أو البربر
أبناء : مازيغ بن كنعان بن حام ، وأن أصلهم من جهات ما بين النهر
بآسيا ، ثم ارتحلوا إلى بلاد المغرب ، مارين بالبلاد المصرية ، وقد أخذوا
منها بعض الطقوس الدينية ، كمباة « عمون » وآثارهم المنقوشة العتية
ببعض جهات الجنوب تؤكدها .

ثم إن بني كنعان من أهل فنيقيا ، قد اختلطوا بامازيغ اختلاطاً وثيقاً
منذ سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد ، وإذا كانت لغة الفنيقيين عربية تشبه إلى
بعيد اللهجة العامية العربية المستعملة اليوم في بلادنا ، فاستعمل البر
الأمازيغ تلك اللغة ، وأصبحت لسان المعاملة والعلم بينهم ، قبل انبثاق
حجر الإسلام بنحو ١٧٠٠ سنة .

فرقنا

البخار الأبيض المتوسط

سیاہ

طنجة
الرباط
الدار البيضاء
مراكش

الرباط
الدار البيضاء
مراكش
بشار

کلوم بشار

• الأعواط

غداية

ورقہ

المسألة

الحسين

المفتي
(الطواق)
تمت

فزان
جانت

موسیٰ طیار

انف

افریقیا الغربیہ

السودان الفرقي

الحجر

وأغلبية الأمازيغ المستقرين بالقطر الجزائري ، والذين لم يندمجوا اندماجاً تاماً في العرب ، من قبائل البرانس ، ومنها : صنهاجة ، وكتامة ، ومصمودة ولطة . والأمازيغى البربرى ، في الجهات التي يسكنها بالبلاد الجزائرية ، يمتاز بالصلابة والشجاعة ، والتصلب للرأى ، وعشق الحرية إلى درجة الهيام ، وهو يسكن غالباً الجهات الجبلية الوعرة ، التي آوى إليها إثر الحروب الكبيرة التي اصطلت بنارها منذ عهد روما ، ويعيش فيها عيش الكد والعمل والإقلال ، فيشارك الرجل والمرأة والصبي في الأعمال المرهقة للاحتفاظ بالحياة في بلاد الآباء والأجداد . والأمازيغى البربرى في جباله محافظ — مع إسلامه المتين — على تقاليده وعوائده ، مضياف كريم ، رغم فاقته ، لا يصبر على عار ، ولا يضيع عنده ثأر .

والكتلة الامازيغية الكبرى في قطر الجزائر ، هي جبال الجرجرة ، أو بلاد القبائل الكبرى ، وأهمها قبيلة « زواوة » وتقع شرق مدينة الجزائر موازية للبحر ، ففي هذه الجبال المنيعه التي صارت الأمم وغالبت الدول ، وسجل التاريخ على فيجاجها ومرتفعاتها أروع صفح البطولة والنجدة ، يعيش في ضيق مادي وأدبي مليون إنسان ، يحتفظون بنظام العائلة والصف ويدينون جميعاً بالإسلام الخنيف ، ولهم صلابه فيه ، ويتكلم أكثرهم اللغة العربية إلى جانب اللغة المحلية ، فليس فيهم من لا يتكلم العربية ، إلا نحو ٥٠ ألفاً من الناس ، ورغم أن الاستعمار قد أصاب سكان هذه البلاد بنكبات فادحة ، واستحوذ على أجود أرضهم الجبلية ، فقد حاول أن يفصل بينهم (م — ٣ هذه هي الجزائر)

وبين العرب ، وأن يقتطعهم من جسم العروبة والإسلام ، فنشر بين ربوعه التعليم الحكومى الفرنسى ، وقاوم العربية مقاومة عنيفة ، وحارب الإسلام حرباً لا هوادة فيها ؛ وأفسح الطريق أمام الإرساليات المسيحية التى تنادى بالنعرة البربرية ، وتدعو الناس جهاراً لمقاومة العربية والإسلام ، لكونهم تتكون له فى هذا القطر فئة من أهل البلاد ، لغتها الفرنسية ، ودينهم المسيحية ، ولكن أهل البلاد قاوموا وتصلبوا فباء الاستعمار بالغمش الذريع فبفضل الدعوة الإسلامية التى قام بها الشيوخ المسلمون قديماً ، والنهضة الحديثة التى تولت كبرها جمعية العلماء المسلمين ، والبعث السياسى الذى تم على أيدي الأحزاب الوطنية الجزائرية ، خسر الاستعمار معركته ، فإذ بالكتلة الأمازيغية البربرية تقف اليوم فى صف الثورة الكبرى ، تحت راية الإسلام ، والعروبة ، والوطنية الجزائرية ، وقد ذابت فى جميع ذلك كل الفروق ، ولم تبق لكل أبناء الوطن من غاية ، إلا الاستقلال الوطنى ولم يبق لهم من عدو ، إلا الاستعمار الغاصب .

الفرنسيون

الفرنسيون المستقرون اليوم بأرض الجزائر على نوعين : النوع الأول مؤلف من أبناء فرنسا الذين دخلوا البلاد مع جنود الاحتلال فاستولوا بحكم الفتح على أرضها وعلى خيراتها وأموالها ، أو الذين جاؤا بعد الفتح جموعاً متوالية ، تنشطهم على ذلك حكومتهم وإدارة البلاد ، لئلا ينالوا



(شكل ٨) الأمازيغ الأيالة في جبال جرجرة

الثروة والسلطان دون تعب أو مشقة ، وأكثرهم من جزيرة كورسكا
وجمات الأزاس والورين .

أما النوع الثانى ، فهو خليط من أبناء العنصر اللاتينى ، من إيطاليا
وإسبانيا ، جاءوا البلاد واستقروا فيها وأغدقت عليهم السلطة الأموال
ومنحتهم الأرض الشاسعة ، لكي يتضخم بهم عدد الجالية الأوروبية
المسيحية ، فنالوا الجنسية الفرنسية ، وأصبحوا فى بلادنا سادة ، بعد أن
كانوا فى بلادهم حثالة ، بل أصبحوا الحاكمين بأمرهم ، وأصحاب السلطة
المطلقة مع بقية الفرنسيين

فهؤلاء الفرنسيون أو المتفرنسون ، الذين بلغ عددهم اليوم نحو ثمانمائة
ألف رجل ، هم سبب مصيبة القطر الجزائرى ، وهم أصل الداء الذى عانت
البلاد منه الأمرين ، إلى أن وصلت بعد المحاولات العديدة إلى الثورة
الكبرى الحالية ، التى لا تكون وراءها إلا الحياة الحرة أو الموت الشريف .
يجمع بين أفراد هذه الطائفة التى تدعى «فرنسية» رابطة مقدسة ذات

شعار مربع : الاستبداد ، الاستحواذ ، الاحتقار ، التنكيل .

١- فالاستبداد جعل هذه الطائفة المحظوظة تستأثر وحدها بكل مقاليد
الحكم فى البلاد ، فهى الدولة ، وهى الإدارة ، وهى الحكومة ، ولا تسمح
لأحد ، ولا لحكومة فرنسا نفسها ، أن يزج بأنفه فى أمور القطر الجزائرى ،
وهى تراه ملكها الخالص بها . ووصل بها الأمر مرارا إلى تهديد فرنسا بالانفصال
عنها ، وتشكيل دولة عنصرية فى قطر الجزائر على غرار دولة الدكتور

مالان الدنيئة في اتحاد جنوب افريقيا . ولقد قاوموا كل إصلاح ، ووقفوا الموقف الضارم ضد كل محاولة لأزالة شيء من الحيف الفظيع والاجحاف الفاضح الذي أوجده أدارتهم وحكومتهم بالقطر الجزائري . فبواسطة أموالهم الطائلة وصحفهم القوية ، وسماستهم . . . الموجودين في الوزارات والمجالس النيابية الفرنسية ، كانوا يتصرفون في أمور الدولة ، ويبعدون عن القطر الجزائري كل وال وكل موظف لم يخضع لإدارتهم ، أو تقاعس عن تنفيذ أغراضهم . وآخر منظر لهم من مناظر هذا الاستبداد الفظيع ما قابلوا به — يوم ٦ فبراير سنة ١٩٥٦ — تعيين الجنرال كاترو من قبل حكومة في مولي الزعيم الأشرافي حتى اضطروه لتقديم استقالته ، لأنهم ظنوا أنه ربما أنصف المسلمين في شيء ، ثم ما قاموا به نفس ذلك اليوم ، في مدينة الجزائر العاصمة ، من اعتداء منعدم النظير على شخص رئيس الحكومة ، وقذفه بالشتائم المقدعة ، فما وسعه إلا أن انهيار أمامهم ، ورضخ لإرادتهم ، وأصبح لسان الدفاع عنهم ، يلتبس لهم المعاذير .

٢ — والاستحواد وهو المصيبة الثانية ، جعل هذه الطائفة تستأثر بكل شيء في القطر الجزائري ، فلها كما رأينا الحكومة ؛ ولها الإدارة ؛ ولها المجالس المنتخبة ؛ ثم لها وحدها كامل الأرض الزراعية الخصبة في كل البلاد الجزائرية ، ولها كل البنوك ، وكل الشركات ؛ وجميع رؤوس الأموال ، ولها كل المناجم ، وكل المعادن ، وكل حركات التجارة بين صادر ووارد ، ولها كل الصناعة القليلة التي وجدت في البلاد .

أما أهل البلاد ، التسعة ملايين من السكان المسلمين ، فقضاري أمرهم

أن يكونوا في أرض آبائهم وأجدادهم أجراء ، يكدهون آباء الليل وأطراف النهار ، بمقابل مالا يكاد يسد الرمق . أما في الإدارات ودواليب الحكم وشركات الأعمال الكبرى ، فلا يوجد من المسلمين أحد . فالوظيفة وقف على الفرنسي ، والعمل أن ارتفعت درجته وقف على الفرنسي ، (من ٥٠٠٠ موظف بالدواليب الحكومية لا يوجد إلا ٨ فقط من المسلمين !) .

٣ — الاحتقار : وهو ثلاثة الأثافي . فهذا العنصر الذي أصبح يعتقد اعتقاداً دينياً أن الله قد خلقه وفضله في أرض الجرائر على العالمين ، لا يكتفى بالاستبداد في الحكم ، ولا بالاستئثار بسائر وسائل الثروة والعمل والإنتاج ، بل يميز ذلك بصفة ملازمة لا يشذ عنها إلا في النادر القليل ، ألا وهي احتقار المسلم ، وامتهانه ، والإمعان في إذابته ، والتفنن في تلقيبه بالألقاب الجارحة . فكل مسلم عند هؤلاء القوم أما (بيكو) يعني القذر ، وأما — ترون فيقى — يعني جذع التين الشوكي ، وكل سيدة مسلمة عندهم إما « لاموكير » أو « فاتما » وليقس ما لم يقل . ولو أردنا أن نضرب الأمثال على ذلك لكتبنا عنه الصفحات الطويلة . إنما نحن لم ننس أننا ما كتبنا هذه الرسالة إلا لعرض على تحليلي ، لا لنتخذ منها وسيلة للدعاية والتشهير ولو بالحق . ومن أمثالهم المألوفة المعروفة : « العربي هو الخطر ! » و « إذا رأيت في طريقك عربياً وأفعى ، فبسادر بقتل العربي قبل الأفعى » .

٤ — التنكيل : يعلم هؤلاء القوم ، أن حكمهم الغاشم المبني على القوة

والاستبداد لا يمكن أن يستمر وأن يدوم ، إلا ما دام المسلم الجزائري ، جاهلا ، فقيرا ، مهملا ، فاقد الصوت والمكانة ، فهم يسرفون في سياسة التجهيل والتفكير ، وقد أصبحت عندهم نوعاً من الهيستريا الجماعية — ولا أقولها تحاملا — فكل مسلم تعلم ، فهو عدو يجب محقه ، وكل مسلم أثرى — وذلك هو النادر — فهو الخضم الذى يجب أن يحطم . لهذا فهم يعمنون فى إحصاء أبواب العلم والمعرفة فى وجه الأمة (أنظر قسم التعليم فيما يلى) ويحاربون العربية والدين الإسلامى محاربة لا مثيل لها فى الدنيا ، ويقفون بما فى أيديهم من نفوذ وسلطان ضد أى مشروع اقتصادى لعرب القطر الجزائرى .

فإذا ما وقعت عملية زجر وقع ، بادروا قبل كل شىء بقتل وإفناء الطبقة المتعلمة والطبقة الثرية ، كما وقع فى حوادث ١٨٧١ و ١٩٤٥ و ١٩٥٥ .

وقد تفننوا فى وضع القوانين الصارمة المنافية للإنسانية ، لإنزال البطش والتفكيك بالمسلمين ، كقوانين الأهلية « الأنديجنا » وقوانين المسئولية الجماعية التى تصيب كامل القرية أو القبيلة لذنب — نظرى — يجترحه أحد أفرادها . ثم هم يفتنمون أول فرصة تسنح لهم ، للقيام بأعمال الزجر الفظيعة الرهيبة ، بدعوى إخماد الفتنة وضرب المثل ، فآلاف الناس من رجال وشيوخ ، ونساء وصبيان يقتلون تقتيلا شنيعا ويمثل بهم ، بعد انتهاك الحرمات بصفة يتورع عن وصفها القلم النزيه . فبالاد القبائل

الكبرى، وبلاد أوراس، والمواطن الواقعة بين قالة وسطيف وخراطه قد شاهد من ذلك قصولا من العار والشنار لا تمحوها يد الدهر كحوادث (٨ مايو سنة ١٩٤٥) ثم حوادث الثورة الأخيرة وما يسلكون فيها من سياسة البطش الجماعى، وتخطيط الجهات العديدة وإف كل مراسم الحياة فيها . فأسفرت حوادث ماى سنة ١٩٤٥ عن ٤٥ ألف من القتلى ، وأسفرت الحوادث الأخيرة عن ١٣٠ ألفاً من الشهداء يومنا هذا ، وهذه هى سياستهم منذ سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٩٥٦ .

فن علم كل هذا ، ومن علم ما سنقوله بعد هذا ، لا يعجب من وقوع الثورة الجزائرية الكبرى سنة ١٩٥٤ ، بل يعجب ويعمن في العجب كيف أنها لم تقع قبل ذلك !

واليوم ، نفس هذا اليوم ، بينما تضج الدنيا بأسرها مما هو واقع بقعة الجزائر من مجازر وفضائح وموبقات ، وحرب ضروس لا تبقى ولا تذر وبينما يقف الكثير من أحرار فرنسا ورجال الفكر والأدب والسياس فيها موقف الحزم والصرامة فى استنكار هذه الأساليب الوحشية ؛ نرى الفرنسيين فى قطر الجزائر - إلا النادر القليل - لم يتعلموا من منطوق الحوادث شيئاً ، ولم ينسوا من تعاليمهم القديمة شيئاً ، فهم يرون أن لاعلا للحوالة إلا بتخطيط كل وسائل المقاومة فى أيدي المسلمين ، ثم الإمعاد فى السياسة الاستعمارية التقليدية ، كأن لم تقع ثورة بدلت الأرض غير الأرض وأوصدت أبواب الماضى ، وفتحت أبواب المستقبل !

هذا هو وصف الفرنسي الجزائري . أو بالأحرى : اللاتيني الجزائري .
لأن هذا العنصر أناني إلى درجة أنه لا يفكر في فرنسا إلا متى استطاع
الاستفادة منها . وبما أن فرنسا ترى أنه لا يمكن لها البقاء في أرض
الجزائر إلا إذا ما هي خدمت ركاب هذا العنصر ونفذت له رغائبه ، فإنها
كانت له — ولا تزال — المطية الذلول ، إلى أن تتمكن الأمة الجزائرية
الجبارة من تغيير هذا المنكر العظيم بقوة سواعدها ودماء شهدائها
وصادق عزمها .

اليهود

يبلغ عدد اليهود في القطر الجزائري نحواً من مائتي ألف نسمة ولقد
كانوا يعاملون في القطر الجزائري قبل الاحتلال معاملة أهل الذمة ،
ويعتبرهم المسلمون جيراناً لهم يرعون عهدهم ويحققون لهم حرية العمل
وحرية المعتقد ، بل كان اليهود ينالون أحياناً المناصب الرفيعة في الإدارة ،
وخاصة — أيام الجمهورية الجزائرية — العثمانية ودولة الجزائر الحرة العربية .
وكان اليهود يلجأون إلى قطر الجزائر كلما نابتهم نائبة في أقطار البحر
المتوسط ، فمن أيام بختنصر (٣٢٠ ق . م) إلى أيام انهيار الدولة الإسلامية
ببلاد الأندلس ، (أواخر القرن الرابع عشر) كانت وفود اليهود ترد
على البلاد الجزائرية ، فتحل فيها على الرحب والسعة .
لكن اليهود كانوا يعتبرون أنفسهم جالية مستقلة ، فلا يشاركون في

الدفاع عن البلاد ، ولا يراعون مصلحة الوطن في معاملاتهم التجارية والاقتصادية ، وجاء الاحتلال الفرنسي فعملوا إلى جانبه ، واشتغلوا له سحابة وتراجة ، وأثروا ثراء عظيماً ، وأخذوا في الاستيلاء على مرافق البلاد التجارية والاقتصادية ، وكانوا لا يزالون معتبرين من الأهالي . إلى أن انتصبت حكومة الثورة سنة ١٨٧٠ في باريس ، وكان من بين أعضائها اليهودي « كريميو » فأعلن فرنسا كل يهود الجزائر الشمالية ، وأخذوا من ذلك الوقت يندمجون في الحياة العامة الفرنسية اندماجاً تاماً ، وغيروا أسماءهم وألقابهم ، وتصاهروا مع الفرنسيين وتغلغلوا في وسط عائلاتهم ، إلى أن قامت ضدهم فتنة من الفرنسيين في البلاد الجزائرية سنة ١٨٩٧ . فما نجوا من المذبحة إلا بأعجوبة ، لكنهم عادوا بعد قليل إلى مكانتهم ونفوذهم .

ولهم لا يزالون يسلكون سياسة اللعب على حبلين ، فهم فرنسيون . استعماريون غلاة ، إن كانوا مع الفرنسيين ، وهم « أبناء البلاد » إن كانوا مع المسلمين في تجارة أو معاملة ، إلى أن انهارت فرنسا بصفة فاضحة مخجلة سنة ١٩٤٠ ، ولم تستطع الثبات في وجه ألمانيا أكثر من نصف شهر . فسلكت حكومتها سياسة الميز المعنصرى الألمانية ، ونزعت عن يهود الجزائر جنسيتهم الفرنسية ، فأصبحوا من جديد « أنديجين » ، وحجزت أملاكهم ، وأبعدوا عن منابع الثروة . فكثرت عندئذ تقربهم من المسلمين ، وأخذوا يذكرونهم بحسن الجوار القديم .

لكن ، ما كاد الحال يتغير بانتمصار المتحالفين ، حتى عاد اليهود سيرتهم الأولى ، واستعادوا أموالهم ، ونفوذهم ، ومراكزهم ، وجنسياتهم الفرنسية .

وفاجأتهم الثورة وهم على تلك الحال .

ولقد أعلنوا أنهم يلزمون سياسة الحياد ولو بصفة ظاهرية . ويبدى صغارهم المسلمين وخاصة في المدن الصغيرة ، عطفه ، كما يبدى كبارهم للمستعمرين تأييدهم ، وربط مستقبلهم بمستقبلهم ؛ إلى أن تخرج الموقف أخيراً — في ماي سنة ١٩٤٦ — إذ شارك رعاهم في أعمال التتكيل والزجر بمدينة قسنطينة — إلى جانب الفرنسيين ، فقتلوا جماعة من المسلمين وهددوا بقتل جماعة أخرى ، بدعوى أن أحد اليهود قد قتل أثناء عملية من عمليات الثورة .

فأعلن المسلمون أخيراً في جهة قسنطينة مقاطعة التجار اليهود — تأديباً لهم — وأخذت هذه الحركة تنتشر وتعم . ويقول الجزائريون اليوم وقد وصلت قضية الجزائر إلى هذه المرحلة الحاسمة : على اليهود أن يبينوا موقفهم بصفة صريحة لا التواء فيها ، وإما أن يعتبروا أنفسهم جزائريين ، فيعملوا ما توجبه عليهم جزائريتهم ، وإما أن يعتبروا أنفسهم فرنسيين ، فنعاملهم في جزائر الغد على تلك القاعدة .

ولم يقل اليهود بعد كلماتهم في هذا الصدد ، لكن نقول لهم بكل صراحة : إن من لعب على حبلين يوشك أن يخسر الصفتين .

* * *

والآن ، وقد عرفت الأرض وتعرفت على السكان ، اتريدان أن تجول
معى جولة قصيرة خلال تاريخ هذا القطر المجاهد ، من أوائل عهده إلى
يومنا هذا ، اترى كيف جاهد خلال عشرات القرون فى سبيل حريته
والذود عن حماه ، وكيف هو أقام أسس الدول العظيمة ، وأنشأ الحضارات
العريقة ؟

إن أردت ذلك ، فهلم معى نختبر غياهب العصور ، إلى أن نصل إلى
الاحتلال الفرنسى ، ثم ندرس بعد ذلك آثار هذا الاحتلال ، وتطوراتهِ ،
وما عمله لتحطيم الأمة الجزائرية ، وماذا كانت آثاره فى المجتمع وفى
اقتصاد البلاد ، إلى أن نتجدد أن الثورة الحاضرة كانت ضربة لازب ،
وكانت النتيجة الطبيعية المحتمة لهذا الاستعمار الفظيع ، ونلج بعدئذ ميدان
الثورة ، فنلقى على جوانبه وعلى أغواره نظرة فاحصة ، نرى بها أعمالها ،
ونشاهد بها تحقيق آمالها . فها بنا ...

القسم الثالث

ما يجب أن نعرف عن تاريخ الوطن الجزائري

١ - الفنيقيون

كانت أمة الأمازيغ الأحرار « البربر » تعيش عيشة بدائية ساذجة فوق أديم أرضها بكامل تراب المغرب العربي ، وكانت مقسمة إلى عشائر متعددة ، وممالك صغيرة محلية ، إلى أن جاءها النور من الشرق العربي ، منذ ثلاثة آلاف سنة .

ذلك أن الفنيقيين ، عمالقـة الحضارة القديمة ، ومخترعي الأحرف . الهجائية ، ومكتشفي أقطار العالم بواسطة مغامراتهم البحرية التجارية ، قد أموا بسفنهم وبمصنوعاتهم سواحل المغرب العربي ، واستقروا فيه . ولم يكونوا مستعمرين ولا فاتحين ، إنما كانوا رواد مدنية ، ودعاة تبادل ثقافي . واقتصادي ، على بساط السلم والمعاملة الحسنة ، فأسسوا على سواحل القطر الجزائري مدناً كانت تدعى المراكز التجارية ، ومنها : عنابة ، وبجاية ، وجيجل ، وتونس ، وغيرها . وأصبحت هذه المدن بعد قليل أسواقاً وطنية تؤمها جموع الأمازيغ من كل جهات البلاد ، للتبادل التجاري ، وللتعلم ، والاطلاع على أنباء الدنيا .

وإذ كانت اللغة السكنعانيين عربية الأصل^(١) ، فالأمازيغ قد أخذوا
يكترعون من حوض تلك اللغة ، وجعلوها لسان الطبقة الراقية منهم
ثم أخذوا عن الفنيقيين كذلك دينهم الوثني : عبادة الشمس « بعيل » والقه
« تانيت » وغيرها .

فالقطر الجزائري قد تلقى النور من الشرق ، واندمج في الحضارة
الشرقية واصطبغ بها إلى الأبد .

٢ — قرطاجنة ونفوذها العظيم

في سنة ٤٨٠ ق.م . حدث في بلاد المغرب العربي حدث غير مجرد
التاريخ . ذلك أن أميرة فنيقية أسست مع جماعة من الأشراف ، مدينة
جديدة في الشمال الشرقي من مملكة تونس ، أسمتها « قرطة حدثت » أو
القرية الحديثة . وهي التي أصبحت بعد تحريفها : قرطاجنة .

فهذه القرية الحديثة أصبحت بعد قليل ، الدولة الحديثة . وما عتمت
أن صارت الامبراطورية الحديثة . فالدولة القرطاجنية السكنعانية ، وطدت
أركانها في كامل أطراف المملكة التونسية ، ثم بسطت نفوذها وسلطانها
بصفة سلمية على كامل بلاد المغرب العربي ، وعلى الأخص بلاد الجزائر .

(١) تدل على ذلك الكتابة التي تركوها منقوشة على الحجارة ، بحيث أذ
الإنسان يستطيع فهمها دون أدنى مشقة (أنظر كتابي « تقويم المنصور » ج • طبع
الجزائر سنة ١٩٢٩ . .

وكان من تأثير قرطاجنة على أمراء البربر الأمازيغ ، أنهم أخذوا يقتدون بها في إنشاء الممالك الواسعة ، والمواضع الفسيحة ، وتمدهم هي بالخبراء الذين يساعدون على تدوين الدواوين ، وتنظيم أمور المملكة ، وهكذا نشأت بقطر الجزائر دولة نوميديا العظيمة .

٣ — نوميديا وملوكها

في قرطة (قسطنطينة) اليوم ، استقر الملك شامخاً عظيماً ، وحاول ملوك دولة نوميديا أن يجمعوا شمل كامل قطر المغرب الأوسط ، فيما بين دولة قرطاجنة (مملكة تونس) ودولة موريطانيا (مملكة مراکش) ونجحوا في ذلك إلى حد بعيد . وكانت الدولة الجزائرية قد انتظمت وتوحدت لأول مرة في التاريخ حوالى سنة ٣٠٠ ق . م . وتولى أمرها ملوك سجل التاريخ أسماءهم بأحرف بارزة .

وهنا اصطدم القطر الجزائري بالاستعمار ، والاستعمار اللاتيني بعينه ، لأول مرة في تاريخه ، حوالى سنة ٢٥٠ ق . م .

ذلك أن دولة روما الناشئة قد أخذت تتحدى دولة قرطاجنة الضخمة المترفة ، ودخلت معها في سلسلة من الحروب الفظيعة التي دامت نحو المائة عام ، ظهرت أثناءها شخصية أعظم قادة الدنيا على الإطلاق ، « حن بعل » ويدعوه الأوربيون « هنيبال » ، وإذ كانت روما أكثر نظاماً ، وأوفر قوة ، وإذ كان جندها جنداً منظمًا منقاداً أحسن انقياد ، بينما كان جند

قرطاجنة من المرتزقة ، كتبت الغلبة لرومة ، ومحت بصفة إجرامية فظيعة مدينة قرطاجنة من الوجود ، فطمست بذلك صفحات مدنية من الملح مدنيات العالم القديم ، وكان سكان قرطاجنة العاصمة يبلغون ساعة الفتك بالمدينة ٨٠٠ ألف نسمة ؛ لم يبق منهم بعد النكبة إلا ٣٥ ألفاً !

لعب الأمازيغ دورا حاسما في هذه الحروب . وانقسموا إلى حزبين : حزب أراد الوفاء لقرطاجنة ، وتحقيق الاستقلال الوطني بواسطتها ، وكان على رأس هذا الحزب الملك صفاقس . وحزب آخر ، رأى أن كفة رومة هي الراجحة وأن دولة قرطاجنة قد دالت ، واعتقد أن الحكمة تقضى عليه بنصرتها والاحراز على رضاها ، وعلى رأس هذا الحزب الملك ماصينييسا . وكانت الغلبة له وللرومان المستعمرين الذين أيدهم وساندتهم برجاله وبدعائه . وهكذا انتهى أمر دولة قرطاجنة التي كانت أول دولة ديمقراطية في العالم ، إذ كان يشرف على نظامها مجلس نيابي يمثل أصحاب المصالح وعدد أعضائه ٣٠٠ نائب ، ومجلس القديماء أو الأعيان ، ويشمل مائة عضو ، ويتولى السلطة التنفيذية سبطان : سبط البر وسبط البحر (جمعه أسباط) . لكن نفوذها الأدبي ، وسلطانها التمديني ، قد عاشا بمدى في قطر الجزائر مئات السنين ، حتى جاء الإسلام بنوره الساطع .

٤ — الاستعمار الروماني

خيم الرومانيون على البلاد بصفة قاسية ، وكان تاريخهم فيها ، وقد دام

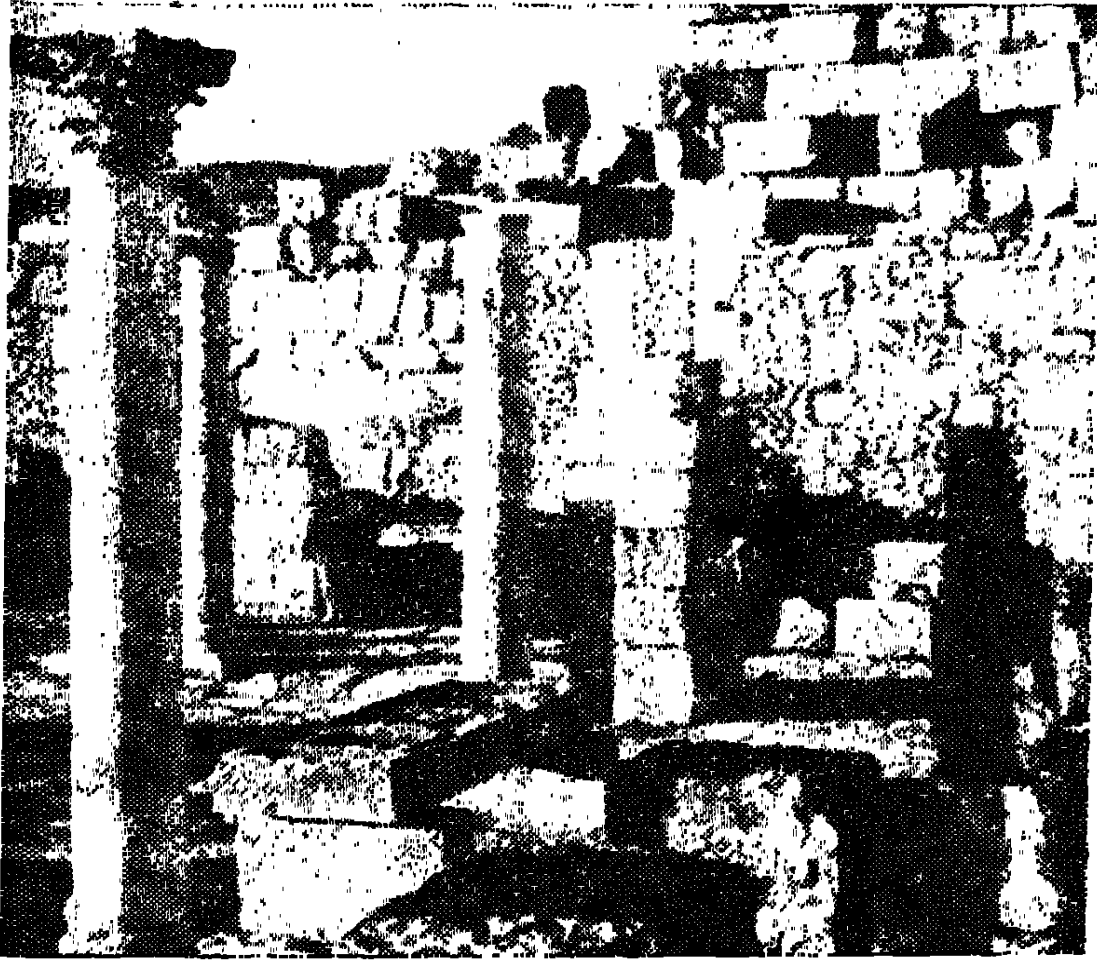
٧٠٠ عام ، ينقسم إلى خمسة أدوار :

الدور الأول : دور « الحماية » فقد اعترفت روما بملكة نوميديا ، وتركت ماصنيسا يديرها إدارة مستقلة تحت إشرافها ونفوذها الذى أخذ يعظم وينتشر . فرأى فى آخر أيامه أنه قد أصبح صورة لا حياة فيها ، وأن الاستقلال والاحتلال لا يتفقان أبداً فقضى نحبه خائب الأمل . وهكذا كان شأن بقية الملوك الذين نصبتهم رومة تحت حمايتها .

الدور الثانى : دور النزاع المسلح بين الوطنية النوميديّة « الجزائرية » وبين الجيوش الرومانية . إذا ما كاد الملك العظيم « يوغورطا » يتربع على عرش قرطبة ، ويحكم نوميديا ، حتى رأى أن الحرب قد أصبحت ضربة لازب ، فإما استقلال وإما فناء . وحياة الذل والخضوع حرام على كرام الرجال .

ورأى الرومانيون كذلك أنهم إن تركوا هذا الملك وشأنه ، عظم أمره ، فاستعدوا له ، واستعدوا عليه ، وما عتمت الحرب أن اشتعلت شديدة قاسية بين الجانبين ، واستبسل النوميديون « الجزائريون » استبسالاً فى الدفاع عن استقلالهم وحريتهم ، لم يسع المؤرخ الرومانى « سالستس » إلا تسجيله وتمجيده . ودامت هذه الحرب زهاء الثلاثين سنة ، وعمت سائر جهات القطر الجزائرى ، وانتهت بانهيار الحق أمام نوة ، وموت البطل يوغورطا جوعاً فى سجون رومة الطاغية .

(م ٤ — هذه هى الجزائر)



(شكل ٩) بقايا مدينة جميلة الرومانية

الدور الثالث : انتهى أمر دولة نوميديا ، ورضخت البلاد لسلطان رومة القاسي العنيف مرغمة ، لكنها وجدت مفرجاً لكربتها ، بتلك الحروب الطاحنة التي كانت تدور بين كبار القواد والأباطرة من الرومانيين في سبيل الاستئثار بالملك والسلطان . فكان زعماء الأمازيغ « البربر

ينضمون بحسب مصالحهم المحلية ، إلى هذا أو إلى ذلك ، طمعاً في التخلص من الاثنين معاً . إلى أن انتهى عصر الأباطرة ، وجاء عهد الجمهورية في رومة .

الدور الرابع : اتفقوا على تسميته بعصر السلام الروماني . ومن أراد أن يفهم شيئاً عن هذا العصر الذي دام نحو مائتي عام ، فليدرس نظام الاستعمار الفرنسي اليوم بقطر الجزائر ، فهو يسير على غراره ، ويتبع تقاليده :

الاستبداد بالحكم دون أهل البلاد — الاستيلاء على كامل الأرض الفلاحية وتوزيعها على المستعمرين الرومانيين — إسكان نحو مليونين من مستعمرى الرومان بالبلاد ، وإقامة المدن الشاهقة والمسارح العظيمة والمنشآت الضخمة لهم — احتقار أهل البلاد واعتبارهم خدماً لركاب الاستعمار لا يعيشون إلا به ولا يحيون إلا له .

الدور الخامس : وهو الدور النهائي الطبيعي المنجر مما تقدم . فإن الأمم تمهل الاستعمار ، حتى إذا أخذته لم تفلته . فأنوار الدين المسيحي قد أخذت تتسرب إلى القطر الجزائري ، وأقبل الأمازيغ عليه أفواجا ، فنالهم العقاب الصارم الذي كان مهيباً للشهداء ، وما كادت المسيحية تصبح ديناً للدولة ، حتى اعتنق الأمازيغ نوعاً من الاعتزال ، واتخذوا الدين مبطية للثورة .

فمن نفس جبال « أوراس » الأبية ، التي انبعثت منها ثورة سنة ١٩٥٤ ضد الاستعمار الفرنسي ، انبعثت ضد الاستعمار الرومانى ثورة عارمة ، انضمت لها سائر جهات البلاد ، وشد أزرها كل أفراد الشعب الذين لم يترك لهم الاستعمار شيئاً . فأخذ ثائروا الأمس — كما أخذ ثائروا اليوم — يحطمون معاً الاستعمار ، ويقوضون منشآته ، وعمت الحرب وأعمال الزجر والتنكيل سائر جهات البلاد ، وأخذ المستعمرون يرجعون إلى رومة أفواجاً تاركين وراءهم حياة البذخ والنعيم والإباحية التي ألفوها . وما جاءت سنة ٤٢٩ ، حتى كان آخر جندي لهم يخرج من بلاد الجزائر ذليلاً حقيراً .

٥ — الوندال

شعب جرمانى ، هاجم بلاد أسبانيا واستقر بها ، فأصبحت تعرف باسمه « وندلوسيا » (الأندلس) . فما كاد ذلك الشعب يرى اختلال أمر الرومان بالمغرب ، حتى عزم على مهاجمته والاستقرار فيه ، وهكذا هاجم ٨٠ ألف رجل من أصلب الرجال عوداً تحت إمرة الزعيم « جنصريق » هذه البلاد من المغرب المشرق ، والتفت حوله جموع البربر الأمازيغ تعينه على تقويض أركان النظام الرومانى ، وكل ما هو رومانى ، فانهارت تلك النظم الظالمة ، واستقر الونداليون بكامل البلاد ، إنما اكتفوا بحكمها حكماً سطحياً . فنشأت الممالك الوطنية من جديد . واسترجع الأمازيغ الأحرار ،

أرض آبائهم وأجدادهم ، وكأن سبعمائة عام من احتلال رومة الجبارة ، لم تكن . ودامت هذه الحالة مائة عام . (٤٢٩ — ٥٣٠)

٦ — الروم

وهم رجال القسم الشرقى من إمبراطورية الرومان الذى استقل فى بيزنطة (استامبول) . فهؤلاء القوم رأوا مدى ما لحق بمستعمري الرومان فى بلاد المغرب من أذى ، ومدى ما لحق المسيحيين من بلاء ، وعلموا أن موجة الوندال الدافقة الأولى قد نضب معينها ، فأرسلوا جنداً وأسطولا ، وافتتحووا البلاد من جديد .

لكن الأمازيغ كانوا بالباب . ولم يتركوا الاستعمار ينال منهم هذه المرة منالا . فالروم اكتفوا بإبعاد الوندال ، وحكم البلاد إسما . إنما الأمازيغ كانوا أصحاب السلطان الحقيقى وأصحاب الأرض . كان كل هم الروم الأحرار على الثروة الطائلة والرجوع بها إلى بيزنطة ، فسلكوا أبشع سياسة من السلب والنهب والارتشاء وكل أنواع الكسب الحرام ، فتدحرجت البلاد وخاصة قسمها الشرقى ، فى ميادين الفوضى والارتباك والحروب المتوالية ، وشعر الناس جميعاً بأن الحالة تستدعى منقذاً جديداً .

٧ — الفتح العربى

وجاء الانقاذ من الشرق بواسطة الدين المحمدى ، ومجاهديه الميامين

وقد كانت الدنيا تنتظر نوراً جديداً ، فجاءها النور من مكة أم القرى .
وكان المغرب على الأخص ينتظر نظاماً جديداً ، قوامه العدل والحرية
والتساوى ، فجاء النظام الجديد يضمن له سعادة الدنيا ونعيم الآخرة .
يقول قرآنه : إن أكرمكم عند الله أتقاكم . ويقول رسوله : الناس سواسية ،
ويقول خليفة رسوله لأحد العظماء : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم
أمهاتهم أحراراً ؟ .

كانت سنة ٦٦٧ سنة انقاذ لبلاد المغرب العربي ، حوات مجرى تاريخه
إلى الأبد ، ورمت به في اتجاه جديد ، اتجاه الحضارة الإسلامية العربية ،
فبرز في ذلك الميدان قوياً عزيزاً ، وساهم بقسط وافر في إقامة دعائم تلك
الحضارة الرفيعة الندى .

جاء عبد الله بن سعد ، وعبد الله بن الزبير ، فحاربوا الروم وانتصروا .
ثم جاء عقبة بين نافع ، لتوطيد أركان الفتح ، واصطدم بالقومية الوطنية
الأمازيغية التي لم تكن تريد الخضوع لأحد ، ف وقعت المعارك الطويلة
التي استبسل فيها رواد الدين وطلائع المدنية ، كما استبسل فيها أبطال
الوطنية وأنصار الاستقلال المتفاني حول زعيمة خالدة الذكرى : الكاهنة ،
وكانت الغلبة في بادئ الأمر لها ؛ وكان معقلها « جبل أوراس » الأشم .
ثم رأت — لأول مرة في التاريخ — أن تسلك سياسة « الأرض
المحتركة » فأمرت بإحراق القرى والمدن والمزارع والغابات ، كيلا يبقى
للعرب مطعم في البلاد . لكن القائد حسان بن النعمان ، أعاد الكرة على

رأس أبطال العرب ، فدمر الكاهنة وجوعها ، وأفهم الأمازيغ الأحرار أن القادمين الجدد إنما يتخذون شعارهم من قوله تعالى : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى الآية ، وإنهم ما جاءوا مستعمرين يريدون الأرض ، إنما جاءوا دعاة يريدون الهداية ، فانضم الأمازيغ لهم ، وآزروهم ، ودخلوا فى دين الله أفواجا ، وما مضت مدة طويلة حتى أصبح الجند الإسلامى يعتمد على الفرق الأمازيغية المسلحة ، بل لم ينقض على الفتح إلا أمد وجيز ، حتى كان «طارق ابن زياد» الأمازيغى ، يسير إلى فتح بلاد الأندلس ، على رأس جند من خير ما عرف الإسلام من جند ، قوامه الأمازيغيون «البربر» الذين حققوا بواسطة الإسلام تلك الأمال العظيمة التى حطمتها رومة ، والتى بقيت تصارع الموت بين موجات الوندال والروم . لقد حقق الإسلام الحرية والاستقلال !

٨ — الدولة الرستمية

كان اتساع رقعة الفتوحات الإسلامية ، وامتداد أطراف المملكة من تخوم الهند وسمرقند حتى أواسط فرنسا ، وبعد الأطراف عن مركز الخلافة بدمشق ثم ببغداد ؛ سبباً فى استقلال الكثير من البلاد الإسلامية ، بأمر نفسه ، وتأسيسه ممالك محلية ، تتبع الخلافة فى بعض الأحيان اسماً وتخرج عنها أحياناً أخرى .

ومما يسجله التاريخ لأمة المغرب الأوسط — الأمة الجزائرية — أنها كانت أول أمة حققت استقلالها ضمن دائرة الإسلام . فأول مملكة إسلامية مستقلة ، منظمة ، إنما نشأت بمدينة تيهرت (على مقربة من تيارت الحالية) سنة ١٦٩ للهجرة . أسسها القاضي عبد الرحمان بن رستم ، فانضمت لها كل أرجاء البلاد الجزائرية الحالية (ماعدى بعض جهات قليلة بالجنوب والشرق) وبهذا سبق الجزائريون بتأسيس دولتهم الرستمية ، المصريين الذين شادوا مملكة بنى طولون ، والمراكشيين الذين أقاموا دولة الإدريسية . كان نظام الدولة الرستمية ، الأباضية المذهب ، نظاماً محكماً ، مقاماً على الشورى وانتخاب الامام . وله مجلس يدعى مجلس « الشراة » يمثل أصحاب الحل والعقد . وقد عملت على مد الطرق التي خربتها الحروب السابقة ، ونشرت العدل والأمن بين الناس ، وأحسنّت تنظيم فرقتي الشرطة لحفظ النظام ، والحسبة ، للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فكانت دولة من أرفع الدول الإسلامية المحلية التي سجل التاريخ ذكرها . دامت هذه الدولة ١٣٦ عاماً ، وتولى أمرها ستة من الأئمة ، أشهرهم أفلح ، وابنه أبو اليقظان ، وقد ازدهر في عهدها أمر البعث العلمي ، فعمت دروس العلم سائر المساجد ، واشتهر في الأدب والعلم والحديث أمثال : ابراهيم بن عبد الرحمان التنسي المالكي ، وقاسم بن عبد الرحمان ، والأديب الكبير ابن الهرمة ، والشاعر العظيم بكر بن حماد المتوفى سنة ٢١٦ . ومن أغرب ما يذكر عن هذه الدولة ، في ذلك العصر ، وفرة تسامحها الديني

مع اليهود من أبناء البلاد ، ونبغ منهم يهود ابن قريش الذى ترك كتابا برهن فيه على أن العربية ، والعبرية ، والسكنعانية والبربرية ذات أصل واحد . ولا تزال نسخة منه فى مكتبة اكسفورد .

٩ — التوحيد الفاطمى

فى وقت واحد انقرضت ثلاث من الدول فى المغرب العربى : دولة بنى الأغلب بتونس ، ودولة تيهرت بالجزائر ، ودولة الإدارة بالمغرب الأقصى ؛ لتحل محلها دولة مغربية عربية واحدة هى دولة الفاطميين الشيعة ، التى تأسست بالمغرب الأقصى ، ثم جعلت عاصمتها مدينة المهدية على الساحل التونسى ، ووحدت المغرب العربى فى دولة واحدة .

وكان مما امتاز به هذا العصر التوحيدى الفاطمى بقطر الجزائر أن اتسعت تجارته نحو الجنوب ببلاد السودان ، ونشأت على سواحلنا الأساطيل البحرية التجارية والحربية .

أما من حيث العلوم والفنون والآداب فقد كادت البلاد تزاحم مملكة الأندلس ، ونشأ ونبغ فيها فى ذلك العهد ، أمثال ابن تميم ، الطبيب الفيلسوف اللغوى ، والجغرافى العظيم محمد بن الوراق .

١٠ — دولة بني حماد العظمى

رأى خليفة الفاطميين المعز لدين الله الانتقال إلى مصر ، بعد ما اختط له قائده المغربي جوهر الصقلي مدينة القاهرة ، فعهد بأمر المغرب إلى قائد من أعظم قادته ، هو بلقين بن مناد الصنهاجي . وقد كان هذا البطل مؤسس عدة مدن جزائرية ، مثل مدينة جزائر بني مزغنة ، والمدينة ، وغيرها . ثم أن زعماء صنهاجة بقطر الجزائر ، اتفقوا مع الأمير حماد على تأسيس دولة مستقلة ، فاخطط حماد مدينة « القلعة » وأنشأ ملكاً عظيماً شمل سائر جهات القطر الجزائري ، وذلك سنة ٣٩٨ هـ .

عظم الملك واتسع ، واستقرت إدارته على أسس متينة ، فترك ملوك بني حماد القلعة واخططوا لأنفسهم عاصمة جديدة هي مدينة بجاية ، فأخذوا في تعميرها وبناء الأسوار والقصور والدواوين فيها ، والبساتين والمنزهات ونقلوا إليها عاصمة المملكة سنة ٥٣٨ هـ .

وكان الملك الناصر بن علناس أعظم ملوك عصره شأنًا ، وأوفرهم قوة وأكثرهم تنشيطاً للعلم والعلماء ، وقد سجل التاريخ عصره ضمن أجمل صفحات تاريخ التمدن الإسلامي

وخلد اسمه شاعر العروبة الأكبر ، عبد الجبار ابن حمديس الصقلي في غرر من بدائع الشعر .



(شكل ١٠) معبنة المسجد الكبير بمدينة الجزائر

وتداول ملوك بني حماد الملك ، يوطدون الأمن وينشرون العلم ، ويوسعون دائرة التجارة والصناعة ، حتى أصبحت بلاد الجزائر من أكثر أقطار الإسلام رفاهية وعلماً ورخاء وأماناً ، واشتهرت بعلمائها وشعرائها وحكائها ممن ألقت فيهم وفي أعمالهم المجلدات ، من أمثال محمد بن علي الصنهاجي ،

صاحب كتاب « نبذة المحتاجة ، في تاريخ صنهاجة ، » والمؤرخ ابن علي ،
واللغوي النحوي ابن العفراء ، والمجتهد ابن الرماح ومئات ومئات من أمثالهم
وحدث أيام الدولة الحمادية حادثان غيرا مجرى الحياة العامة في البلاد :
أولهما : نزوح الأعراب الهلاليين إلى المغرب . واستقرارهم فيه ،
وتعريبهم الملاد نهائياً .

وثانيهما : نزوح الجماعات الكثيرة من مهاجري الأندلس إلى البلاد
الجزائرية التي قبلتهم على الرحب والسعة ، فجاؤوها بعلومهم وآدابهم
وصناعاتهم وطرق الفلاحة والرى في بلادهم . فساعدوا على تنمية الثروة
ونشر العلوم والمعارف والآداب .

دامت دولة بني حماد ١٧١ عاماً ، تولى أمرها تسعة من الملوك ، كان
لهم السلطان المطلق . وفي أيامهم عرفت الجزائر في البلاد الغربية الأوروبية



(شكل ١١) مدينة بجاية المعاصرة ومرساها

وتعاقدت بمجاهدات تجارية مع أغلب دول البحر المتوسط، وكان أسطول الدولة الجزائرية في أيامهم ضخماً، يضرب بسهم واسع في التجارة العالمية.

١١ — التوحيد « الموحدى »

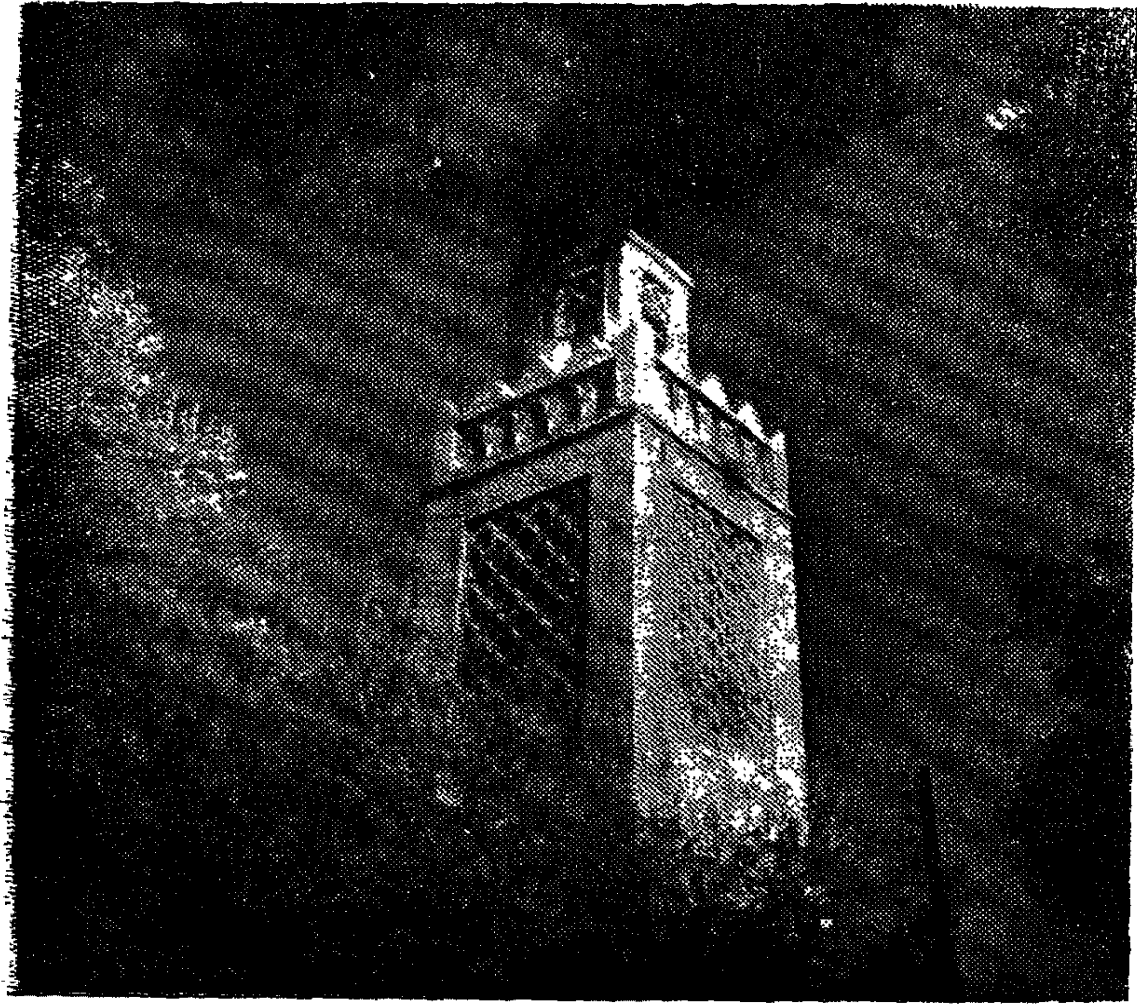
في تلك الأثناء كانت بلاد المغرب الأقصى « مراکش » تتمخض عن حادث إسلامي عظيم ، هو تأسيس دولة الموحدين . فبطل من أبطال القطر الجزائري ، عبد المؤمن بن علي الندرومي ^(١) ، تولى كبر تأسيس هذه الدولة اتقضى على كل ما ألصق بالدين من بدع ومن خرافات وأساطير ، ولتجمع الأمة في كامل بلاد المغرب على الهدى ودين الحق ، والتسامح الإسلامي المنقطع النظير .

ففي سنة ٥٢٤ هجرية ، أسس عبد المؤمن العظيم دولة الموحدين ، وقضى على دولة المرابطين في المغرب الأقصى ، ثم التفت إلى المغرب الأوسط ، حيث ابتداءً أمر دولة الحماديين يضعف ، وإلى المغرب الأدنى ، حيث أصبح النرمانيون الذين حطموا صقلية الإسلامية ، يهددون السواحل ، ويميثون فساداً في أمهات المدن على البحر ، بينما كانت الإدارة في كل من القطرين لم تستطع هضم جموع الأعراب الهلاليين الذين نزحوا إليها واستقروا فيها .

جرد عبد المؤمن جيشاً من مائة ألف رجل ، كانوا كما يروى التاريخ يصلون خلف إمام واحد ، وتقدم إلى المشرق ، فتسلم زمام المغربيين الأوسط

(١) من مدينة ندرومة بغرب الجزائر وقد اشتهرت شهرة فائقة أثناء الثورة الأخيرة .

وأهم عواصم العلم والسياسة بالعالم الإسلامي قاطبة ، ونبغ فيها عدد لا يحصى
له غبار من العلماء والأدباء والشعراء والباحثين ، وقصدها طلاب العلم
وطلاب الشهرة من كل جهات العالم العربي .



(شكل ١٢) مئذنة مدينة تلمسان

وقد أطلق ملوك بني زيان على أنفسهم لقب «أمير المؤمنين» وأحاطوا بالدولة بسياح من الأبهة والجلال . وقسموا السلطة إلى ثلاث شعب :
الشعبة العسكرية يتولاها « صاحب السيف » والسلطة الإدارية ، يتولاها :
« صاحب القلم » والسلطة القضائية ، يتولاها « قاضى القضاة » . وكان
المزوال ، أو الوزير الأكبر يتولى الأشرف على كل الإدارات وتحت سلطته
صاحب الأشغال ، أو وزير المالية والتعمير ، و « ديوان الإنشاء » المكلف
بالمراسلات العامة ، والذي اشتغل فيه رجال من كبار الأدباء والعلماء
سجل التاريخ أسماءهم .

وفى كل مدينة أو قبيلة يوجد « الحافظ » وهو الوالى ، والى جانبه
« المحتسب » وهو حافظ النظام الاسلامى ، والقاضى ، الذى ينشر العدل
بين الناس ، وغيرهم من موظفى الدولة وجباة الضرائب ، وكان النظام
العام من أحسن النظم التى نشأت فى القطر الجزائرى . إلا أن أواخر أيام
هذه الدولة التى عمرت أكثر من ثلاثمائة سنة ، قد امتازت بأمرين :

أولهما : كثرة تهالك الأمراء على الملك ، وقد غرتهم مظاهر
النعم والجلال التى فيه .

وثانيهما : قبضاء الأسباب بصفة فظيمة على مملكة غرناطة ، آخر معاقل
المسلمين ببلاد الأندلس ، وتشريدهم للبائسين من أهل ذلك الفردوس
الإسلامى المفقود ، ثم مهاجمة الأسباب بعد ذلك للشعور الإسلامية والسواحل
فى المغرب العربى ، وخاصة بقطر الجزائر . وصادف أن وقعت هذه المحاولات
(م ه — هذه هى الجزائر)

في أواخر أيام الدولة ، وضعف رابطتها ، وتهالك أمرائها على الملك ، حتى أصبح بعضهم العوبة في أيدي الطامعين الأسباب .

وهذان الأمران هما اللذان سببا انهيار دولة بني عبد الواد ، التي سجلت على صفحات التاريخ في بلادنا أنشودة فخر ، ينطق بها فم الدهر . ومن يرجع إلى تاريخ يحيى بن خلدون وهو « بغية الرواد » يشهد روائع ومدهشات من التقدم العلمي والفني والصناعي لا يكاد يتصورها العقل .

لقد زاحمت تلمسان ، كما زاحمت بجاية قبلها ، القاهرة وبغداد وقرطبة ، واجتمع فيها من رجال الدين والعلم والأدب ما لم يجتمع مثله أبداً في قطر الجزائر ، وجاءتها وفود العلم والشعر من كل جهات العالم العربي .

أما تجارة المملكة ، وصناعاتها ، واقتصادياتها ، فقد كانت في تلك المصور مضرب المثل . وكتب عنها الرحالة والمتسوحون من عرب وأغراب صحائف جليلة ووقائع مدهشة . أما من اشتهر في هذه الدولة من أعلام الأدب ورجال العلم وكبار الشعراء ، فقد ألفت فيهم عدة كتب ، أهمها : « البستان » لابن مريم ، والدرر والعقيان ، للتنسي ، وبغية الرواد السالف الذكر . وغير ذلك كثير .

وامتازت هذه الدولة ببناء المدارس الفسيحة التي تعتبر من آيات الفن المعماري العربي ، وأجرت على طلبتها وشيوخها الأرزاق ، بحيث لا يهتم معلم ولا متعلم بمسكن أو ملبس أو مطعم ، إلى أن يبرز إلى ميدان الحياة العامة عاملاً عالماً ، وإن أزدت أن أسرد بعض الأسماء ، ذكرت

المفسر الكبير محمد بن مرزوق ، والمالين المؤلفين احمد بن يحيى الوشرىسي
ومحمد السنوسي ، وصاحب الجواهر الحسان ، عبدالرحمن الثعالبي ، وصاحب
البدر المنير محمد المغيلي ، وطائفة تعد بالآلاف ، من الكتاب ومبرزى
الشعراء والعلماء والمؤلفين ومن الفلكيين كالقصادى وابن قنفذ ، ومن
المهندسين المالين كابن الفحام ، واضع « المنجاة » فى تلمسان ، وهى
ساعة ناطقة لا تعد أمامها أشهر ساعات سويسرا شيئاً مذهكوراً . وقد نال
عنها جائزة سنوية من ملوك تلمسان قدرها ألف دينار ذهباً .

وأديب الجزائر الأكبر ، وشاعرها العظيم ، المقرئ التلمسانى ، صاحب
ديوان نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب . ولا أستطيع يا عزيزى ،
ومعذرة ، أن أخلص لك فى صفحات ، ما تمجز عن جمعه كبريات الموسوعات
إنما هى قطرة من يـم .

الجمهورية الجزائرية العثمانية

لو كان هذا التعبير من بنات أفكارى ، لاتهمنى البعض بالمبالغة
والإسراف فى إطلاق اسم على غير مسمى . لكن ما رأى القارى الكريم
إذا علم أن هذا الاسم قد استعمله سفير من سفراء فرنسا فى القرن الثامن عشر ،
وعالم باحث من جلة علماءها إذ ألفت بعد تمثيل دولته لدى دولة الجزائر
كتاباً قما أسماء : الجمهورية الجزائرية فى القرن الثامن عشر ؟ . ذلك هو

ميسيو « فونتير دي بارادي » . وكتابيه مطبوع^(١) .

ولنعد إلى التاريخ . لقد احتل الأسبان مرسى وهران والمرسى الكبير وهددوا مدينة جزائر بني مزغنة تهديداً مباشراً ، واستولوا على أكبر الجزيرات الواقعة تجاهها وجعلوا فيها حصناً يضع البلدة تحت رحمته ثم أخذوا يوالون غاراتهم البرية قاصدين مدينة تلمسان . ولم تكن دول بني زيان في آخر عهدها مستطبعة أن تجمع الأمة لقتال هؤلاء المستعمرين الذين كانوا تحت قيادة راهب متهوس ربما لم يعرف التاريخ راهباً أكثر منه تمصباً وبعداً عن روح دين عيسى عليه السلام . فكانت الحملة الأسبانية حملة نهب ولصوصية ، وانتقام من الإسلام وانتهاك فطبيع لحرمت المسلمين وكانت أخبار غارات الأسبان على سواحل المغرب العربي حديث الناس أجمعين في ذلك العهد .

وحدث عن لصوصية البحر ولا حرج . فالأسبان والبرتغاليون قد أنشأوا مع غيرهم من رجال أوروبا سفن القرصنة ، وانهاكوا على مهاجرة الأندلس التمساء ، فما كان يصل منهم إلى أرض الجزائر إلا القليل الذي فقد كل متاع وكل مال .

وكاد المغرب العربي كافة يسقط تحت تلك الضربات الفتاكة ، لولا أن تدخل القدر ، وحدثت المعجزة ..

(١) أنظر كتابي « محمد عثمان باشا داي الجزائر » ففيه فصول مختارة من هذا الكتاب .

كانت المعجزة تدخل بطلين من أبطال الإسلام الخالدين : بابا عروج التركي وشقيقه خير الدين ، في ميدان الكفاح الجزائري . كانا على رأس عمارة بحرية من القرصان الأتراك ، يعملان متطوعين في سبيل الله لإنقاذ مهاجري الأندلس ، والاجتياز بهم إلى أرض المغرب ، ووقعت بينهم وبين الأسبان وقائع ذاع صيتها في البحر المتوسط ، وتحدث بها المهاجرون المساكين في كل جهات البلاد .

وأخذت وفود المسلمين الجزائريين تترى على الزعيمين البحريين ، طالبة منهما النجدة والإنقاذ ، والإعانة على دفع الأسبان عن السواحل وعن البلاد . فجمع التركيان عمارة قوية ، وتدخلوا فعلا ، وحاربوا الأسبان جنبا إلى جنب مع مقاتلي الجزائريين الذين التفوا حولها ، وتكونت قوة جديدة في البلاد ما لبثت أن طهرتها من التدخل الأسباني الفظيع . ولم تستطع دولة بني زيان الثبات وسط هذه الزعازع ، إذ تخلى عنها الناس ، فانهى أمرها ، وأصبح خير الدين باشا ، ويلقبه الفرنج « بارباروس » صاحب الحكم في القطر الجزائري (سنة ١٥١٩) . فأتخذ من « جزائر بني مزغنة » عاصمة للملك الإسلامي الجديد ، وأمر بدم البحر بين مختلف الجزيرات الصغيرة وأقام عليها جداراً وقلعة يحتمى وراءهما مرسى المدينة . وهكذا نشأت « مدينة الجزائر » وبسطت في مدة قليلة جداً سلطانها على كامل البلاد التي أصبحت تدعى البلاد الجزائرية ، وقبل السلطان سليمان القانوني ضمها إلى السلطة العثمانية ، كولاية ممتازة . نشأت « الدولة الجزائرية » التي تعترف

بمخلافه سلاطين استامبول ، وأخذت توسع استقلالها شيئا فشيئا ، إلى أن لم يبق بينها وبين الخليفة العثماني سوى الروابط الأدبية الشكلية : السلطان يصادق على تعيين « الباشا » الذى ينتخبه الديوان الحكومى فى مدينة الجزائر ، وإذا وقعت حرب خارجية ، ترسل الجزائر بقطع من أسطولها وجماعة من متطوعىها للمشاركة فى الجهاد تحت راية الخليفة . أما ماعدا ذلك فالدولة الجزائرية حرة ، مستقلة ، تحارب من حاربها ، وتسالم من سالمها ، وتعقد المعاهدات الحربية والسياسية والتجارية مع بقية دول العالم ، وكانت لها فى عالم الحروب والسياسة صولات وجولات .

وإذ كان الأوروبيون يومئذ وخاصة الأسبان والبرتغال ورجال الشمال ينظمون اصوصية بحرية (*piraterie*) قوية ، ساهم فيها الفرنسيون بنصيب وافر ، نظم الجزائريون قرصنة بحرية عظيمة ، أصبحت ذات شوكة ترهب البحر المتوسط ؛ إنما لم تكن تلك القوة البحرية تعمل إلا ضد الدول المعادية لحسب . أما الدول المعترفة بدولة الجزائر ، والمرتبطة معها بمعاهدات فكانت تتمتع بحماية سفن القرصان الجزائريين .

وانتظم سلك الإدارتين السياسية والعسكرية فى البلاد بصفة كانت تحسدها عليها الكثير من بلاد أوربا . فكانت السلطة التشريعية بين يدى مجلس يدعى « الديوان » وفيه أكابر الدولة ورؤساء الجند .

أما السلطة التنفيذية فهى بيد الباشا الذى ينتخبه الديوان^(١) ، ومجلس

(١) يطلقون عليه لقب « الداي » أى رئيس الجماعة .

وزواء مؤلف من ستة رجال : خوجة الخليل ، للحرب ، وكيل الخرج ،
للبحر ، الخزنأجي ، للمالية وحساب الدولة ، الآغا ، قائد الجند العام ،
القبودان رايى أميرال الأسطول ، الباشكاتب ، وزير الداخلية ؛ أما
الخارجية فهي من اختصاص الباشا نفسه ، والقول الفصل فيها للديوان .

وقد قسم الديوان أرض الجزائر إلى ثلاث عمالات : قسطنطينة ، شرقاً ،
وتيطرى وسطاً ، ووهران غرباً . ووضع على رأس كل عمالة والياً يدعى
« الباي » مسؤولاً عن أعمال ولايته . أما مدينة الجزائر العاصمة وسوادها ،
فكانت موضوعة تحت سلطة وزير الحرب « الآغا » . ولم يبق في قطر الجزائر
مكان لم يتبع هذه الإدارة المركزية المحكمة ، إلى أقصى تخوم الجنوب .

أصبحت الدولة الجزائرية مهابة محترمة ، ذات قوة عسكرية يقرأ لها
الجميع حسابها ، وذات أسطول شارك في كل معارك البحر المتوسط ، في
الطليعة . ولا يزال المتأخرون يذكرون شدة شكيمة الجزائريين في حرب
« المورة » واستشهاد الأسطول الجزائري في معركة « نفارين » .

وكانت الدول جميعاً ، وفي طليعتها فرنسا ، تعترف باستقلال الدولة
الجزائرية ، وتزاحم فيها حول نيل الخطوة والنفوذ ، وتعين فيها ممثلين
من أكبر رجال السلك السياسى ، وتعقد معها المهاديات دون أى تدخل
من استانبول ، أو أى مجرد استشارة . فالقضية كانت تبعية إسمية للخلافة
الجامعة ، لا أكثر ولا أقل .

ولطالما أرادت الدول ، وخاصة أسبانيا ، والدانمرك ، وفرنسا ، قهر

الجزائر ومحققها ، فكان النصر خاتماً للجزائريين ، وانكسر الأسبان شرس كسرة عرفوها في تاريخهم أمام أسوار الجزائر مرتين . وتركوا كل سلاحهم ومتاعهم فيها (سنة ١٥٤١ وسنة ١٧٧٥) كما انكسرت عدة حملات فرنسية على السواحل الجزائرية . وكان الأسطول الجزائري يشمل أكثر من ٢٢٠ سفينة ، يركبها ما يزيد عن الثلاثين ألفاً من البحارة من أبناء البلاد .

كان أسرى الفرنج يماطلون في قطر الجزائر أحسن معاملة ، ويتمتعون بحريتهم الدينية ، ومنهم الكثير كانوا يعتنقون الإسلام ويدخلون عاملين ضمن الجماعة الجزائرية .

وكانت دولة الجمهورية الجزائرية في طليعة الدول التي اعترفت بحكومة الثورة الفرنسية الكبرى عام ١٧٨٩ ، بينما كانت أغلب دول العالم تحاربها ، كما كانت من أول الدول التي اعترفت باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية . وإذا قارنا بين دول العالم يومئذ ، طيلة قرون ١٦ و ١٧ و ١٨ رأينا أن البلاد الجزائرية كانت خلال ثلاثمائة سنة (١٥٣٠ — ١٨٣٠) من أحسن بلاد العالم نظاماً ورفاهية وأمناً وعدلاً .

كانت وارداتها التجارية واسعة جداً . وكانت صناعاتها المحلية ذات شهرة دائمة في أغلب جهات العالم ، وكانت مزارعها غنية منتشرة تفيض على الأمة بالخير والبركات ، فكان تصدير الفواكه والحبوب ، والزيت ، والأصواف ، من أهم نشاط البلاد .

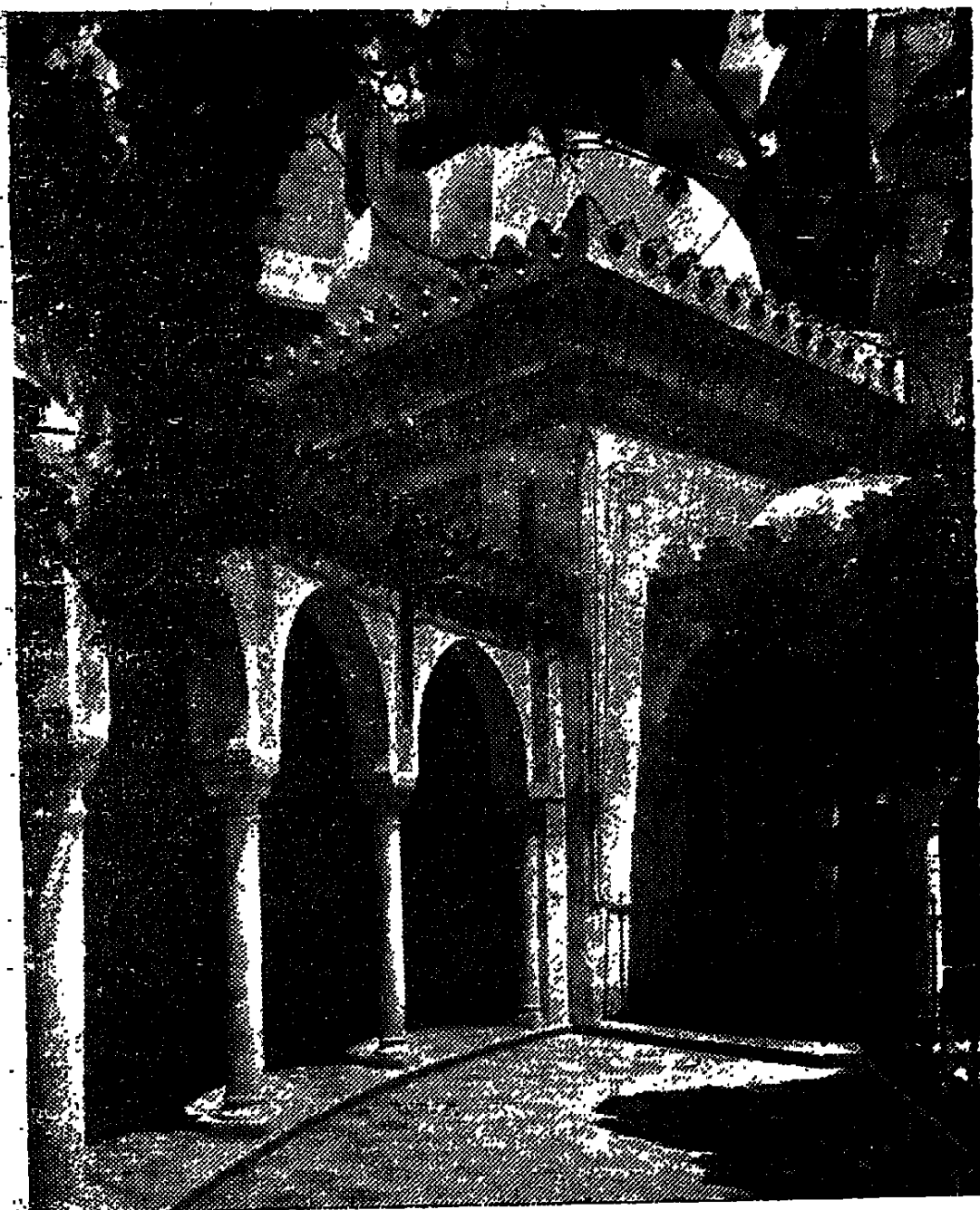
يقولون لنا اليوم مغالطين ، انظروا كيف هو حال الجزائر اليوم ،
وانظروا كيف هي كانت قبل ١٥٠ عاماً !

ونقول لهم : بل قارنوا بين حالة القطر الجزائري ، وحالة بقية بلاد
العالم ، قبل ١٥٠ عاماً . فأيام كان الجهل والظلم وجبروت الإقطاع وقسمة
الناس بين سادة وعبيد يسود بلاد العالم الأوربي ، كان قطر الجزائر يعتبر
مثالاً من أبداع أمثلة العدل والحرية والتسامح وحفظ كرامة الإنسان .

ثم نقول لهم : أن قطر الجزائر كان في تلك المصور مدسكا لكل أبنائه ،
وكانت أرضه متاعاً لمزارعيه . أما اليوم ، وتحت ظل النظام الاستعماري ،
فلم يبق شيء من قطر الجزائر بيد بنييه ، واستأثر المستعمرون دونهم ،
بالأرض ، وما فوقها ، وما تحتها .

ولقد كان الجزائريون طيلة مدة الجمهورية الجزائرية العثمانية ، يقبأرون
أتراكا وعرباناً في أعمال الخير ، ووقف الأوقاف الطائلة على المساجد
والمدارس والمنشآت العامة ، وكانت دور العلم عامرة ، وحلقات الدروس
خاصة بالطلاب في كل مساجد المدن الكبرى . أما التعليم الابتدائي فكان
يلقن في ثلاثة آلاف « كتاب » أو مدرسة ابتدائية .

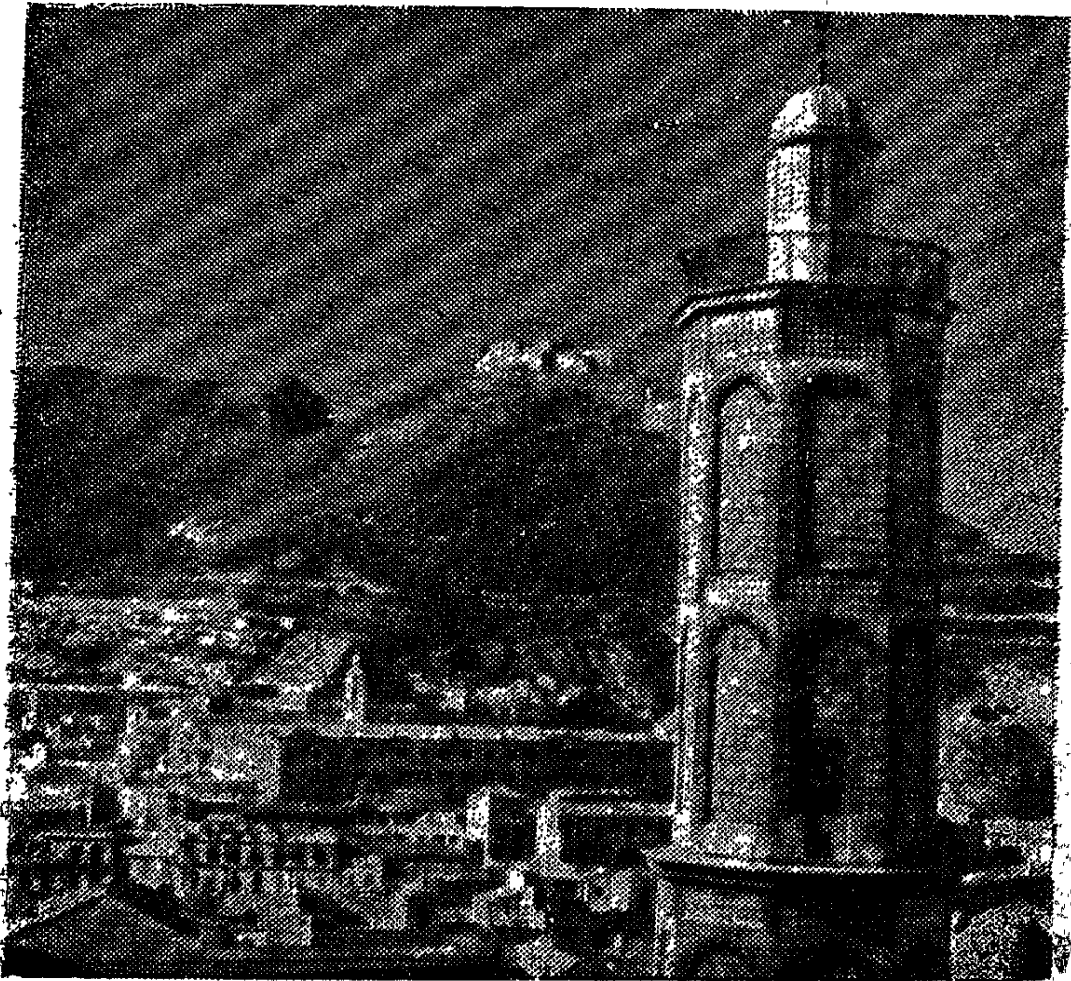
وقد نبغ في هذا العهد رجال أفذاذ ، تألق أسمهم في كامل بلاد العالم
الإسلامي ، من أشهرهم عيسى بن محمد الثعالبي ، ويحيى بن صالح الملياني
صاحب التأليف الشهيرة ، وسعيد المقرئ ، واحمد بن عمار الجزائري ، وعمر



(شکل ۱۳) مسجد محمد باشا بوهران

ابن محمد المنقلاقي ، وطائفة عظيمة من شيوخ الإسلام وعظماء المدرسين الذين أفادوا الأمة بعلومهم وبمعلمهم .

فالجهورية الجزائرية التي تألق نجمها ساطعاً خلال ثلاثة قرون ، ولم يكن بها من الجند التركي إلا زهاء ثلاثة آلاف رجل (٣٠٠٠) لا غير، كانت حلقة من تلك السلسلة الاستقلالية الذهبية التي صاغها الجزائريون بجهادهم



(شكل ١٤) مئذنة مسجد الباشا بؤهران

ودمائهم ومهجهم ، واستمرت من يوم أسسوا دولة بنى رستم ، إلى يوم انهيار مقاومة الأمير عبد الله القادر الهاشمي .

فهل تستطيع فرنسا الاستعمارية الجبارة الطاغية ، أن تمحو بحجرة قلم تحت حكم السيف والنار كل هذا التاريخ ، وتحطّم هذه التقاليد المتأهلة منذ عهد يوغورطا وتدعى أن الجزائر ، بحكم الفتح ، جزء من فرنسا ؟ وأن الجزائريين لاحق لهم في وطن ، ولا في جنسيته ، ولا في علم ، إنما هم قوم من الفرنسيين ؟ .

هذا الأفك المبين ، وهذا الإدعاء الظالم ، هو ما قامت الأمة الجزائرية ضده ، منذ ١٢٥ سنة ، ترده خائضة بحرّاً من دم الشهداء ، مقدمة مواكب من أرواح الضحايا ، في جهاد اشترك فيه الأجداد ، والآباء ، والأحفاد ، إلى أن ينتهى عار الاحتلال ، وترتفع أعلام الاستقلال ، بواسطة الثورة الكبرى ، وجهة التحرير الوطني الجزائري .

الاحتلال الفرنسي

جاءت فرنسا وأضرت بها المسبغة ، أيام الثورة الفرنسية الكبرى ، وأوصدت دونها انكلترا ودول أوروبا أبواب العالم ، فلم تلق نجدة إنسانية إلا من أرض الجزائر الحرة ، وحكومة الجزائر الجمهورية الحرة فكانت للراكب تترى بين الساحلين ، تحمّل لفرنسا من الحبوب ما وقاها شر الحاجة

ولقد اشتركت خزانة الدولة مع بعض التجار — كشركة اليهوديين

برخرىص ، وبوشناق — فى تموين تلك العمالية الإنقاذية ، فاكادت الثورة تنجح ويستقر أمر حكومتها ، حتى كانت فرنسا مدينة للخزينة الجزائرية بمقدار ٢,٥٠٠,٠٠٠ من الفرنكات الذهبية .

وتلكأت فرنسا فى الدفع . وألحت الحكومة الجزائرية فى المطالبة . وسقطت حكومة الجمهورية الفرنسية الأولى ، وانتهى أمر الحكم الأمبراطورى ، وتسلم السلطة الملك الطاغية شارل العاشر ، وفرنسا تمتنع عن الدفع ، والديوان يوالى الاحتجاج والإلحاح .

وكان شارل العاشر يحكم حكماً استبدادياً لا يتحملة الشعب الفرنسى ، وكانت رياح الثورة تهب خفيفة تذر بوقوع كارثة . فأراد الملك أن يباشر حرباً أجنبية ضد دولة مسلمة ، ليستدر عطف رجال الكنيسة من جهة ، وليتخلص من عدد كبير من العاطلين المشاغبين من جهة أخرى ، فأرسل — كما يؤكد أعظم مؤرخى الفرنسيين هنرى قارو — أمراً لفنصل فرنسا بالجزائر ، بأن يفتنم فرصة مغيب الأسطول الجزائرى فى نفارين ، لخلق حادث يبرر غزو الجزائر والاستيلاء عليها .

ففى يوم العيد ، ذهب الفنصل لتهنئة الداى حسين باشا ، فى قصر القصباء وبعد تبادل التحية وعبارات التهنئة ، قال الباشا : ولماذا لم أتلق إلى الآن جواباً من الملك عن رسالتى المتعلقة بتصفية حساب الدين ؟ فتمعد الفنصل دوفاًل المعجرفة كما أمر ، وقال : وهل تظن أن جلالة ملك فرنسا يتنازل لجواب داى الجزائر ؟ .



(شكل ١٥) ضربة المروحة !

فوجهم الجميع ، وفهموا أن الحادث متعمد ، ووقف الباشا وسط الديوان
يرد الإهانة المقصودة ، وقال للقنصل : أخرج يا ابن السكب ! وأشار بمروحة
من الريش كان يحملها ، إلى الباب ، فادعى القنصل أن ريش المروحة قد ليس
وجهه ، وخرج صاخبا محتجاً ، وعلم قناصل الدول كافة أن « الحادث »
قد وقع ، وأن « الخاتمة » قريبة .

وقف شارل العاشر ملك فرنسا يقول في خطاب العرش يوم ٢ مارس
سنة ١٨٣٠ مانصه : أن العمل الذي سأقوم به لترضية شرف فرنسا ،
سيكون باعانة العلي القدير ، لفائدة المسيحية جماء .

وكان إذاك قد هيا أسطولا ضخماً يشمل ١٠٣ من السفن تحمل نحو
ثلاثة آلاف مدفع ، و ٣٤٠٠٠ مقاتل ، مع ٣٨٣ سفينة لنقل المؤن والذخيرة
وعزم على اتخاذ قاعدة أعماله ضد الدولة الجزائرية ، شبه جزيرة سيدي فرج
على نحو ٢٠ كيلو متراً غربى الجزائر ، حسب الخطة التى كان هياها
الجنرال الفرنسي برتان « أيام الأمبراطور نابليون » .

كان الديوان على علم بما يهيؤه الفرنسيون . وخلافاً للمعتقد الشائع ، فإن
الجزائريين قد استعدوا للمقاومة ، وهياوا براجمها ، وقرروا إخلاء شبه الجزيرة
التى كانوا يعلمون أن الفرنسيين سينزلون بها ، ثم مبادرتهم بالهجوم أثر
ذلك ، للرمى بهم إلى البحر ، وللاستحواذ على كل ما بأيديهم .

وأخذت جموع المجاهدين الجزائريين تحتل مراكزها ، حوالى شبه
الجزيرة ، ثم نزل الجند الفرنسي بقوته وعتاده يوم ١٣ يونيو سنة ١٨٣٠ .
قام الجند الجزائرى بالهجوم فى المعركة الحاسمة يوم ١٩ ، وكان هجوماً
عنيفاً موفقاً ، زلزل أقدام الفرنسيين ، وألحق بهم خسارة عظيمة ، وكاد
يرمى بهم إلى البحر ، لولا فرقة عسكرية فرنسية صغيرة بقيت وراء الصفوف
وخافت أن يقضى عليها ، فصعدت ربوة وأخذت تستغيث وتشير لمعظم
الجيش ، فظن أحد قادة الجيش الجزائرى أن الفرنسيين المذكورين قد
عملوا حوله حركة التفاف قصد قطع خط الرجعة عنه ، فتقهقر كيلاً يحدق
به ، وكانت فى تقهقره القاضية ، لأن القيادة الفرنسية أعادت الكرة ،
وأرجعت الجزائريين إلى مركزهم الأسمى ، واغتنمت فرصة الاضطراب

الذى وقع فى الصفوف للاستيلاء على معسكر « مصطفى ولى » فكانت هذه المعركة من أكبر المارك الحاسمة فى التاريخ . وتلك الأيام نداولها بين الناس .

كانت نتيجة هذه الهزيمة ، أن اضطرت مدينة الجزائر للاستسلام فدخلها جنود فرنسا صبيحة يوم ٥ يوليو سنة ١٨٣٠ ، وكان يوماً من أسود أيام التاريخ الجزائرى . ولم يحترم الفرنسيون عهدهم باحترام الأشخاص والحريات ، فطفقوا ينفهون ويسلبون ، وينتهكون الحرمات ، واشترك فى الاختلاس والصوصية كبراًؤهم وصغارهم . فسجلوا على فرنسا صفحة عار لا تمحى أبداً الدهر .

لكن ملك فرنسا الطاغية لم يفرح بانتصاره . ففى نفس شهر يوليو هذا ثار الشعب ضده ، وأسقطه ، فسار إلى المنفى ذليلاً ، وأخذ الفرنسيون يتوغلون فى سواد مدينة الجزائر الذى كان عبارة عن حديقة غناء ، ينفهون ويسرقون وينتهكون الحرمات .

ولا يزال الجزائريون يمتنون يوم ٥ يوليو يوم حداد عام ، إلى أن كان يوم ٥ يوليو سنة ١٩٥٦ ، فأعلنوا فى سائر جهات القطر الجزائرى الاعتصاب العام ، ولم يبق من المسلمين أحد لم يشارك فى هذا الحداد الوطنى ، رغم إنذار السلطة الفرنسية وتهديدها بانزال صارم العقاب بالمضربين

نكبة شرقية عامة

ومن الغلط القول بأن احتلال فرنسا للجزائر كان نكبة على شعب

أثر وحده ، بل أنه كان نكبة على الشرق بأسره ، وعلى الحربة
قدس معانيها ، وعلى القارتين الأفريقية والأسوية على السواء :

إن احتلال فرنسا للجزائر كان أول ثغرة فتحتها الاستعمار في بلاد
وبة بأقطار البحر المتوسط ، ولم تستطع الدول العربية والإسلامية أن
سبكنا أمام ذلك الحادث العظيم ، فالدولة العثمانية ، صاحبة السيادة
ممية على قطر الجزائر ، كانت « الرجل المريض » وكانت الحروب
اكّة التي يشنها عليها جيرانها الروسيون قد أنهكت قواها . ثم أن
كّة نافارين التي حطم فيها الانكاز والفرنسيون والروس الأسطول
ماني ، والجزائري ، والمصري كانت قد أصابت الدولة في الصميم ،
لمخت عنها بلاد اليونان ، وفتحت بصفة رسمية وراثتها .

أما البلاد المصرية فكانت تجرب يومئذ مغامرات محمد علي ، وكانت
باستنها تجامل الدولة الفرنسية إلى حد بعيد ، نكاية بالدولة الانكليزية ،
جريا وراء التوسع والاستقلال .

وأما تونس والمغرب الأقصى ، فكان ضعف الدولتين الحسينية
لشريفية لا يكاد يمكنهما من حفظ الامن الداخلي ، فضلا عن التدخل
ائدة الجزائر ومد يد المساعدة للمناضلين الجزائريين . أما دول أوروبا فقد
كتفى بعضها بالاحتجاج وإثارة العراقيل في وجه فرنسا ، بصفة فائرة ،
نسكترا ، والتزم بعضها الآخر خطة السكوت ، بينما أبدى معظمها
تهاجه بهذا النصر الأوربي المسيحي في بلاد الاسلام .

(م ٦ — هذه هي الجرائم)

فإذا كانت نتيجة كل ذلك يا ترى ؟
كانت النتيجة أن فرنسا أخذت تأكيد لتونس ، وتشير فيها القلائل
إلى أن تمكنت من احتلالها عام ١٨٨١ .

كانت النتيجة أن الاتفاق الذي عقد بين فرنسا وانكلترا ، والذي سمى
باحتيال تونس ، قد جعل الانكاز يستبدون بأمر مصر ، ويتآمرون على
استقلالها ، ويدمرون جيشها في التل الكبير ، ويحتلونها فعلا سنة ١٨٨٢
كانت النتيجة توغل فرنسا في صحراء افريقيا ، وتخطيطها للممالك
الاسلامية المستقلة فيها ، ومحاولة احتلال جنوب وادي النيل
(حادث فاشودا) .

كانت النتيجة ، استيلاء إيطاليا بصفة فظيعة وحشية على قطرة
طرابلس وبرقة ، ومحاولتها محق العروبة والإسلام والوطنية فيها .
وكانت النتيجة أخيراً ، ضياع كامل القسم الأوربي من السلطنة
العثمانية ، في حرب البلقان ، ثم انهيار هذه الدولة نهائياً ، أثر الحرب العام
الأولى ، وسقوط العراق تحت انتداب الانكاز ، وسوريا ولبنان تحت
انتداب فرنسا ، ووقوع فلسطين العريضة الغالية في الفكة التي أدت إلى
استشهادها المؤقت .

فجذور هذا السرطان الاستعماري القطيع قد امتدت كلها من مدينة
الجزائر ، أثر ذلك اليوم الأسود الشمس ، يوم ٥ يوليو سنة ١٨٣٠ .

روح النضال

فهل استكانت الأمة الجزائرية لما أصابها على يد الاستعمار في تلك
المركبة الهوجاء ، وهل استسلمت لسيوف جلاديهـا ؟ .

كلا ! أن تاريخ الأمة الجزائرية ، كان بعد ذلك اليوم النحس ، تاريخ
بطولة لم يشهد العالم — بحق — لها مثيلا . وكان تاريخ كفاح طويل ،
ونضحية مستمرة ، ومقاومة عنيفة لم تفتّر ساعة من نهار ، فكانت أحيانا
حربية قاسية ، ذات وقائع وأهوال ، ودماء ودمار ونار ، وكانت سياسية
أحيانا أخرى . واستمر كفاح الجزائر الأبية كذلك ١٢٥ عاماً ، يحاول
الاستعمار محاولات يائسة تحطيمها والقضاء عليها ، ويصيبها كل يوم بضربة
جديدة ، ويبطش بها كل ليلة بطشة جديدة ، دون أن يقضى على روحها
الأبية ، ودون أن ينال من كيانهـا العربي الإسلامي الشريف أى منال ،
إلى أن طفق الكيل ، ودقت ساعة القدر ، وهبت رياح التحرير الوقح
على العالم ، فخرمت الأمة الجزائرية أمرها وقامت إلى ثورة جبارة ، لاتزال
تدهش الدنيا بوقائعها ، ولاتزال تسجل بدمائها صفحات الروعة والجلال ،
في ميدان البطولة ، فوق الأرض الجزائرية الكريمة التي عجنت منذ قديم
الأحبال ، بدماء الأبطال ، في ميادين الكفاح والنضال .

المقاومة في الشرق : أحمد باشا

ما كاد ينتهي أمر « الديوان » بمدينة الجزائر ويساق الباشا وكبراء الجند إلى المنفى ، حتى هبت الأمة الجزائرية على بكرة أبيها ، تنظر المقاومة ، وتنادى بالجهاد ، وتقيم في كل جهة من جبالها وسهولها معاريل للنزال .

وقد اكتست المقاومة الأولى شكلين : شكل المقاومة الرسمية الحكومية وشكل المقاومة الشعبية .

أما المقاومة الحكومية ، فقد تولى زمام أمرها الحاج أحمد ، باي قسنطينة ، الذي بايعته الناحية الشرقية « باشا » ، والتف حوله رجال الأمة من عرب ومن بقايا أتراك ، وكانت له مع الجند الفرنسي وقائع مشرفة . وطالت الحرب بين الأمة وبين الغاصبين في تلك الجهات الشرقية والجنوبية ، وذاق الفرنسيون من بأس الأمة ومن شدة مراسها ، ما سجله تاريخهم ، وما لا يزالون يذكرونه إلى اليوم ، لكن القوة والكثرة تغلبتا على المقاومة الشعبية التي لم تتلق أى مدد خارجي ، وكان احتلال لا مورييسيار لمدينة قسنطينة ، سنة ١٨٣٨ ، انذاراً بنهاية حركة المقاومة المنظمة ، فانتهى أمرها ظاهراً ، وبقيت كالنار تومض تحت الرماد ، وقد سجلت مدينة قسنطينة بدفاعها المجيد صفحة عالية من صفحات البطولة



(شكل ١٦) الفرنسيون يحتلون قسطنطينة داراً فداراً وحارة حارة

الخالدة ، إذ اضطر الفرنسيون لاحتلالها حارة فحارة وداراً فداراً ، وتسكبد الجانبان في هذه الملاحمة خسائر كبيرة جداً .

المقاومة في الغرب : الأمير عبد القادر

إلا أن أروع مثل من مثل المقاومة الشعبية قد ضربه أهل الناحيتين الوسطى والغربية من قطر الجزائر ، إذ لم تكن هنالك سلطة تقليدية ، ولا بقايا نظام إدارى ، بل كان كل شيء جديداً ، وكان كل شيء مبتكراً .

ففى سنة ١٨٣٢ ، جمع وجوه القوم ورؤساء العرب أمرهم فى مؤتمر عقدوه بمسجد مدينة معسكر ، وبايعوا بالإمارة شابا فى الرابعة والعشرين من عمره ، عرف بينهم بالشهامة وقوة الشكيمة ، والرأى الحصيف ، هو الأمير عبد القادر ابن الشيخ محيى الدين الهاشمى ، على أن يؤسس فيهم دولة إسلامية عربية ، تصون الأمن وتوطد العدل داخل البلاد ، وتحارب المعتدى الفرنسى ، فتصدده عن هاتيك الأقطار أولا ، ثم ترمى به خارج البلاد أخيراً .

وفتح التاريخ يومئذ صفحة من أجمد صفحات البطولة فوق أديم الأرض الجزائرية . صفحة سجلتها أيدى الشهداء مدى ١٧ عاما ، وتترنم بذكرها الأجيال أبد الآبدين .

وأن المؤرخ المنصف ليقف موقف الحيرة والذهول أمام هذه العبقرية الفذة ، التى جعلت شابا فى مقتبل العمر ، عديم التجربة ، ينظم دولة فيحسن تنظيمها ، ويدون دواوينها ، ويضبط أمورها ، ويسك نقودها ، ويربط لها علاقات متينة مع الخارج ، وينشر دعايتها ، يكتسب لها الأنصار ، ثم هو إلى جانب ذلك ، ينشئ جيشاً نظامياً ، على أحدث طراز ، وجيشاً من المتطوعين الفدائيين ، ويرتب أمور ذلك الجيش بحكمة القائد المدرب المذره ، ويسلحه فيحسن تسليحه ، ثم يحسن القيادة الحربية إلى جانب ذلك ، كما أحسن القيادة المدنية ، فيسوق جيشه فى كل الميادين ، وينزل بالأعداء ضربات فتاكة ، ويتحمل ضربات الأعداء بصبر وجلد ، ولقد

جهزت فرنسا ضده أعظم قواها ، ورمته بأكبر قادتها العسكريين ، ولولا تفوق عظيم في العدد وتفوق عظيم في السلاح ، لما نالت منه منالاً . حقا والله أنها لمعجزة من معجزات التاريخ . ولقد قلت يوماً أثناء خطاب : إن كانت النبوءة بالمعجزات ، فشعب الجزائر ولاشك نبي الأمم !

ولقد تخللت فترة الحرب عدة معاهدات عقدتها فرنسا مع الأمير ، واعترفت له فيها بالاستقلال والسيادة على البلاد التي نصب فيها دولته ، لكنها كانت معاهدات غش وخداع ، لا تمقدها إلا متى رأت الخطر ، وأرادت أن تستعد لضربة قاسية . أما هو فكان يمقد تلك المعاهدات ، ليستريح قليلاً وليستعد لتسديد الضربات ولتلقاها .

ففى سنة ١٨٤٠ اشتعلت نيران الممارك الكبرى ، قاسية فظيمة ، فتأكده — واستعمل فيها الفرنسيون أبشع وأشنع ما يستعمله جند مستعمر فى بلاد عدوة مستعمرة : إغناء جماعى ، وإتلاف المدن والقرى ، وحرق المزارع والغابات ، وانتهاك الحرمات بصفة يخجل القلم عن ذكرها ، ولصوصية ونهب وسلب لا تليق إلا بوحوش بنى آدم لا بالتمدينين منهم . واستمرت الحرب على هذه الحالة إلى أن مات من الأمة أكثر من نصفها . وأراد سلطان المغرب مولاي عبد الرحمن الاستجابة للشعب الجزائرى ، فأعلن الحرب على فرنسا ، وأرسل جندا لإغاثة الأمير ، لكن الفرنسيين دحروا ذلك الجند فى معركة واحدة — معركة يسلى — وضربوا بالقنايل بعض مدن المغرب . فاضطر السلطان لعقد الصلح ، وتعهد بعدم إغاثة الجزائريين .



(شكل ١٧) الأمير عبد القادر الهاشمي

ووقع ما لم يكن بد من وقوعه ، فأمام قوة الجند الذي وضعت فيه

فرنسا كل إمكاناتها ، وأمام الفظائع والأهوال ، وإحراق القبائل العديدة
أحياء بواسطة النيران ، وأمام الفراغ العظيم الذي حصل في صفوف الأمة ،
لم يسع الأمير عبد القادر إلا الاستسلام في ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٤٧ .
فسيق مع أهله وذويه ووجوه دولته أسيراً ، وبقي خمسة أعوام بفرنسا ،
إلى أن أفرج عنه وسير به إلى بلاد الشام ، حيث استقر ، وترك هو ووجوه
قومه خلفاً كثيراً .

على أن المقاومة لم تنته يومئذ في بلاد الجزائر ، إنما هي انتهت بالصفة المنظمة
فحسب فكانت المقاومات المحلية تبرى ، من جبال الشمال إلى رمال الصحراء ،
وما احتل الفرنسيون مكاناً في أرض الجزائر إلا بعد أن قدموا ثمنه من اللحم
ودم جنودهم ، وبعد أن سقى المجاهدون الأبرار أرضه الطاهرة بدمائهم
الزكية الغزيرة .

فظائع وأهوال ومواقف

إن ذكر التفاصيل عن فظائع الحرب الإبادة التي باشرت بها فرنسا
بصفة وحشية في قطر الجزائر ، لا يتفق مع صفة الإيجاز التي تعمدناها
في هذا الكتاب ، فلسنا بهذا كرين — على سبيل المثال — إلا قليلاً جداً
من الوثائق والشهادات التي ذكرها نفس الفرنسيين ، لكي يرى القارئ
« عينة » من الطريقة التي أراد بها الاستعمار الفرنسي إرضاخ القطر الجزائري ،
والسير به في طريق الإيادة .

يقول المؤرخ كريستيان في كتابه « أفريقيا الفرنسية » :

« تلقى الجند أمرا من القائد العام الجنرال روفيقو ، بالخروج من مدينة الجزائر ليلة ١٦ ابريل سنة ١٨٣٢ ، ففاجأ قبيلة الموفية عند الفجر وهي تأنم تحت خيامها ، وأمعن في ذبح أوائل المساكين الذين لم يستطع أى واحد منهم الدفاع عن نفسه ، وهكذا وقع قتل كل نفس حية في القبيلة ، دون أى تمييز بين جنس و سن . وعند الرجوع من هذه الحملة المخجلة (كذا بالأصل) كان الفرسان الفرنسيون يحملون رؤوس القتلى على أسنة رماحهم ويقول الجنرال شانقاريني : لقد كانت التسليحة الوحيدة التى أستطيع أن أسمح بها للجند أثناء فصل الشتاء ، هى السماح لهم بغزو القبائل المعادية التى تسكن فيما بين وادى الحراش وبورقيقه . ويقول المؤرخ دبوزايد عن ذلك مانصه : أما الغنيمة من الحيوان فقد بيعت إلى ممثل قنصلية الداعراك . وأما بقية الغنائم الصامتة فقد عرضت للبيع فى سوق باب عزون ، وكان من بين الغنائم أساور نساء وهى لاتزال فى أيديهن المقطوعة ، وأقراط نساء لاتزال تلتصق بها قطع من آذانهن . ثم وزع ثمن كل ذلك على السفاكين من رجال الطابور الفرنسى . وفى ذلك اليوم أصدرت السلطة أمراها لسكان الجزائر المسلمين ، بأن يضيئوا ليلا حوانيتهم ، إظهارا لسرورهم بذلك

الانتصار (١)

(١) فى كتابي « محمد عثمان باشا » طبع الجزائر سنة ١٩٣٩ ، عدة قطع معربة من هذه الكتب ، فليراجعها من أراد التوسع فى الموضوع .

أما حديث حريق الكهف الذى آوت إليه قبيلة بأسرها ، سنة ١٨٤٥ ، فارة أمام الجند الفرنسى ، فقد صار مضرب المثل فى الخسة والدناءة والوحشية ، إذ ما كاد الجند يكتشف ذلك الكهف الفسيح ، حتى وضع أمامه وعلى مداخله أكواما من الحطب والقش ، ثم أوقد عليها النيران ، وأستمر يغذى تلك النار كامل الليلة . فما جاء الصباح ، ودخل الجند الكهف ، حتى كانت جثث ٧٨٠ من الضحايا البريئة بين رجال ونساء وأطفال ، مفككة الأوصال ممزقة الاشلاء ، تحت أقدام الثيران والحيوانات التى دفعتها غريزتها نحو الباب ، فداست كل شىء ، ثم لقيت حتفها .



(شكل ١٨) غار الجريمة بالظهرة

ومن أفظم ما شوهده ، داخل الكهف ، رجل أسلم الروح وهو ممسك
بقرن أحد الثيران دفاعا عن امرأته وصبيه ، وقد مات الرجل والمرأة والصبي
والثور وهم على ذلك الوضع .

ولقد قال أحد قوادهم : سانت أرنو ، في كتاب مطبوع يعتبر ديوان
الفضائع والفضائح ، : لقد كنت أستطيع مع جنودى اقتفاء أثر القائد العام
دون أن أضل الطريق . لأننى كنت أسير على ضوء الحرائق التى يوقدها
قبلى فى القرى والمداشر والدواوير العربية التى كان يمر بها .

أننى ما ذكرت إلا الأمر الوجيز والنزر القليل . وفى كتب الفرنسيين التى
تباهوا بطبعها ونشرها ، فيما بين سنتى ١٨٣١ — ١٨٥٠ — ما يسجل
أبشع صفحات الخزى والعار ، والغدر والخيانة ، على هذا الاستعمار الفظيع
الذى سلطته فرنسا الظالمة على القطر الجزائرى ، والذي لا يعرف العالم له مثيلا .
ولا ختمن هذه الصفحة البشعة القذرة من تاريخ الاحتلال الفرنسى ؛
بهذه الجملة المقتطفة من تقرير لجنة البحث الرسمية ، التى بعث بها ملك فرنسا
لإطلاع البرلمان على حقيقة ما وقع فى قطر الجزائر من مظالم :

« اننا قد ضمنا إلى ممتلكات الدولة ، سائر عقارات الأوقاف الاسلامية ،
ووضعنا تحت الحجز ممتلكات طائفة من السكان تعهدنا لها باحترام
أشخاصها وممتلكاتها . وبدأنا أعمالنا فى ميدان السلطة بمظلمة ، إلا وهى
أرغام الناس على المشاركة فى قرض اجبارى (١٠٠٠٠٠ فرنك) .
واستولينا على ممتلكات خاصة ، دون أن ندفع مقابلها أى تمويض بل قد

أجبرنا في كثير من الأحيان أصحاب الديار على دفع نفقات تهديمها ، كما أجبرناهم على دفع نفقات تهديم مسجد^(١) . ولقد اعتدينا دون أى مراعاة ، على حرمة الأضرحة ، والزوايا ، والمساجد ، وعلى المنازل الخاصة التي تعتبر مقدسة عند المسلمين .

« لقد ذبحنا جماعة من الناس كانت تحمل جوازات مرور ممهورة بختمنا ، وقد أبدنا في مذايح عامة ، لمجرد شك ، طوائف عديدة من السكان ، تبين فيما بعد أنها كانت بريئة مما اتهمناها به . ولقد حاكنا جماعة من وجوه القوم واشراف الأمة ورجال الصلاح فيها ، ما كان لهم من ذنب إلا أنهم تقدموا أمام بطشنا ، يسألوننا الشفقة والرحمة بأبناء البلاد المساكين ؛ فلقد وجدنا حكماً منا يصدر عن أحكاماً باعدهم ، ووجدنا جلادين منا ، يقومون بتنفيذ تلك الأحكام . أننا قد فقنا في أعمال الوحشية ، هؤلاء المتوحشين الذين جئنا لتمدينهم . (لجنة البحث نفامبر ديسامبر ١٨٣٣) .

وكل هذا وقع قبل فظائع وفضائح السنوات الحمراء : ١٨٤٠ وما يليها... قال أحد نواب فرنسا أثناء مناقشة هذا التقرير : أننا قد ارتكبنا في ثلاثة أشهر ، من الفظائع وأعمال التنكيل ، أكثر مما نسب للاتراك خلال ثلاثمائة سنة (سجل مذاكرات مجلس الأمة الفرنسي) .

وكنتي . أننى كإنسان ، تمترينى حمرة الخجل ، وأنا أسطر وصف هذه الفظائع والأهوال . لسكنى كوطنى ، وكعربى ، وكسلم ، أشعر وأنا

(١) هو مسجد « السيدة » وكان من بدائع الفن المعماري الاسلامي في مدينة الجزائر .

أكتبها ، أو أرويها ، بثورة الدم في عروقي حتى لتسكاد تنفجر ، وبهيج
أعصابي ، حتى لتسكاد تتمزق ، وبغشاوة جرداء على عيني ، حتى لا كأدري
كل شيء أمامي دما وناراً .

ولولا الوقار العلمي الذي يجب أن يلزم هذا المرض حتى نهايته ، ولولا
تعهدى بأن يكون هذا الكتاب كتاباً تصويرياً تحقيقياً ، لحالة الشعب
الجزائري ، والوطن الجزائري ، دون أن أسير مع التأثير الشخصي ،
والانفعال النفسي ، أو العاطفة ، لكان هذا الكتاب مكتوباً بلغة أخرى ،
ولربما احترقت صفحاته بمداد هو السم الزعاف ، وتحت أنفاس هي اللهب
المتصاعدة .

وبعد ، فكل ما وقع في القطر الجزائري بعد ذلك في ميادين الحكم ،
والاجتماع ، والاقتصاد ، والتشريع ، إنما هو محاولة مستمرة ، آخذ بعضها
برقاب بعض ، لتحطيم الأمة الجزائرية ، وتقويض أركانها ، وتشتيت شعبها
وقتل أحساسها ، وجعلها أمة من السائمة ، أو أقل من السائمة ، لادين لها ،
ولا لغة ، ولا جنسية ولا رابطة ، ولا أخلاق ، ولا علم ، ولا عمل : أمة
من العبيد في يد شر النخاسين .

فإن حمل البعض قولي على الغلو ، فليقرأ الصفحات التالية ، ثم لينظر
هل تحملت أمة من الأمم ، مثل هذه المصائب ووسائل التحطيم والقتل ،
وعندئذ يعترف من اتهمني بالغلو ، أنني على العكس من ذلك ، قد هجرت
عن تصوير نفس الحقيقة كما هي .

إنما الذين صوروا الحقيقة كما يجب ، وقدموها للعالم ، عارية ، فهم أباة
الظلم ، أسود العرين ، الذين تقدموا المنكر الاستعماري العظيم ، يغيرونه
بأيديهم الجبارة التي ستدك صروح هذا الاستعمار الآثم الخبيث ، وسيقيمون
على انقاضه في قطر الجزائر ، حياة العزة والكرامة الإنسانية ، حياة
الحرية والاستقلال :

هم رجال الثورة الجزائرية الكبرى .

فلهم المجد الأبدى ، ولهم حياة الخالدين .

القسم الرابع تخطيط أمة

- ١ -

الحكومة - الإدارة - المجالس

استقرار الفرنسيين

ما كادت تستقر أقدام الجند الفرنسي ببعض جهات البلاد الجزائرية ،
رغم المقاومات والحروب المستمرة ، حتى أصبحت سياسة حكومة فرنسا
تتبلور حول غايتين :

الأولى : أقطاع الأرض للفرنسيين واللاتيان بأكبر عدد منهم إلى
البلاد ، حتى تمتحى صبغتها العربية الإسلامية ، وتغدو أرضا لاثنية مسيحية
والثانية حكم البلاد حكما مباشرا ، لادخل لأهل البلاد فيه ، أى دخل .
فبلاد الجزائر كانت تحكم بادىء ذى بدء بواسطة قادة جيش الاحتلال ،

وقد اشتهر منهم الكثير بأعمال التنكيل والمذابح الجماعية ، وافتاء المسلمين بالجملة ، حتى تخلوا الأرض لساكنيها الجدد ، وكان شعار المارشال بيجو ، السفاح الشهير : إحتلال الجزائر بالسيف والمحراث ؛ السيف في رقاب العرب ، والمحراث بيد المستعمر الفرنسي .

وكانت الأرض توزع على حثالات الفرنسيين العاطلين ، فأنشأت الإدارة أول الأمر ٤٢ مركزا استعماريا ، وزعتها مجانا على عشرين ألفا من الباريسيين ، نقلوا بنفقة الحكومة الى أرض الجزائر ، ووزعت عليهم الأرض التي ذهب أهلها شهداء الإرهاب بين السيف والنار .

وفي سنة ١٨٤٨ أعلن مجلس النواب الفرنسي ، أن أرض الجزائر قطعة « طبيعية » من فرنسا ، وأنها جزء من أم الوطن ، وأن الفرنسيين ينتخبون نائبين عنهم للمجالس القومية الفرنسية بباريس — كأن لاوجود للمسلمين .

أما التقسيم الإداري ، فقد وضعت أسسه سنة ١٨٤٥ ، حيث قسمت الأرض إلى مناطق الشمال ، التي يحكمها الفرنسيون المدنيون ، وبلاد الجنوب التي يحكمها العسكريون الفرنسيون .

وإذ وجدت السلطة أن عدد المستعمرين الفرنسيين لم ينم بالدرجة المطلوبة ، نشرت دعاية واسعة بين فقراء ومعدى الأسبان ، والطلليان ، كي يفدوا نحو البلاد الجزائرية ، حيث الأرض ، والقروض ، والثروة والغنى (م — ٧ هذه هي الجزائر)

فجاء هؤلاء المملقون ، حفاة يحماون الأسمال البالية ، وكثر عددهم ونما
واقطعوا صالح الأرض ، ومنحوا واسع الأموال ، ثم نالوا الجنسية الفرنسية
واندجوا بالفرنسيين الأولين ، فكونوا العنصر المستعمر ، الذي أصبح منه
تلك الساعة هو الحاكم بأمره في قطر الجزائر ، يستأثر بها دون أهلها-
المسلمين ، وأصبح بواسطة ثروته ونفوذه يتحكم في ضمائر الحكومار
الفرنسية .

ووضع نظام الجزائر الجارى به العمل الآن سنة ١٨٦٩ ، فه
يجعل على رأس البلاد موظفاً سامياً فرنسيا يدعى « الوالى المام
الذى يشرف على إدارة فرنسية بحمة ، تحكم من أجل الإستعمار ، ولفائد
الإستعمار .

ثم تدفق سيل جديد من المستعمرين أثر الحرب التى نكبت فيها فرنسا
شر نكبة ، أمام الألمان سنة ١٨٧١ فاستقرت ببلادنا جموع عظيمة مر
الانزاسيين ، اقطعوا جيد الأرض ، ومنحوا الأموال الغزيرة ، واشتدت
حركة الرى بالمسلمين إلى الجنوب وبلاد النجود ، دون شفقة أو رحمة
ونزعت عنهم بقايا أرضهم الفلاحية الصالحة .

وفى سنة ١٨٨١ ، أصدرت فرنسا قانون الجنسية ، يضيف الجنسية الفرنسية
على أبناء كل الأجانب الذين يولدون فى الأرض الجزائرية . فإذا أضفنا إلى
ذلك مجموع اليهود الذين زج بهم فى الجنسية الفرنسية سنة ١٨٧١ ، رأينا

كيف تمكن الفرنسيون من وضع مليون أجنبي فوق أديم الأرض الجزائرية وتمكينهم من كل خيراتها ومرافقها وأرضها وأموالها .

وفي مفتتح القرن العشرين ، سنة ١٩٠١ ، نال الاستعماريون في قطر الجزائر نوعا من الاستقلال المالى ، بواسطة الاستثمار ، ولفائدة الاستثمار ؛ واشتد الكرب بالمسلمين ، وأشرفوا على الهلاك . وكانت لهم قوانين زاجرة ، سنت للبطش بهم ، ومنع كل حق عنهم ، تدعى « قوانين المدجنين » الأنديجينا ، التى لا يعرف العالم لها مثيلا .

واستمر زحف السيل العرم من المستعمرين . ففيما بين سنتى ١٩٠٤ — ١٩٢٧ ، وزعت عليهم (٢٣٧٠٠٠) هكتار من جيد الأرض ، مع منح مالية عظيمة ، وأمضوا كلهم التزاما بأنهم إن اضطروا إلى بيع تلك الأرض ، فلن يبيعوها إلا للمستعمر ليس إلا ، ولا تباع لمسلم أبدا .

الحكومة

جربت حكومة باريس عدة أنواع من الحكم المباشر فى أرض الجزائر ، إلا أنها تعتمد ، عند كل تجربة جديدة ، الأمان فى إبعاد العنصر الإسلامى عن الحكم ، ووضعه موضع المتشرد أمام أصحاب السلطان .

فالوالى العام الفرنسى ، الذى يعينه مجلس الوزراء ، يمثل السلطة الفرنسية ، ويتلقى الأوامر من وزير الداخلية ، لكنه لا ينفذ إلا ما يرضى عنه الاستثمار ، وما يفيد الاستثمار . فإذا بدا من أحد الولاة العاميين ما يدل

على الاستقلال برأى ، أو على مخالفته لأى مصلحة استعمارية ، ثار عليه المستعمرون ، وواطأتهم حكومة باريس ، فاستبدلت به غيره . لهاذا فالوالى العام بقطر الجزائر ، هو خادم ركاب الاستعمار ، منفذ لأرادة المستعمرين . يرأس الوالى العام « الإدارات » الحكومية التى تشملها الولاية العامة ، وهى : الداخلية ، المالية ، البريد ، الأشغال العامة ، المواصلات ، الفلاحة والتجارة ، العلوم .

وكل مصلحة من هذه المصالح ، يتولى أمرها : المدير العام ، وهو موظف فرنسى ، ويباشر العمل فيها ممثلاً من الموظفين ، كبار وصغار ، كلهم من الفرنسيين . فالملا بين التهمة من المسلمين الذين يقطنون أرض الجزائر ، لا وجود لهم أصلاً ، مطلقاً ، داخل جدران هذه العبارة العملاقة التى يدعوها الجزائريون : « مغارة على بابا » وقد اعترف الفرنسيون أخيراً بأنه لا يوجد من بين خمسة آلاف موظف ، إلا ثمانية رجال من المسلمين . فالولاية العامة التى تتولى إدارة قطر الجزائر ، وتحكمه حكماً قاسياً ، إنما هى إدارة فرنسية ، عنصرية ، استعمارية ، شعارها : كل شئ للفرنسيين ، ولا شئ للمسلمين !

العمال

كانت بلاد الجزائر مقسمة ، إلى يوم الثورة الكبرى ، إلى عمالات « مقاطعات » فرنسية ، هى : قسنطينة ، والجزائر ، ووهران . أما البلاد

الجنوبية ، وهي الصحراء الواقعة تحت جبال الأطلس الصحراوي ، فيحكمها المسكرون حكماً عرفياً .

والعامل أو « البريفي » فرنسي ، يتبع رأساً وزير الداخلية ببازيس . وللوالى العام عليه حق الإشراف ليس إلا . والمهالة عبارة عن إدارة محلية واسعة النطاق ، شديدة الحكم صارمة التنفيذ ، للاستعمار فيها سلطة تعادل سلطته ونفوذه في الولاية العامة . فالأوربي يعتبر في دار المهالة صاحب البيت كل من فيها يخدم ركابه . أما المسلم ، فأذل فيها من اليتيم على مائدة اللثيم . وفي كل إدارة عمالة ، طائفة عظيمة من الموظفين ، الذين تغدق عليهم الأموال جزافاً ، لكن لا وجود لمسلم بينهم . والإدارة هنا ، كما في الولاية العامة ، فرنسية ، عنصرية ، لا تعمل إلا لفائدة المستعمر .

البلديات

وتنحدر درجات السلطة في القطر الجزائري ، وينحدر معها التعفن الاستعماري إلى أقصى الدرجات .

فالبلديات على ثلاثة أنواع :

١ — البلدية التامة : وهي تشمل كل المدن في الجهة الشمالية ، وبعض القرى . وإذا كانت أغلبية المجلس البلدي مؤلفة من الأوربيين (٣ من ٥) فشيخ المدينة ، أو « المير » يكون دائماً فرنسياً ، استعمارياً ، وقد ألف شيوخ المدن هؤلاء جمعية استعمارية تملئ إرادتها على الدولة وعلى الحكومة .

ويرى هؤلاء الأناييون الجشعون ، أنهم أصدق من يمثل الرأى العام الأوربى ويعلمون ما يكتمه غيرهم ، من العداوة ، والبغضاء ، للعنصر الإسلامى .
والبلدية عبارة عن إدارة ضخمة ، تتناسب وقيمة المدينة من حيث الغنى ، والاتساع ، وال عمران ، وهى كالأدارات السابقة : فرنسية ، عنصرية استعمارية ، قلما رأيت فيها موظفاً مسلماً ، إلا النادر ، اللهم إلا طبقة البوابين وكانسى الطرق وأضرابهم .

٢ — البلدية الممزجة : وهى توجد فى الجهات التى يقل فيها العنصر الأوربى ، فخلقوا لها نظاماً خاصاً كيلا تكون بلدية عربية ولا وطنية .
فهذه البلدية يديرها موظف فرنسى ، مطلق التصرف ، يدعى المدير أو « الادمنستراتور » وله مجلس ينتخب الفرنسيون — مهما قل عددهم — أغليبيته . بينما تعين الإدارة تعييننا ، جماعة من أعوانها ، لتمثيل المسلمين . ورغم أن دستور عام ١٩٤٧ ، قد أعلن الغاء هذا النظام الفاجر ، فإنه قد بقى موجودا إلى يوم اعلان الثورة . وكل الموظفين من الفرنسيين .

٣ — البلدية العربية : ولا تسرع فى التفاؤل . فليس لها من العربية إلا الاسم . فهذه البلديات توجد فى بلاد الجنوب العسكرى ، ولا ينتخب السكان أحدا فيها . فالفرنسيون فيها هم رجال السلطة العسكرية ، والمسلمون فيها هم أعوان تلك السلطة ، من : قياد ، وغيرهم . والقائد ، فى الاصطلاح الإدارى الجزائرى ، هو موظف صغير مسلم ، يختارونه غالباً من قدماء الحاربيين ، ليكون حارساً للنظام فى القرى والمداشر والبادية ، يعين

السلطة على استخلاص الضرائب ، ويجند لها الناس ، ولا تدفع له الإدارة مرتبا يكفيه ، بل تكفى بالتغاضى عن الأساليب الحقيرة التى يسلكها لكسب عيشه ، وتوسيع ثروته ، من عرق جبين الجياع العراة من المسلمين .

المجلس الجزائرى

هو المجلس الذى جاء به دستور الجزائر الجديد ، الذى « منحته » فرنسا سنة ١٩٤٧ ، وهو مجلس له النظر الواسع فى ميزانية الجزائر ، تحت رقابة المجلس الوطنى الفرنسى ، ولا ينفذ قانون فرنسى فى أرض الجزائر ، إلا بعد مصادقته ، بينما لا ينفذ قرار من مقرراته ، إلا بعد مصادقة مجلس فرنسا عليه .

وقد سنت فرنسا ، فى غمرة من الأريحية والحرية ، مبدأ التساوى المطلق بين المسلمين والفرنسيين فى هذا المجلس ، فالتسعة ملايين من المسلمين يمثلهم ٦٠ نائبا ، والمليون الواحد من الأوربيين ، يمثلهم ٦٠ نائبا كذلك .

هذا هو التساوى الذى تتفتق عنه عبقرية الفرنسيين ، عند ما يريدون أن يسلكوا فى الجزائر سياسة حرة ! .

لكن خوفهم من كل ما هو جزائرى ، وكل ما هو مسلم ، جعلهم يخشون سوء مغبة هذه التسوية فى العدد ، فاکتشفوا طريقة تقيهم هذا الخطر ، وجربوها ، وأمعنوا فى تجربتها المرات العديدة ، إلا وهى طريقة :

تدليس الانتخابات / فالإدارة تعين مرشحها من قبل ، من بين الصم البكم العمى الذين لا يفقهون ، وربما تساحت أحياناً ، فرضيت عن ترشيح بعض أصدقائه من النخبة « المعتدلة » . ثم تصدر الأوامر لكل الإدارات ، والبلديات ، وجميع رجال السلطة ، بأن المرشح الذى « يجب » أن يفوز هو فلان ، وتتنافس سلط البلديات الثامة ، والمتزجة ، فى استعمال وسائل التزوير ، والتدليس ، والسرقعة ، لفوز المرشح الحكومى ، إلى أن أصبح الانتخاب فى قطر الجزائر علة العلل ، وطالما أعلن المسلمون مقاطعتهم لهذه « الانتخابات المدلسة » ، لكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً ، فالمرشح الحكومى فائز أبداً ... ولو لم يباشر العملية إلا النزر اليسير من المسلمين .

وقد اعترف — بعد فوات الوقت — أعضاء المجلس الوطنى الفرنسى بهذه المآسى الانتخابية ، وهذه التدليسات الحقيرة . وتباروا — بعد اعلان الثورة الجزائرية الكبرى — فى وصف آفاتهما ، وطريقة وقوعها . وأعلنت الحكومة التوبة جهاراً . وقالت : لىكن الانتخاب فى قطر الجزائر حراً ، فى مستقبل الأيام ، حتى تتمكن من التفاوض مع ممثلى الرأى العام الحقيقين ، ثم حلت المجلس الجزائرى المزيف .

كفروعون موسى ، حين أعلن ايمانه ، بعد أن أدركه الفرق .

أما الميزانية الجزائرية التى يتصرف فيها الاستعمار والمستعمرون ، بواسطة نوابهم ، وبواسطة أذيل نوابهم ممن رضيت الإدارة عنهم من المسلمين ، فقد بلغت مبلغاً ضخماً يزيد عن مليتين وعشرين ملياراً من الفرنكات .

أغلبها يدفعه أبناء البلاد ، لأنه مفروض على الاستهلاك . لكنها تنفق على الاستعمار ، تاركة المسلمين للفقر والجهل والاهمال .

المجالس العمالية

لكل عمالة مجلس منتخب ، كان إلى إعلان الثورة الجزائرية الكبرى ، يتألف من ثلاثة أخماس للنواب الأوربيين ، وخمسين فقط للنواب المسلمين (ثم سوى بعد ذلك ، على نفس قاعدة المجلس الجزائري .) . لكن مآسى التدليس الانتخابي فيه ، كانت توازي أو تكاد تفوق مآسى انتخاب المجلس الجزائري ، ولا تكاد ترى فيه إلا لمن يرضى عنه الاستعمار ، أو من رشحه الاستعمار ، وقليل جدا ممن بعثت بهم المدن ضد أرادة الاستعمار . وهذا المجلس ينظر ميزانية العمالة ، وينفق معظمها في صالح الاستعمار والمستعمرين الفرنسيين . وأن تكلم نائب حر عن مصلحة المسلمين ، فلا يسمع له قول ، وأحيانا لا يسجل كلامه في محضر الجلسة ، فالجزائري غائب عن الحكم وعن المجالس دائما .

المجالس البلدية

كل مدينة ، وكل بلدة تنتخب مجلسا بلديا لأدارة شئونها . وبما أن أعمال السرقة والتدليس تصعب داخل جدران المدن الكبيرة — وأن كانت نطم على نطاق واسع — فلم يجازف القانون بسن التسوية البشعة الآنفة

الذكر ، على قاعدة $9 = 1$ ، بل حرص على إن يبقى للأوربيين مهما قل عددهم ثلاثة أخماس المقاعد ، وأن يكون للجزائريين ، مهما سما عددهم ، الثلثان الباقيان . وبهذا يضمن الاستعمار لنفسه أمسين : أولهما : أن شيخ المدينة « المير » لا يكون إلا فرنسيا . وثانيهما . أن كل ما يقترحه الجزائريون ، على قلتهم ، يرفض . وكل ما أرادته المستعمرون ، ينفذ ، ولو عارضه الجزائريون باجماع .

مجالس الجماعات

في القرى والمداشر ، والقبائل الجبلية ، والبدوية ، ينتخب الجزائريون مجالس تدعى « مجالس الجماعات » وتنتخب في مجال محلي ضيق ، وليس لرجالها أى سلطة أو نفوذ .

المجالس الفرنسية

كان الجزائريون ينتخبون للمجالس النيابية الفرنسية (المجلس الوطنى — مجلس الجمهورية — مجلس الاتحاد الفرنسى) من يمثلهم — نظريا — إلى جانب ممثلى المستعمرين الفرنسيين فى عدد متساو بين هؤلاء وهؤلاء . وإذا أسفرت التجربة الأولى عن فوز الأحرار الوطنيين الجزائريين ، فأقضوا مضاجع النواب الفرنسيين ، وأن لم يؤثروا بأقوالهم البلدية وحججهم الدامغة شيئا ؛ فإن الإدارة الاستعمارية قد عمدت فى هذا

الميدان أيضا ، بل أكثر من الميادين الأخرى ، للتدليس والسرقعة ، والتزوير . فكانت تزود المجالس النيابية الفرنسية بنوع من البضاعة البشرية ، لا يكاد يمثل الجزائريين في قليل ولا في كثير .

وهكذا كان الجزائريون غائبين عن الحكم وعن الإدارة ، وعن المجالس ، يهانون ويمتهنون ويحتقرون ، ولا يزيدهم أى عمل ، أو أى قول أو أى مسعى ، إلا أيمانا بأن هذا المنكر العظيم يجب أن يزول ، وأنه لا يزول إلا بواسطة القوة وحدها ، لأن قرنا ورابع قرن من التجربة قد أرتهم أن الفرنسيين الاستعماريين لا يخضعون لمنطق ، ولا يسمعون كلمة الحق ، وأن الاندفاع في ميادين الموت والتضحية ، هو سبيل الحياة الكريمة الشريفة ، فاندفعوا في ثورتهم الكبرى ، وفقهم الله وسدد خطاهم .

الأرض والاستعمار

هذه صفحة خزي وعار ، سجلها الاستعمار على نفسه ، وكان جشعه فيها ، هو سبب المصارع الوحشي الذي ينتظره ، والذي يتذوق الساعة منه مرارة الاحتضار .

فالنظام الاستعماري القذر ، العفن ، قد استولى عنوة واقتدارا ، بواسطة اللصوصية والقتل ، والإعدام الجماعي ، والتدليس ، على معظم الأرض الفلاحية الغنية في القطر الجزائري ، تلك الأرض التي كانت عنصر

عيش الجزائريين ، وكانت تكفى لحياتهم حياة هنيئة ، وتسمح بتصدير الفائض منها إلى الخارج ، فى تجارة واسعة .

أن الأرض الفلاحية فى القطر الجزائرى تشمل عشرين مليون هكتار يعترف الاحصاء الرسمى الفرنسى أنها توزع هكذا :

٥,٠٠٠,٠٠٠ هكتار تملكها الدولة الفرنسية ، ومنها أرض الأوقاف الإسلامية المقتضية ، ومقدارها مليونان هكتار .

٤,٠٠٠,٠٠٠ هكتار تملكها البلديات ، أى النظام الاستعمارى الفرنسى وكل هذه الأرض يستغلها الاستعمار لفائده .

٢,٥٠٠,٠٠٠ هكتار ، ملك خاص لطائفة المستعمرين «الكولون» وهى أجود الأرض ، وأكثرها خصبا ، وأحسنها موقعا ، فى الجهات التى تكثر فيها الأمطار ، وتوجد بها أعمال الرى يملكها ٢٦,٠٠٠ مستعمر

٨,٥٠٠,٠٠٠ هكتار ، من الأرض القاحلة الجرداء ، التى ليس بها رى ، ولا ثنال من المطر إلا قليلا ، بقيت بأيدي الجزائريين ، فى مناطق الجبال والنجود والصحراء ، توزع على تسعة ملايين نسمة .

وهكذا ، لم يكتف الاستعمار الظالم بأبعاد الجزائريين عن الحكم ، والإدارة ، والمجالس ، بل أبعدهم قبل ذلك ، ومع كل ذلك عن أرض آبائهم وأجدادهم ، وتركهم للبطالة ، والتشرد ، والفقر والاهمال .



(شكل ١٩) اذنة المستعمر في جنة أبيها

وقد ألفت في فظائع الاستعمار ، وتشريده للجزائريين من أرض
وطنهم السكتب العديدة ، ونستطيع أن نلخص مأساة تشريد الجزائريين
وأبعادهم عن الأرض في المراحل الآتية :

أولا : كان المارشال دي برمون ، الفاتح الفرنسي ، المتهم بالالصوعية
والسرقة ، قد تعهد بالشرف ، على احترام الدين ، وشعائره ومؤسساته كما

تمهد بحفظ ممتلكات الأتراك — الذين أصبحوا بعد إقامة ثلاثة قرون من أهل البلاد الأصليين .

لكنه لم يكف يستقر له قدم في الجزائر ، حتى أعلن مصادرة كل أوقاف المسلمين ، من أرض وعقار ، ومصادرة كل ممتلكات أبناء البلاد من الأتراك . وأخذ في الاستيلاء فعلا ، على الأرض الفلاحية الغنية في جهة الجزائر ، ووزعها على الحشالة التي صحبت جيش الاحتلال .

ثانيا : بما أن أغلبية المسلمين كانت تملك الجهات الشاسعة من الأرض ملكا جماعيا ، قوامه العائلة أو القبيلة ، لا الفرد ، فقد صدر قرار سنة ١٨٣٢ ، يقبض ملكية الدولة الفرنسية ، لكل أرض لا يستطيع صاحبها أن يستظهر بمقد امتلاكها . وهكذا أصبح الاستعمار يستولى على أكبر مساحة من الأرض ، عنوة وظلما واقتدارا .

ثالثا : بعد ان انتهت الدولة الفرنسية من جرد أرض الأوقاف ، واستولت على القسم الأكبر من أرض الجزائر أصدرت قانون أكتوبر سنة ١٨٤٤ الذى يبيح لها بيع أرض الأوقاف للمستعمرين أو توزيعها عليهم ، وأن عقد « الوقف » الإسلامى لا يمنع صفقة البيع الفردى أو الهبة ، وهكذا استولى المستعمرون على كامل أرض الأوقاف وتوزعوها فيما بينهم .

رابعا : أصدر الاستعمار قانون ٣١ يوليو سنة ١٨٤٦ يتملك به كامل الأرض التى تقيم فيها القبائل الرحالة ، فأصبحت الغالبية العظمى من سكان البلاد ، تعمل فى أرض « الدولة » وأخذ الاستعمار يشردها شيئا فشيئا ، لصالح المستعمرين ، إلى أن لم يبق بين أيدي البدو إلا الأرض البور .

خامسا — ما كادت الجندية الفرنسية تتغلب على ثورة الزعيم المقراني في البلاد القبائلية ، حتى أعلنت مصادرة كامل الأرض الفلاحية في تلك المنطقة ، ومساحتها نصف مليون هكتار ، ووزعتها على لاجيء الألزاس ، تاركة رجال زواوة الأشراف الميامين للجوع والفناء العاجل ، ولولا رحمة من الله ومعجزة الإيمان ، لما بقيت في تلك الجبال حياة لأهلها .

وهكذا شرد المستعمرون الجزائريين من الأرض ، واستأثروا بها دونهم ، ووزعوها فيما بينهم توزيعا غير عادل ، إذ من المستعمرين من يملك قطعة أرض تكفيه لحياته وحياة عائلته ، ومنهم عدد محظوظ ، نال ممالك شاسعة درت عليه ثروات لا يسكاد يستطيع ضبطها . ثم هو لا يدفع عنها إلا ضرائب زهيدة جدا .

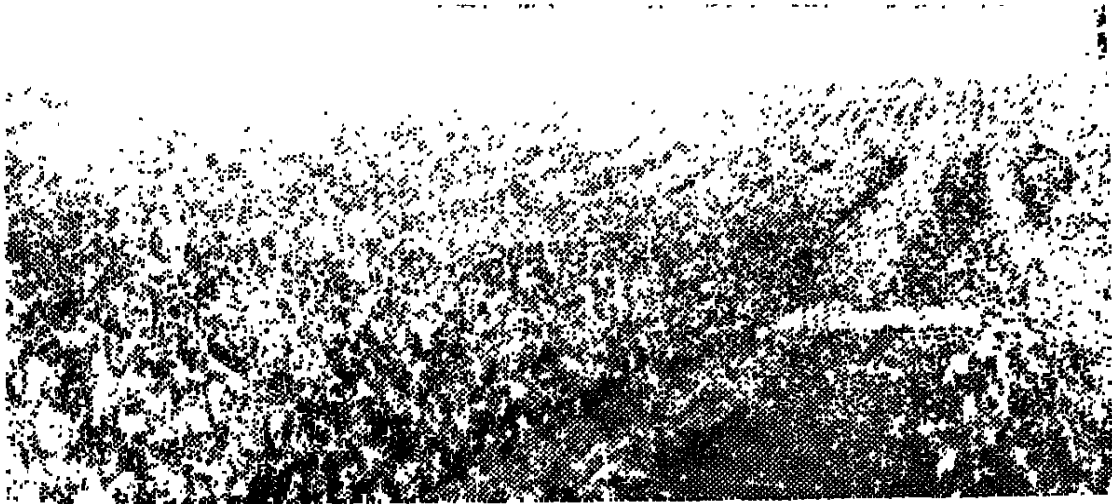
كانت نتيجة هذا التشريد الفظيع ، وهذه اللصوصية التي لا مثيل لها في التاريخ ، أن وقعت في البلاد الجزائرية مجاعة فادحة ، سنة ١٨٦٧ ، أدت إلى هلاك نصف مليون من المسلمين ، وأفقرت الجهات الكثيرة من البلاد الجزائرية ، بصفة لا تزال تعاني ويلاتها إلى الآن .

وهكذا كانت الحالة ، إلى قيام الثورة الجزائرية الكبرى ، يوم غرة :
نوفمبر سنة ١٩٥٤ : أمة ذات تسعة ملايين من الناس ، تعيش شديدة مهملة في أرض كانت لأبائها وأجدادها فاستأثروا بها الاستعمار دونها ، ولم يترك لها إلا القاحل والبور منها ، فهبت تستعيد حقها بالقوة ، بعد أن أعيتهما الحيلة .

الفلاحة

الأعناب :

إذا كان الاستعمار قد اغتصب أكثر الأرض الجزائرية خصبا وأحسنها ربا وأطيبها مناخا فإنه يستثمرها لصالحه الخاص ، دون مراعاة صالح البلاد ، وينتج فيها ما يعود عليه هو بالفائدة ، ثم ما عليه أن ماتت بقية البلاد جوعا فالسهول الخصبة في جهات عنابة ، والجزائر ، ووهران ، قد غرست كلها كروما لإنتاج الأنواع المتعددة من الخمر . فهذه الكروم تحجب اليوم مساحة ٤٠٠,٠٠٠ هكتار من أجود الأرض ، وتنتج سنويا نحو عشرين مليون هكتولتر خمر .



(شكل ٢٠) كروم استعمارية لانهاية لها

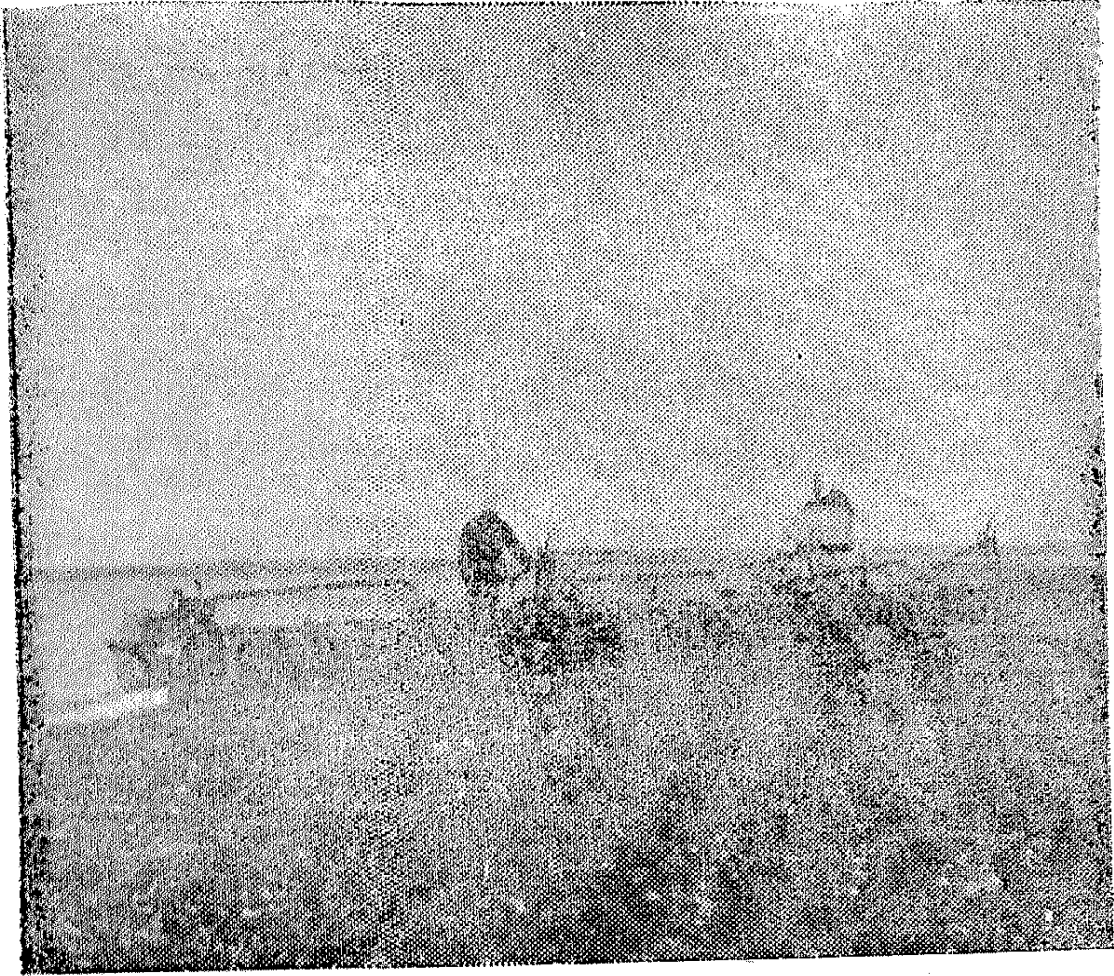
فهذا الخمر لا يستهلك محليا ، إنما يعتبر وسيلة مقايضة تجارية ، فتضطار بلاد فرنسا لشرائه ، وذلك يسبب لها كسادا عظيما في سوق خمرها الوطنية لما هي تفعله مضطرة لمساعدة مستعمراتها أولا ، ولبيعهم مقابل ذلك بضائع وآلات وأدوات من صنعها ، ثانياً .

أما أهل البلاد فقصارى أمرهم من هذه الحركة الواسعة العريضة ، أنهم يعملون في حقول الاستثمار بأجور منخفضة جداً ، لا تكاد تسد الرمق ، ثم يقال أنهم لا يقومون بالعمل على الوجه الأكمل ، فيأتى المستعمرون بطائفة من العمال من أسبانيا ، ومن غيرها ، حتى يحرم الجزائري من نفس ذلك الأجر الزهيد .

القمح :

زراعة القمح هي الزراعة الأساسية بالقطر الجزائري ، وعليها معول السكان لحياتهم . فالسهول الداخلية ، وبعض الجبال والنجود ، تزرع قمحا ، وتأتى بمحصول واحد في السنة ، وتتأثر هذه الزراعة بالمؤثرات الطبيعية وأهمها الجفاف إذا كانت أمطار السنة قليلة . فتهدد الحاجة السكان المسلمين .

ومجموع الأرض التي تزرع قمحا ١١,٢٠٠,٠٠٠ هكتارا ، تنتج في السنة نحو ٨,٥٠٠,٠٠٠ قنطاراً وهو مقدار لا يفي بحاجة السكان ، بينما كانت الجزائر المستقلة تصدر كل سنة كميات عظيمة من قوحها . وليس الجزائريون هم الذين ينتجون وحدهم هذه القمح . بل أن الكثير من المستعمرين (م — ٨ هذه هي الجزائر)



(شكل ٢١) مستعمر يحرق أرضه بآخر طراز من المحارث

الذين انتصبوا في الجهات الفلاحية الصعبة ، يشاركون في هذا الإنتاج بنحو
الثالث ، ويستعملون لزراعته ورعايته وخصده أحسن الآلات الحديثة ، نظراً
لما بين أيديهم من وسائل العمل ، ووفرة القروض الحكومية والشركات
الاحتياطية وغيرها ، أما أغلب المسلمين فلا يكادون يستعملون إلا أبسط



(شكل ٢٢) عربى يحرق أرضه بمحراث عتيق

الآلات ، وقد أوصدت دونهم أبواب البنوك وأبواب القروض ، فإذا ما أصابتهم جائحة ذهبت بالأخضر واليابس ، ونكبتهم شر نكبة .
أما السدود ، وأعمال الري ، وخزن المياه ، فلا تفكر الإدارة الاستعمارية أصلا فى إيجاد شىء منها ، بالجهات التى يباشر بها الجزائريون فلاحتهم



(شكل ٢٣) مستعمر يحصد القمح بآلة حديثة

الضعيفة ، فالإهمال في كل شيء ، ذلك هو نصيب الجزائري تحت حكم الإدارة الاستعمارية .

الشعير :

وهي الحبوب الثانوية بمد القمح ، تستعمل لعلف الحيوانات ، ولغذاء الإنسان ، وللتصدير للخارج لصناعة البيرة .



(شكل ٢٤) عريية تحصد القمح بمنجلها .

فهذه الحبوب التي تكاد تكون غلة الجنوب الوحيدة تزرع على مساحة ١,٣٠٠,٠٠٠ هكتار ، وتنتج ٧,٥٠٠,٠٠٠ قنطار سنوياً ، وإليها يرجع أكبر الفضل في حياة الجزائريين بجهات الوسط والجنوب ، لكن الاستثمار شارك في نفس هذه الزراعة البسيطة أيضاً ، وهو ينتج منها نحو السبع .

الدخان : أو الطباك :

من أهم المخرجات الصناعية في قطر الجزائر ، وهو الشيء الوحيد الذي يسكاد الجزائريون ، وخاصة أهل الجبال منهم ، ينفردون بغrasته . (تمت مراقبة إدارية صارمة) . وهو يحجب نحو ٣٠ ألف هكتار . تنتج ٣٠٠ ألف قنطار في السنة ، وبفضله يعيش أهل الجبال التي تحيط بمدينة الجزائر .

الحلقة :

نبت طبيعي كما أسلفناه في الفذلة الجغرافية ، يحجب كامل بلاد النجود الجزائرية وينتشر على نحو أربعة ملايين من الهكتارات التي قضى عليها الإهمال الإداري الاستعماري بأن تبقى بوراً ضائعة ، وتشتغل القبائل العربية الكثيرة العدد بقطع هذه الحلقة ، والانيان بها المراكز التصدير ، فالمحصول السنوي الذي يبلغ ١٥٠ ألف طن ، يسلم كله لشركة استعمارية واحدة ، تكاد تستثمرها عائلة مستعمرة واحدة ، ويأخذ العرب مقابل عملهم الشاق المضي ثمناً زهيداً جداً لا يكاد يذكر ، بينما تبغ الشركة هذا المحصول للبلاد الأجنبية ، وخاصة المعامل الانكليزية ، بأثمان باهظة ، فتصنع منها الأقشة ، والجيد من الورق .

حتى حلقة النجود المحرقة القاحلة ، يستأثر بها الاستعمار ، ولا تعود بالخير إلا عليه !

الزيتون :

الزيتونة المباركة شجرة أفريقية أصيلة ، قد وجدت من أقدم العصور عناية عظيمة من كل إدارة تولت أمور البلاد ، لأن هذه الشجرة صبورة ، طويلة الحياة ، تكفى بعناية قليلة ، وتنبث في الجهات التي ربما لا تستطيع شجرة أخرى الحياة فيها .

فغابات الزيتون تحجب في القطر الجزائري نحو ٨٥ ألف هكتار . وفيها ٩ ملايين شجرة مثمرة ، و ٥ ملايين شجرة مهملة ، ولو كانت إدارة الجزائر بيد أبنائها ، لكانت اعتنت بالمثمر من شجر الزيتون ، كعناية البلاد التونسية به ، ولكانت باشرت العمليات الفنية التي تجعل ملايين الشجيرات العقيمة مثمرة .

لكن . ويل ثم ويل لبلاد حكمها الأجنبي ، رغم إرادة بنيتها ، وسار فيها ضد مصلحة ذويها .

فهذه الزياتين الكثيرة التي كانت تستطيع جعل قطار الجزائر من أكبر منتجي زيت الزيتون الرفيع في العالم ، لا تنتج سنوياً إلا ٣٥٠.٠٠٠ هكتوليتراً ، تستولى عليها أيدي الاحتكار الأوربي ، فلا تعود على صاحب البلاد إلا بالنزر اليسير من الخير .

على أن الاستعمار قد زاحم هذه الغراس أيضاً مزاحمة عنيفة ، واستولى على أحسن جهاتها ، فهو يملك منها الثلث (ثلاثة ملايين شجرة) من أحسنها موقعا وأكثرها إنتاجا ، ثم يقول : هل من مزيد ؟ .

النخيل : ثروة واحات الجنوب الجزائرية ، وجنته الوارفة الظلال .

فالنخيل يحجب في جهات الجنوب ٦٥٠٠٠ هكتار من الأرض ، تنتج أنواعا عدة من أجود الثمرات يبلغ مجموعها في السنة ١,٨٠٠,٠٠٠ قنطار ، تستعمل بعض أنواعها للاستهلاك المحلي ، وتوزع بمض أنواعها الأخرى



(شكل ٢٥) جنى التمر في واحات الجنوب

على الأسواق العالمية ، بواسطة شركات الاحتكار . وقد زاحم الاستثمار الجزائريين في هذه الواحات أيضاً ، وهو يملك جزءاً من النخيل .

أما أهم المواد الزراعية الأخرى في قطر الجزائر — وأغلبها بأيدي المستعمرين — فهي :

البرتقال :	يغرس على	١٠,٠٠٠ هكتار ،	وينتج سنوياً	٧٥٠,٠٠٠ قنطار
الليمون :	»	»	»	» ٧٥٠,٠٠٠ »
الماندارين ^(١) :	»	»	»	» ٧٠٠,٠٠٠ »
اللوز والبرقوق »	»	٦٠٠٠ »	»	»
المشمش :	»	٣٠٠٠ »	»	»

وغنى عن الذكر ، أن أهم البساتين في أيدي الأوربيين ، وأن العناية الكبرى لا تبذل إلا في الجهات الأوربية ؛ وأن أهم المحصول لا يفيد إلا المستعمرين .

التين :

له غابات كثيفة بالبلاد الجبلية ، تحجب نحو ٧٠ ألف هكتار . وعليه اعتماد أهل الجبال القبائلية « جرجرة » في معيشتهم . وقد تدخل فيه الاحتكار والاستثمار ، وأسست شركات عديدة لاستثماره بحففاً ، على الطريقة التركية ، والاتجار به في شتى أسواق العالم .

(١) اليوسف أفندي .

الماشية :

هى إلى جانب النخيل ، الثروة الوحيدة التى يعتمد عليها العرب فى وسط البلاد وجنوبها للقيام بأود حياتهم . وقد زج الاستعمار بأنفه فى هذه الناحية أيضاً ، وأصبح يملك عددا عظيما من الغنم ، ويستأثر بالقسيح من المراعى .

ويبلغ عدد الغنم فى قطر الجزائر ، فى الأعوام الاعتيادية نحو السبعة ملايين رأسا . لكن سنوات الجذب ، وفقد المرعى ، وقلة المياه ، تصيب تلك الماشية الكريمة بكارثات فادحة ، فينحط عددها فجأة إلى ما دون النصف . ولو كانت فى البلاد إدارة صالحة وطنية ، لأولت عنايتها هذه الثروة الطائلة ، ولوقتها غائلة النكبات ، لكن النظام الاستعمارى فى قطر الجزائر لا يهتم إلا بأمرين إثنين : أولهما راحة مليون من الأوربيين وثروتهم ، وثانيهما : العناية بالأرض الاستعمارية ، وتوسيعها .

أما التهمة ملايين من أهل البلاد ، فلمبيت رب يحميه !

البقر = ٨٥٠.٠٠ رأس

الماعز = ٣,٢٠٠.٠٠٠ »

الخيل = ٢٥٠ ألف رأس

البغال = ٢٠٠ » »

الحمير = ٣٠٠ » »

الإبل = (وهي الشيء الوحيد الذي لا يملكه إلا العرب ، الوحيد
حقاً) ٢٥٠ ألف رأس .
أما الصيد البحري على سواحل قطر الجزائر فركمته ناشطة ، ويكاد
يستأثر به وبصناعاته وبأسواقه جماعة من الطليانين والأسبان .



(شكل ٢٦) قلع الفلين بغابات الجرجرة

فأنت ترى من هذا العرض الفلاحى البسيط ، أن الثروة فى قطر
الجزائر ، وأهم المحصولات ، وأغلب الموارد ، وأجود الأرض ، إنما هى
للمستعمرين ، ولا تعود بالنفع إلا على المليون من الأجانب المستوطنين ،
وأن تسعة ملايين من المسلمين ، لا يعيشون ، فى أرض آبائهم وأجدادهم ،
إلا على فتات الموائد .

— ٤ —

الثروة المعدنية

وهذه آفة الآفات ، لأن الاستعمار ، إن كان قد استولى عنوة واقتدرا على
أكثر مافوق الأرض ، فهو قد استولى فعلا ، وبصفة تامة مطلقة ، على
كل ماتحت الأرض .

فالبلاد الجزائرية غنية مفرطة الغنى من حيث المعادن والمناجم . وكل
تلك الثروة المعدنية بيد الاستعمار خاصة ، لاحظ فيها لابن البلاد ، إلا إذا
ما هو سعد بالعمل فيها أجيرا بسيطا ، وعدد هؤلاء العمال لا يزيد عن ١٥٠٠٠
على أن الاستعمار قد ترك الكثير من هذه المعادن والمناجم دون
استثمار لعجزه فنيا وماليا عن ذلك ، ولكى يتركها ثروة « لأجياله
المقبلة . . . »

وإليك أهم معادن القطر الجزائرى ومناجمه مما يستأثر به الاستعمار
وشركائه الضخمة ذات الأرباح الذريعة .

١ — السماد (الفوسفات) :

وهو ذو شهرة عالمية ، يستخرج أكثره من مناجم الكويف ، قرب تبسه ، ويباع منه سنوياً نحو ٨٠٠٠٠٠ طن .

٢ — الحديد :

يستخرج أكثره من الوزنة ، وبني صاف ، وجبال ذكار ، وينتج سنوياً ثلاثة ملايين طن .

٣ — الرصاص — ٢٠ ألف طن في السنة .

٤ — الزئبق — ٥٠ « « « « .

٥ — النحاس — ١٥٠٠ طن في السنة .

٦ — الزئبق — ١٢٠٠ طن في السنة .

٧ — الفخيم الحجري — ٣٠٠ ألف طن في السنة . وتحول سياسة خاصة دون استثماره .

٨ — النفط (البترول) له حقول كثيرة . أثبتت التجارب أنها تنتج أحسن الأنواع ، منها ما يخرج مصفى لا يحتاج لعمليات التكرير . ومنها ما هو موجود على عمق ١٣ متراً أو ٢٥ متراً ، لكن هذا البترول لا يستثمر إلا قليلاً . نظراً لوجود عراقيل سياسية عالمية .

فهذا العرض البسيط لحالة القطر الجزائري من حيث الثروة المعدنية .
يريك رأى العين كيف أبعد الجزائري المسلم عن خيرات بلاده ، وعن كنوزها ، وكيف هي تدر الربح الفاحش على الأجنبي المتسلط الغاصب ،
بينما يموت ابن البلاد جوعاً واهلاً .

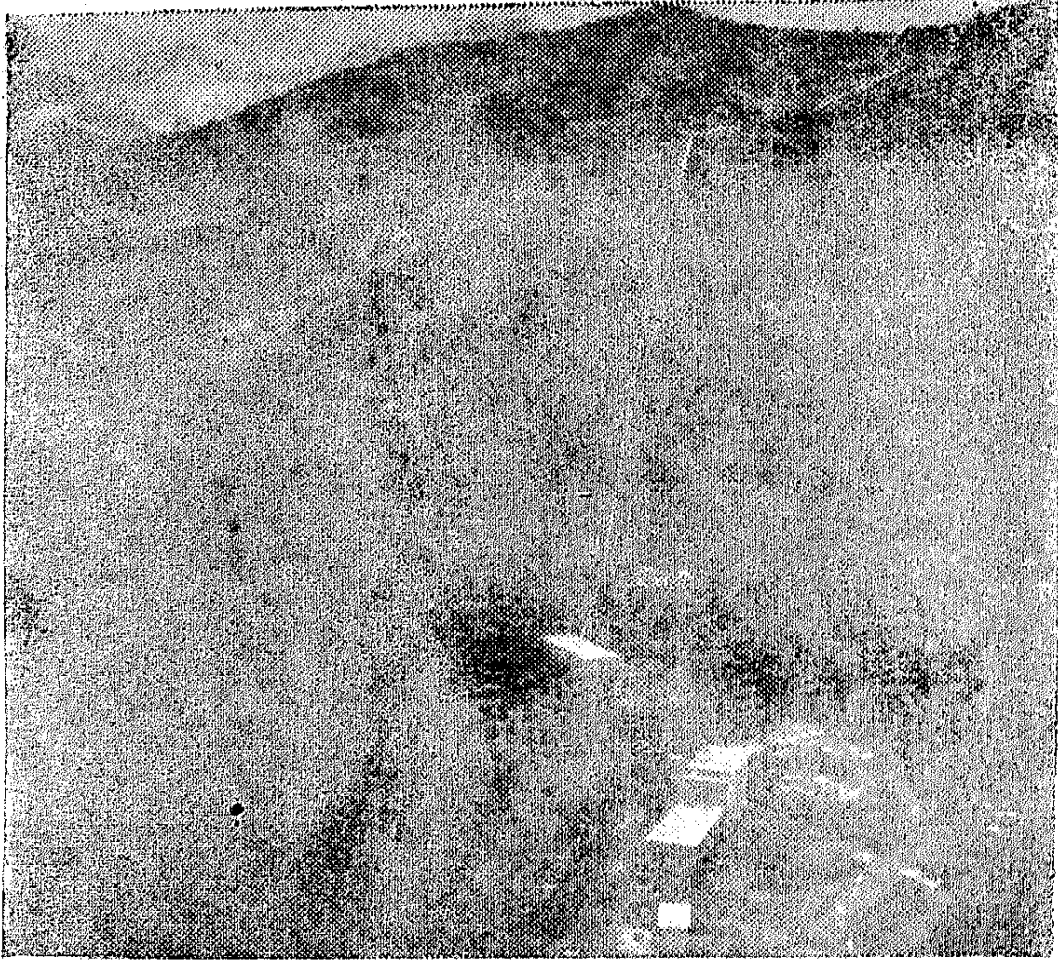
الصناعة والتجارة

أن الاستثمار قد تعمد محق وإعدام كل حركة صناعية في البلاد ، فهو يستثمر الأرض وما تحتها لفائده ، وذلك يكفيه لحياة الترف والنعيم التي يحياها ، فلا فائدة يرجوها من تصنيع البلاد ، ثم أن أحداث صناعة في القطر الجزائري ، يزاحم معامل فرنسا ، وهذا ما لا يرضاه دولة الاحتلال بحال . كما أن تصنيع القطر الجزائري يغير وضعيته سوق اليد العاملة الجزائرية ، فيغري العمال الجزائريين بالعمل الصناعي ، المرتفع الأجور ويزهدهم في العمل الفلاحي عند المستعمرين مقابل الأجور المنخفضة ، وهذا ليس في مصلحة المستعمرين .

لذلك ترك القطر الجزائري دون صناعة تذكر ، اللهم إلا بمض معامل الزيت ، والصابون ، وصناعة السجائر والتبغ ، وما بق بأيدي المسلمين من الصناعات المحلية مثل نسيج الزرابي « السجاد » وحياسة الأصواف للاستهلاك المحلي .

فلاستعمار هشم الأمة الجزائرية من ناحية الصناعة ، وحطمها تحطيمًا ، وأوصد في وجهها أبواب الأمل والرجاء ، مع أن خيراتها موفورة ، واماكياتها عظيمة .

فهل يحق لأمة أن تترك غاصبًا محتلا ، يحكم عليها بالاقتصادي



(شكل ٢٧) إنتاج السكر بباء بقرية سوق الجمعة الجبلية

والموت جوعاً وعلّة ، ثم هي لا تطرق الأبواب الفعالة التي تغير هذا الحال ،
لأحسن حال ؟ .

أما التجارة . فهي عبارة عن معول هدام ، مخرب ، يمحطم كل يوم
شيئاً من بقايا السكان الجزائري ، ويحكم على الأمة الجزائرية كل يوم
حكماً جديداً بالافلاس والاملاق .

ذلك أن فرنسا تحتكر التجارة الجزائرية — إلا النزر اليسير — فهي تبتاع نتائج القطر الجزائري ، وتبيعه مقابلها ما يحتاجه وما لا يحتاجه مما تنتجه معاملها ومصانعها . والميزان التجاري الجزائري في عجز مستمر فادح ، من جراء هذه الصفقات الخاسرة (الواردات عام ١٩٥٤ = ٢١٨ ملياراً ، والصادرات ١٤٠ ملياراً فقط) .

ثم أن القانون الفرنسي يجبر الجزائر على أن لا تباشر أى عملية نقل بحرى ، للناس أو للبضاعة إلا على السفن الفرنسية خاصة . . .

إن أهل البلاد — تسعة ملايين من الجزائريين — لا وجود لهم في هذه الحركة التجارية الضخمة ، وقصارى أمرهم انهم يبيعون شركات الاحتكار والتجارة ما يزيد عن حاجتهم المحلية (أصواف — تمر — تبغ — حبوب — زيت —) . ثم هم يشترون من المستوردين الأجانب كل ما يلزمهم لحياتهم اليومية ولأعمالهم . فهم من جهة يستهلكون أكثر مما ينتجون ، ثم هم من جهة أخرى لا يشاركون إلا بصفة تافهة في حركات التصدير والتوريد . وهذا ما يقضى على الشعب بالفقر المستمر والخراب العاجل . فإذا زدنا على ذلك أنه لا يملك الأرض ، ولا ما تحت الأرض ، وهو بعيد عن الحكم ، غائب عن ميادين الإدارة والمجالس ، وأنه قد بقى على ذلك الحال ما يزيد عن القرن وربع القرن ، رأينا أنه لم يبق أمامه من باب يطرقة ، دفاعاً عن حق الحياة ، إلا باب الثورة الجامحة ، وقد طرقة .
أما أهم ما تصدره الجزائر سنوياً فهو :

الخمر	١٠ ملايين هكتولتر .	أوراق الدخان	١٣٠,٠٠٠ قنطار
الغنم	٦٥٠,٠٠٠ رأس .	التمر	٧٠٠,٠٠٠ »
التصوف	١٢٥,٠٠٠ قنطار .	الزنك	٦٤,٠٠٠ طن
البهش (الفلين)	٥٠,٠٠٠ طن .	الرصاص	٣٣,٠٠٠ »
الحلقة	٢٠٠,٠٠٠ »	الحديد	٢,٣٠٠,٠٠٠ »
السجاد	٨٨٠,٠٠٠ »	الزيت	٦٠٠,٠٠٠ قنطار

أما الواردات : فأهمها الآلات الحديدية ، والسيارات ، والمنسوجات ، والسكر ، والقهوة والأخشاب ، والأواني ، والوقود ، والكاليات (عطور ومواد التجميل وغيرها) .

وفي هذه الحركة الكبيرة بين صادر ووارد ، وليس لأبناء البلاد فيها كما أسلفنا إلا النزر اليسير ، تنشط أهم المراسي الجزائرية نشاطاً كبيراً في حركات مستمرة ، لا تعود بفائدة على أبناء البلاد إلا من اشتغل منهم سمحاً لا ينقل البضاعة على ظهره المنحني ، بين الأرض والسفن .

فالمراسي الجزائرية ذات حركة سنوية هذا معدّلها :

مرسى مدينة الجزائر ٣١٨٠٠٠٠٠ طن سنوياً

» » ٢١٥٠٠٠٠٠ » »

» » ٢١١٠٠٠٠٠ » » (بونة)

» » ٧٠٠٠٠٠٠ » » مرسى بنى مصاف

» » ٣٥٠٠٠٠٠ » » بجاية

» » ٣٢٠٠٠٠٠ » » سيكيدة

(م ٩ — هذه هي الجزائر)

المواصلات :

في قطر الجزائر اليوم ٤٤٠٠ كيلو متراً من السكك الحديدية .
هدفها الأول استعماري بحت ، وعسكري إصالة . فالخط الأساسي هو
الذي يمتد من تونس إلى أقصى بلاد مراکش ، وتمتد منه فروع إلى عدد
من الجهات الاستعمارية .

أما الجهات التي ليست فيها منافع استعمارية ، ولا مراکز عسكرية
فهى لا تعرف السكة الحديد .

وما يقال عن السكة الحديد ، يقال أيضاً عن الطرق الكبرى ، فهى
تربط بين أمهات المدن والقرى ، وتصل المراكز الاستعمارية بالحوضر والقرى
أما الجهات التي لا استعمار فيها ، ولا أوربي فيها ، فطرقاتها المتيقة الملتوية
تكفيها . . .

ففي القطر الجزائرى خمسة آلاف كيلومتر من الطرقات الكبرى ،
وعشرون ألف كيلومتر من الطرق الثانوية .

— ٦ —

نتائج المأساة الاقتصادية

الأجور :

القاعدة الأساسية في قطر الجزائر بالنسبة للأجور ، هى إعطاء أقل
ما يكون للعامل المسلم — وخاصة في المنطقة الفلاحية — وذلك ليزداد

المستعمرون ثروة وغنى وتمكنوا في الأوض ، ويزداد الجزائريون فقراً وفاقة .
فلا تقوم لهم في قطر الجزائر قائمة فأساس السياسة الفرنسية في قطر الجزائر
هو « التفجير » وسيأتيك حديث التجهيل .

فبعد تسويات عديدة أصبحت الأجور في القطر الجزائري كما يلي :
المنطقة الأولى (العمل من ١٢ إلى ١٤ ساعة يومياً) ٤٢٧ فرنك
٤٢ قرش في اليوم .

المنطقة الثانية (العمل من ١٢ إلى ١٤ ساعة يومياً) ٣٩٠ فرنك
أى ٣١ قرش . بينما الأجور في فرنسا تتراوح بين ١١٠٧ و ٨٩٠ فرنكا لليوم
(١١٠ قروش و ٩٠ قرش) والملاحظ أن أسعار المواد الغذائية وأسعار
اللبسة والأقمشة مرتفع جدا في الجزائر على ما هو عليه بالبلاد الشرقية
العربية .

فإنخفاض الأجور على هذه النسبة ، يجعل مقدرة الشراء عند العمال
الفلاحين الجزائريين شبه المنعدمة ، ولا تمكنهم تلك الأجور المنخفضة
إلا من حياة الشظف والحرمان وخاصة أن كل عامل يعمل في الأغلب عائلة
كبيرة العدد ، وليس له في عمله أى ضمان اجتماعى .

البطالة :

أن إبعاد الجزائريين عن الأرض ، وعن الوظائف الحكومية
والإدارية ، وعدم وجود صناعات في البلاد ، وتكاثر عددهم مع عدم توافر

أسباب الحياة ، أوجد بين أهل البلاد الجزائرية طبقة كثيفة من العمال الغاطلين الذين يقضون حياتهم عبثا ، بل أن حياتهم تعتبر معجزة من معجزات العالم الحديث . كيف يعيشون ؟ لا يدري أحد ! .

يوجد في البلاد الجزائرية ، رسميا ، مليون رجل عاطل . أنهم لا يجدون أى عمل فى الأرض ، ولا فى الصناعة ولا فى التجارة ، وما كان من المتوقع أن تحدث السياسة الاستعمارية بالقطر الجزائرى غير هذه النتيجة .

فالعمال الذين يجدون ما يعملونه فى الأرض ، يتناولون أجورا لا تكفى لسد الرمق . والعمال الذين لا يجدون عملا ، يغدون ويروحون فى جوع وإملاق ، يرتدون اسمالاً بالية ، ويعيشون — إن صح التعبير — عالة على مجتمع معدم .

المسكن :

إذا كان الأوروبيون كافة يسكنون الدور والقصور ، والمقاصف الجميلة فى مدن والقرى ، فإن الجزائريين المسلمين يتجهون فى البادية الجزائرية القاحلة على نسبة مريعة :

٢,٠٠٠,٠٠٠ من الجزائريين يسكنون المدن والقرى .

٧,٠٠٠,٠٠٠ « « « البادية .

وسكنى البادية : خيام من الصوف والوبر لأهل الوسط والجنوب .

وقراني (جمع قربي) لأهل الشمال . وهو بيت صغير من قش وطين

فيه حياة السقم والكتابة . ثم مدائن القصدير الرهيبة ، على مقربة من المدن يسكنها أهل البادية الذين أضناهم الجوع وحطامهم الإهمال ، فيؤمنون ساحات المدن نجريا وراء القمة العيش ، ولو على طريق التسول والتقاط فضلات المزابل ، (وهو منظر مألوف جدا في مدننا الجميلة الآهلة)

ومدينة القصدير هذه تجمع مئات الآلاف من الناس ، يسكن كل عائلة منها (بمعدل ٥ نفوس في العائلة) بيتا شيدت جدرانها وسقفه من بقايا صفائح القصدير تجمع إلى بعضها بأخشاب بالية ومسامير ، ولا يتجاوز مساحة البيت منها ستة أمتار (أى نعم $2 \times 3 = 6$) فهناك في ذلك القبر الجماعى ، حيث يحسد الأحياء الأموات على قبورهم الانفرادية ، تتكسب أفراد العائلة رجالا ونساء . هناك يحيون حياة الهم ، وهناك يموتون موت الغم .

أما في المدن نفسها ، حيث تتكسب جموع العمال طلبا للرزق ، فقد ضاقت المنازل بسكانها ، وأصبحت الغرفة الواحدة تقسم على عائلتين أو أكثر ، ويدفع المساكين مقابلاها أجورا مرتفعة جدا :

المرض :

ليس المعجب ، تجاه هذه الحالة ، أن تكون أغلب الأمة الجزائرية في حالة مرض مزمن ، بل المعجب كل المعجب أنها لم تهلك تماما ، ضخمة الجوع والمهانة ، وسكنى القبور القدرة ، وقضاء الحياة بين أحضان اليأس والشقاء

الأمة الجزائرية مريضة ، والموت يحصد بين صفوفها حصداً ذريعاً .
فبينما تجد في الاحصاء الرسمي أن معدل حياة الأوربي في قطر الجزائر هو
٧٢ عاماً ، ونصف عام ، تجد معدل حياة الجزائري لا يتجاوز ٥٠ سنة .
لقد أثبت الاحصاء أن معدل الكالوريات (وحدة الحرارة الغذائية)
التي يتناولها الأوربي هي ٣٠٠٠ كالورية في اليوم الواحد . أما بالنسبة
للمسلمين فمعدلها لا يتجاوز ١٥٠٠ كالورية يومياً . (٢٠٠٠ في المدن
و ١٠٠٠ في البادية) .

فرض السل يضارب أطنا به في البادية والقرى ومساكن العمال في المدن
بصفة مريمة ، وقد قال أحد الأطباء الاختصاصيين الإداريين عن ذلك « أن
قطر الجزائر بملايينه العشرة من السكان ، يحتوى على نفس العدد من
المسؤولين الموجودين بفرنسا ذات الأربعين مليوناً » وعدد المسؤولين بقطر
الجزائر يناهز ٤٠٠٠٠٠ نسمة .

لكن بينما يوجد في فرنسا ٩٠٠ مستشفى صحي لأمراض السل ،
لا يوجد بأرض الجزائر إلا ٢٨ فقط . أو ليس المرضى من الجزائريين خاصة ؟
أما أمراض العيون الفتاكة ، فهي تذهب كل سنة بأبصار نحو
الثمانين ألفاً من السكان المسلمين . ولا توجد في قطر الجزائر إلا مصحة
واحدة أنشئت حديثاً لمعالجة العيون ، وست سيارات كبيرة متجولة .

في قطر الجزائر كله ، توجد مستشفيات بها ٢٥٦٠٠ سرير ، لا تسكد
نقصاً لكفى للسكان الأوربيين خاصة ، ولا يوجد منها ، يكامل جهات الجنوب
إلا ٦٠٠ سرير فقط .

وليس في قطر الجزائر إلا ١٨٥٠ من الأطباء ، يستقرون بالمدن والقرى الكبيرة^(١) . أما القرى الجزائرية حيث لا استعمار ، والبادية ، فليس بها من طبيب ولا قابلة ، ولا صيدلى ولا أية وسيلة من وسائل الصحة .

وما قيل عن الأطباء يقال عن ٦٦٠ قابلة مولدة ، و ٦١١ صيدلى ، و ٤٦٢ طبيب أسنان .

الهجرة .

أن البطالة من جهة ، وانخفاض الأجور من جهة أخرى ، جعلتا الأيدي العاملة الجزائرية تبحث عن ميادين للعمل ، كيلا تموت البلاد جوعا .

وإذ كانت فرنسا تجند الجزائريين اجباريا ، للعمل في صفوف الجيش الفرنسى ، والقتال في سبيل الصالح الفرنسى منذ عشرات السنين (حروب ، ١٨٧٠ — التونكان والأنام — ١٩١٤ إلى ١٩١٨ — الحرب العالمية الأخيرة) فإن غالبية الرجال الجزائريين قد عرفوا البلاد الفرنسية ، واختلطوا بأهلها ، ودرسوا حالتها ، وعلموا أنهم يستطيعون أن يعملوا فيها ، في ميادين الصناعة واستثمار المناجم وغيرها ، نظراً لقلة اليد العاملة الفرنسية ، والفراغ العظيم الذى أحدثته الحروب في صفوف الشبان . وهكذا اضطر الجزائريون للهجرة ، كما اضطرت فرنسا لقبول سيل من العمال الجزائريين في معاملها ومناجمها ، وإن كان المستعمرون

(١) منهم ١١٥٤ بمدن الجزائر — ووهران — وقسطنطينية .

الفرنسيون وانصارهم قد احتجوا وما زالوا يحتجون على ذلك حتى قيام الثورة ، لأن هجرة الجزائري إلى فرنسا تعود بالضرر العظيم على الاستعمار ، وذلك :

أولاً : لأن اليد العاملة الرخيصة الجزائرية تقل في البلاد .

ثانياً : تعود العمال الجزائريون تقاضى الأجور المرتفعة في معامل فرنسا ، فلا يرضون عند عودتهم للجزائر بالأجور الضعيفة .

ثالثاً : أن وجودهم بفرنسا يجعلهم يرسلون أموالاً طائلة لأهلهم وأولادهم ، وهذا ما يقلل من تهافت اليد العاملة الجزائرية على العمل عند المستعمرين ، دون تقاضى الحد الأدنى للأجور ، كما يقع غالباً .

رابعاً : أن وجود العمال الجزائريين المسلمين بفرنسا ، يحرم اليد العاملة اللاتينية (الإيطالية — والاسبانية) من القدوم لفرنسا ، للعمل ، ثم للاستقرار وتعمير البلاد الفرنسية بجموع مسيحية أوربية جديدة ، حيث عجز الفرنسيين عن تعميرها .

فبعد محاولات عديدة ، وبعد صدور قوانين متعاقبة في الموضوع ، تمكن الجزائريون من ارسال نحو الأربعمئة ألف رجل من رجالهم الأشداء للعمل في المعامل الفرنسية ، وأكثرهم يسافر عن غير استعداد ، وليس له أدنى تخصص ، إنما هو يعلم أن تلك الهجرة تنجيه من خطر الموت جوعاً في بلاده التي ليس له في أرضها ولا في اقتصادها أي حظ .

فنجح النصف من هؤلاء العمال ، يشتغلون شغلا عاديا بأجور معقولة ،
تسمح لهم باتفاق جزء منها على عائلاتهم الباقية بقطر الجزائر ، أما النصف
الآخر فأغلبه يقبل العمل بأى أجرة كانت ، وأقله يلتقى هناك
البطالة وآفاتهما .

ولقد اضطر بعضهم لتزوج فرنسيات ، وأنجبوا أبناء فرنسيين . وقد
سببت هذه الهجرة إلى جانب منفعتها الاقتصادية ، كارثات أخلاقية عديدة ،
أهمها انغماس الكثير من المهاجرين فى مهاوى السقوط الاجتماعى الفرنسى ،
مثل تعاطى المسكرات ، والاقدام على موبقات الفجور ، وتقشى الأمراض
الزهريّة وداء السل فيهم ، وانقطاع الصلة أحيانا بينهم وبين ذويهم ،
وبعبارة أخرى انحطاطهم صحياً وأخلاقياً ودينياً ، فلولا المساعى الجبارة التى
قامت بها الأحزاب الوطنية الجزائرية فى الميدان السياسى ، وجمعية العلماء
الجزائريين ، فى الميدان الدينى والثقافى ، لكانت الأمة الجزائرية قد
نكبت — مقابل لقمة خبز — فى القوة الحية من أبنائها العاملين
بفرنسا .

لكن الغالبية العظمى من هؤلاء الذين أجبرهم الاستعمار على الخروج
من ديارهم فراراً من الموت ، لا تزال والحمد لله جزائرية ديناً وعقيدة وإيماناً
ووسطى — كون بحول الله النواة الأولى لبناء النهضة الاقتصادية الجزائرية الحرة .
وقد حاولت الجموع الكبيرة من هؤلاء المهاجرين الرجوع للبلاد
لجزائرية أيام الثورة فحالت الإدارة الفرنسية بينهم وبين ذلك ، خشية
انضمامهم إلى جانب أخوانهم الثائرين الأحرار .

القضاء

هل يعلم عربى فى دنيا العروبة ، أن القضاء فى قطر الجزائر ، العربى المسلم ، قضاء فرنسى كله ؟ وأن أهل البلاد ليست لهم أدنى مشاركة فيه ؟ .

فهناك فى أعلى سلم القضاء بقطر الجزائر ، محكمة استئناف عليا . وليس للجزائرى فيها من نصيب

وهناك ١٧ محكمة جنائية . لا مسلم جزائرى بها .

» ١٧ « ابتدائية ، يشارك أثنان فقط من الجزائريين فيها .

وهناك ١١٣ قضية صلح ، لا يشارك فيها المسلمون .

إنما يتقاضى المسلمون أمامها جميعاً ، فهم من الناحية القضائية ، كما هم فى النواحي الأخرى يعيشون غرباء فى بلادهم .

أما القضاء الشرعى الإسلامى ، فقد حطمه الاستعمار تحطياً ، ولم يبق منه إلا سورة مشوهة بشعة ، ينجل منها الإسلام . ولا أرانى فى حاجة إلى الاطناب فى ذكر هذه الفضيحة القومية التى أرادها لنا الاستعمار ، إنما أرجو القارىء العربى أن لا يتصور أصلاً أن القاضى فى قطر الجزائر . المنكوب بالاستعمار ، هو « القاضى » الموجود فى البلاد الإسلامية الأخرى .

فالقاضي المسلم الجزائري المتخرج من المدرسة الحكومية الجزائرية هو موظف فرنسي ، يحكم بين المسلمين في أمور الزواج والطلاق والحضانة والموارث ، أى ما يتعلق بالحالة الشخصية الإسلامية ، إنما أحكامه تعتبر كلها ابتدائية ، والمتقاضين استثنافها للمحاكم الفرنسية التى يكون لها القول الفصل فى الموضوع .

أما فى البلاد القبايلية التى طالما حاولت فرنسا بصفة إجرامية فصلها عن الإسلام ، فالقضاء « الإسلامى » يعتمد هناك ، منذ سنة ١٨٧٤ ، على العرف والتقاليد القبلية ، أكثر مما يعتمد على الفقه الإسلامى ، وذلك جرياً وراء تلك السياسة الخرافية التى ترمى إلى الفصل بين العربى والبربرى وقد خلقهما الله أخوانا ، ووحده بين قلوبهم الإسلام ، وربطت بينهم أوشاج العروبة ، وأندجا فى الوطنية أندماجا لا تنفصم عراه .

فالقضاء فى القطر الجزائرى مصيبة من أعظم المصائب الاستعمارية التى نكبت بها البلاد .

سياسة التجهيل

لم تكن الأمية سائدة فى الأوساط الجزائرية ، قبل مصيبة الاحتلال سنة ١٨٣٠ فكانت الكتاتيب (٣٠٠٠) وكانت المساجد والزوايا تقوم بمهمتها فى تعليم الأمة وتنشئتها الناشئة العربية الدينية الصالحة .

فالاستعمار قد حطم في أول ما حطم كل المكتاتيب القرآنية ، وألقى
وحجر التعليم في المساجد التي دمر وهدم أكثرها ^(١) ، ثم هو لم يموض
ذلك بشيء آخر ، لأنه يعلم أن الأمة أن علمت قاومت الاستعمار ، ولم ترضخ
لقيوده ، وسعت السعي الحثيث للتخلص منه .

فسياسة « التجهيل » كانت إلى جانب سياسة « التفقير » شعار
الاستعمار الفرنسي في قطر الجزائر ، والقانون الذي سار عليه ، منذ يومه
الأول إلى يوم قيام الثورة الكبرى التي ستبديل بها الأرض غير الأرض ،
بمشيئة الله وإرادة الشعب .

فالحكومة الاستعمارية قد تجاهلت في أول أمرها قضية التعليم ، ولم تكن
مشتغلة إلا بافناء العنصر الجزائري ، وتحطيم قواه وإخماد حركاته ، فما كاد
ينتهي ، ذلك الدور الأحمر الفظيع ، حتى كانت البلاد قد فرغت من العلم
بصفة تكاد تكون مطلقة ، وأصبح الناس يتعلمون سرّاً في ديارهم كأنهم
يرتكبون جريمة .

ثم أخذت الحكومة الاستعمارية تفتح أبواب المدارس شيئاً فشيئاً
أمام أبناء الجزائريين ، منذ سنة ١٨٨٣ ، لكن التعليم كان — ولا يزال —

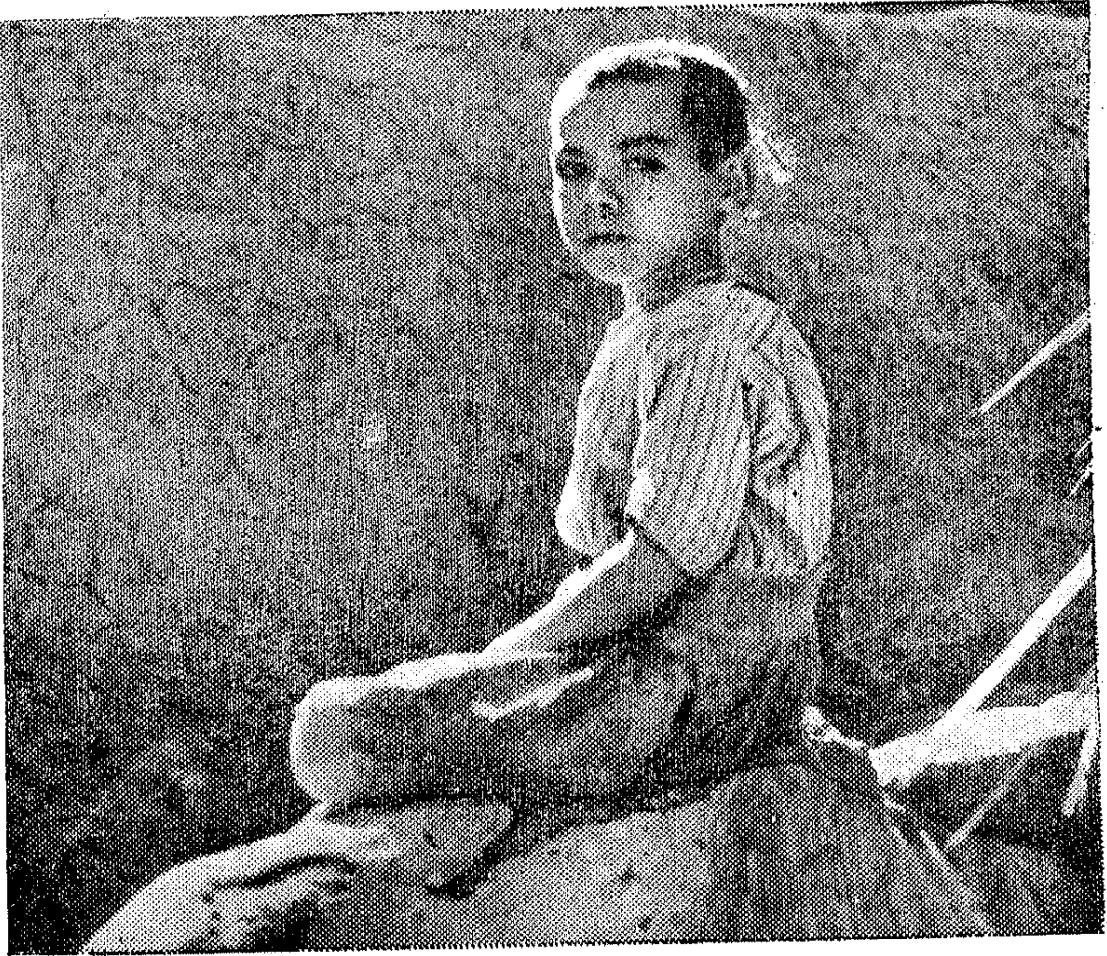
(١) كان بمدينة الجزائر وحدها قبل الاحتلال ١١٢ مسجداً . لم يبق منها إلا
فقط . أما الباقي فقد هدم تديماً ، وحول أثنان من أكبرها إلى كنائس مسيحية ،
منها مسجد كتشاوة الذي أصبح كاتدرائية ، ومسجد علي بن شني الذي أصبح « قديسة
الانتصار » .

فرنسيا بمحتا ، لا غربيا ولا جزائريا ، فاللغة الفرنسية فيه هي لغة الوطن «
وبلاد فرنسا فيه هي الوطن ، وتاريخ فرنسا فيه هو تاريخ الوطن وهكذا ...
إنما كان من نتيجة الوعي القومى الجزائرى الذى أخذ يكبس على
الحكومة كبسا عنيفا منذ أوائل القرن العشرين ، أن نشطت حركة بناء
المدارس وفتح أبوابها أمام أبناء البلاد ، بيرنا مجها الفرنسى البحت ، ولم
يكن المقصد منها يومئذ الاستجابة لصوت الأمة ، ولا مسيرة النهضة
العالمية التى كادت تقضى على الأمية فى سائر جهات الأرض ، بل كان
المقصد منها ، حسب اعتراف كبار رجال السياسة والأساتذة ، تقريب
الجزائريين من فرنسا بواسطة تعليمهم لغة الدولة المحتلة ، وآدابها وعلومها ،
حتى يسهل ابتلاعهم ، ويسهل إدماجهم . لذلك كانت اللغة العربية —
ولا تزال — محجرة فى كل المدارس الابتدائية الفرنسية . أما فى المدارس
الثانوية والعلما ، فهى اختيارية كلغة « أجنبية » .

فمأساة التعليم فى بلادنا الجزائرية ، تساوى فى هولها وفى فظاعتها
مأساة الأرض ، فهذه حرمت على أبنائنا حياتهم المادية ، وتلك حالت
بينهم وبين النور ، والحياة الإنسانية الفاضلة .

فالمدارس الابتدائية الفرنسية فى قطر الجزائر تأوى سائر أبناء الأوربيين
واليهود على الإطلاق ، أى نحو ١٥٠,٠٠٠ تلميذ ، سنة ١٩٥٥ ، ولا يجد
مقعدا فيها إلا نحو ٢٠٠,٠٠٠ من الجزائريين : ليس إلا . فأبناءؤنا ،
ويا للفظاعة ، ويا للدناءة ، محكوم عليهم من الاستعمار ، فى عصر العلم

وانفجار الذرة ، بالنسكع في الطرقات ، والنشأة في الظلمات ، ليكونوا
طول حياتهم مطية ذلولا للاستعمار ، يعملون مع السائمة لجر محاربه ، وخدمة
الدنيء من مآربه .



(شكل ٢٨)

يريدون له حياة الجهل والشقاء وتريد الثورة له حياة العلم والعمل والحرية

فنجو المليونين إثنين من أبناء المسلمين الجزائريين ، لا يجدون إلى يومنا هذا مقعداً أى مقعد فى أى مدرسة ابتدائية ! .

وتنحدر نسبة التعلم للمسلمين بارتفاع درجة التعليم .

فالتعليم الثانوى بقطر الجزائر ، وهو فرنسى كله ، يزاول فى ٤٩ مدرسة ثانوية من درجة « ليسى » أو « كوليج » وهو يشمل :

٣٤,٨٦٨ تلميذاً بين فتيان وفتيات ، منهم ٥,٣٠٠ فقط من فتيان الجزائريين ، و ٩٥٢ من فتياتهم .

وإذا ازدادت صعوداً فى سلم التعليم العالى ، رأيت الهوة السحيقة التى يرسب فيها أبناء الجزائريين :

فمن بين ٥١٤٦ طالباً فى كليات الجامعة الجزائرية ، لا يوجد يوم إعلان الثورة الكبرى إلا ٥٥٧ طالباً ليس إلا .. أما توزيعهم فهكذا :

الحقوق	١٥٢٨	أوربى	١٧٩	جزائرى
الطب	٧١٤	»	١١٠	»
الصيدلة	٣٦٩	»	٣٤	»
الآداب	١١٥٧	»	١٧٢	»
العلوم	٧٦٢	»	٦٢	»

وهكذا يوجد طالب واحد لكل ٢٢٧ نسمة من الأوربيين بينما لا يوجد إلا طالب واحد لكل ١٥,٥٠٠ من المسلمين .

فالفقر المدقع من جهة ، وسياسة التمييز العنصرى البشعة من جهة أخرى ، وسد أبواب الوظائف في وجه المسلمين ، واشتراط الجنسية الفرنسية لغشيان بعض المعاهد العليا في فرنسا ، كل ذلك كان حائلا بين المسلمين وبين مقاعد الجامعات .

أما العربية ، ويحتاجها النظام الاستعماري حاجة قليلة ، لايجاد طبقة القضاة وأعوانهم والتراجمة ، فقد أنشأت لها الحكومة مدرستين ثانويتين — بتلمسان وقسنطينة — ومدرسة عليا بمدينة الجزائر ، تدعى « الليسات — الفرنسية الإسلامية » يتلقى فيها نحو ١٥٠٠ طالب من المسلمين ، تعلما عاليا في اللغتين الفرنسية ، ثم العربية .

هذا ما يمكن أن تقدمه بغاية الإيجار عن التعليم الرسمي الحكومى بقطر الجزائر ، وهو يرمى ، كما رأيت ، لتعليم كل الأوربيين وتجهيل أكثر ما يمكن تجهيله من الجزائريين .

التعليم الحر

لكن الأمة الجزائرية لم تقف موقف الخائر القوى أمام هذه الضربة الاستعمارية الكبرى ، بل أقدمت بجهودها الخاصة الضئيلة ، على إنشاء المدارس العربية الإسلامية الحرة ، وشادت منها مايزيد عن ١٧٠ مدرسة ، يتراوح عدد فصول المدرسة منها بين ٢ و ٧٠ وقد تباغت الأمة — على فقرها المدقع — في بناء تلك المدارس ، تحت أشرف ورقابة جمعية العلماء

المسلمين الجزائريين ، فكان منها ما بلغت تكاليف بنائه ١٥ أو ٢٠ مليوناً من الفرنكات . (١٥ أو ٢٠ ألف جنيه مصرى) .

فهذه المدارس الابتدائية التي تعنى بها جمعية العلماء بصفة خاصة ، وتسطر برامجها وتعين لها قرابة السبعمئة من الشيوخ والعلماء ، قد تمكنت خلال العشرين سنة الأخيرة من تكوين نخبة عربية اسلامية بالقطر الجزائري ، وقد تخرج منها منذ تكوينها ما يزيد عن المائة والخمسين ألفاً من الفتيان الفتيات . وعدد تلاميذها من بنين وبنات كان يشمل يوم اعلان الثورة الكبرى نحو الخمسين ألفاً . وكل هذه المدارس محارب من الإدارة الاستعمارية محاربة سافرة ، فهي أن تغافلت عنها في جهة ، فإنها تضربها في جهات أخرى ضربات قاسية . وطالما أوصدت أبواب المدارس دون شفقة ، وطالما أصدرت على الشيوخ والعلماء الأحكام القاسية بالسجن والتفريم الفادح ، وطالما نالها من الاضطهاد ما لا يكاد يتصوره العقل ، إلى أن كانت الثورة ، فبطشت الحكومة البطشة الكبرى بهذه المدارس .

ثم أسست جمعية العلماء — بأموال الأمة الفقيرة المدممة — معهد « عبد الحميد ابن باديس » التكميلي ، ليكون همزة الوصل بين مدارسنا الابتدائية العربية الحرة ، والمعاهد العليا بتونس وبالشرق . وجهزت له « دار التلميذ » التي بلغت تكاليفها ما يزيد عن ٥٠ مليوناً من الفرنكات (٥٠ ألف جنيه) وهي مؤسسة داخلية على أحدث طراز مصرى . يجد بها نحو الألف طالب المأوى والطعام وكل وسائل الراحة ، فيقدمون على التعليم بحمية وإيمان .

أما الذين يتخرجون من هذا المعهد التكميلي ، فيسيرون لاستكمال معلوماتهم العليا بالجامعة الزيتونية في تونس ، أو يرسلون بعثات للجامعات الشرقية الكبرى ، في مصر ، والعراق ، وسوريا ، والكويت ، والعربية السعودية ، وعددهم في جميعها اليوم نحو الثلاثمائة طالب . ورغم عناية الحكومات العربية بهم عناية مختلفة النسبة ، فأكثرهم يقاسى آلام الفقر ، ومنهم من يبیت الليالى على الطوى ، لأن المقدار الزهيد الذى يتناولونه من بعض الجهات الرسمية لا يكفهم أصلاً للمأكل والملبس والسكن . وقد انقطعت الصلة بينهم وبين ذويهم في قطر الجزائر منذ قيام الثورة الكبرى ، ثم إن جمعية العلماء لا تستطيع أن تمدهم — فى حالتها الحاضرة — إلا بالثافه الزهيد ، فحالتهم اليوم ضئلى مؤلمة ، تدعو للأسى .

وأرجو ، وقد كشفت الستار عن حالتهم البائسة فى هذه الرسالة الموجهة للعالم العربى كافة ، أن تلتفت كل حكومة عربية — وخاصة حكومة مصر — ان عندها من أبناء الجـزائر المغتربين جهاداً فى سبيل إحياء العربية والإسلام بقطر دمره الاستعمار تدميراً ، فتقوم بنحوهم بالواجب الحقيقى الذى يفرضه الإسلام وتأنمر به أوشاج العروبة .

التعليم الفنى

هناك فى قطر الجزائر مدرسة للتعليم الفنى الزراعى ببلدة الحراش ، على مقربة من عاصمة الجزائر يغشاها ٣٨١ تلميذاً ، من بينهم ٧٥ فقط من المسلمين

أما التعليم الصناعي والتعليم التجاري ، فلهما كذلك بعض مدارس قليلة ، والعنصر الجزائري يكاد يكون مفقوداً فيها .

هذه صورة الكارثة العلمية في قطر الجزائر ، وهي كارثة لا مثيل لها على ما نعتقد ، في أي قطر آخر . وبهذه السياسة « التجهيلية » الفاضحة ، حكم الاستعمار الفرنسي على نفسه حكماً صارماً ، يسجل عليه الخزي والعار ، إلى الأبد . .

الدين الإسلامي

هل يعرف المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ، أن الدين الإسلامي في قطر الجزائر ، غريب في داره ، ممتن بين أهله وذويه ، منكوب في أوقافه ومساجده ومؤسساته ، وأنه يعتبر « ملكاً » خاصاً من « ممتلكات » الدولة الإستعمارية ، تتصرف فيه كما تشاء ؟

هذا ما لا يعلمه الكثير من الناس ، وهذا ما يوثبك أن لا يصدقه الكثير من الناس ، لكن هذا هو الحق الصراح ، دون مبالغة أو تهويل . إن أول ضربة ضربها الاستعمار في قطر الجزائر ، بعد تقويض أسس الدولة الجزائرية ، هي تلك الضربة التي ألحق بها الأوقاف الإسلامية بممتلكات الدولة سنة ١٨٣٠ . فكل المساجد الإسلامية والمؤسسات الإسلامية ، قد أصبحت من ممتلكات الدولة الفرنسية الخاصة ، تفعل بها

ما تشاء ، فهدمت منها على هذه القاعدة ما هدمت ، ثم هي « تسمح » للمسلمين ، بإقامة شعائر دينهم في البقية الباقية منها ، إنما لا يقع ذلك — واقتبها جيداً لهذا — إلا بواسطة موظفيها ، ورجالها ، ومن ينتدبهم الاستعمار للقيام بها .

فرجال الإفتاء ، وأئمة المساجد ، وسدنتها ، وقراء القرآن فيها ، ومؤذونها ، كل أولئك من الموظفين الذين يتقاضون أجورهم من الخزينة الفرنسية ، ولا يتسلمون وظائفهم إلا متى قدموا للاستعمار ما يوجب رضاه ، ولا يبقون بها إلا ماداموا عاملين على مرضاته .

قال أحد أكبر موظفي الولاية العامة الجزائرية ، وهو مسيو برك في مقال نشر بعد موته ما نصه :

« لقد وصل بنا امتحان واحتقار الدين الإسلامي ، إلى درجة أننا أصبحنا لانسمح بتسمية المفتي أو الامام ، إلا من بين الذين اجتازوا سائر درجات التجسس ، ولا يمكن لموظف ديني أن ينال أى رقي ، إلا إذا ما أظهر للأدارة الفرنسية أخلاصاً منقطع النظير . »

وأرى أن كل كلمة تضاف على هذه الجملة التصويرية البليغة ، إنما تنقص من قيمتها . ولقد طالب المسلمون جميعاً ، وعلى رأسهم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تنفيذ نفس القوانين الفرنسية ، مثل قانون ١٩٠٥ الذى يقتضى فصل الدين عن الدولة ، وقيام كل طائفة دينية بأمر دينها باستقلال . لكن ، بينما يستغل النصارى واليهود بأمر دينهم منذ ذلك العهد ، رأينا الاستعمار

الفرنسي يرفض رفضا باتا ، إلى يوم إعلان الثورة ، ورغم كل القوانين والوعود ، ارجاع الدين الإسلامي ، بمساجده وأوقافه وموظفيه إلى جماعة المسلمين ، حتى اضطير المسلمون لمقاطعة المساجد الحكومية الفرنسية ، وأخذوا يؤسسون لأنفسهم مساجد « حرة » قامت الامة بنفقات بنائها الضخمة ، وهي تتمتعها وترعاها ، بما يجب لمساجد الإسلام من رعاية واحترام ، ومنها مساجد نفمة ، تمتد من تحف الفن الممارى الإسلامى ، وبلغت تكاليف بعضها نحو ٥٠ مليون فرنكا (٥٠ ألف جنيه) .

وهكذا قاومت الامة الاستعمار فى المضمار العالمى ، وفى الميدان الدينى ، كما قاومته فى حلبة السياسة . إلى أن وقعت الثورة الكبرى ، التى سيحق الله بها الحق ، ويبطل بها الباطل ، أن الباطل كان زهوقا .

المعجزة النفسية :

لو أن مجموعة هذه المصائب السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية ، والدينية ، كانت قد أصابت أمة أخرى من أمم العالم ، لأحدثت فيها دون ريب ما يسمى فى علم الاجتماع بمقدمة النقص ، ولرمت بها بين احضان اليأس والموت .

إسكن كل هذه المصائب مجتمعة لم تستطع أن تقتلع من هذه الأمة الجزائرية الأبية ، ما عندها من « مركَّب الكمال » فالجزائرى الجائع ، المريض ، البطل ، المعترى ، الأثمى ، الذى لا يرى أمام وجهه بابا من ابواب الأمل ،

والذى لا يجابهه فى حياته إلا الأعداء الذين يريدون موته ومحقه وافناءه ، ذلك
الجزائرى لم ييأس يوما ، ولم يضعف يوما ، ولم يضع أنفه فى الرغام يوما ،
بل تعتقد العامة منه كما تعتقد الخاصة ، أنه إنما يقاسى محنة عارضة ، وأن
هذا الظلم العارم المنصب عليه ماهو إلا سحابة صيف ، وأن له مستقبلا
زاهرا ، يعيد فيه مجد اسلافه ، ويحيا من جديد فى ارضه حرا عزيزا سعيدا .
فالجزائرى فقد كل شىء ، إلا الأمل ، وانتزع منه كل شىء ، إلا الايمان ،
وحطمت كل قواه ، إلا قوة النفس .

وهذا مثل تضربه الجزائر ، فى العزيمة والصبر والجلد وطول الاناة ،
وقد برهنت بثورتها الأخيرة الجامعة على أنها تمهل الظالم ، حتى إذا أخذته
لم تفلته .

المقاومة

المقاومة الحربية

يقول قائل : وكيف كان موقف الأمة الجزائرية ، الأبية ، تجاه هذا مدوان الصارخ ، وأمام هذه المنكرات الاستعمارية التي لم يسجل لها تاريخ مثيلا ؟ وهل سلمت الأمة طوعا أعناقها لجلاديه ، وهل استكانت ذلت ، فلم تبد مقاومة لما كانوا يعملون ؟ .

كلا ! إن المقاومة الجزائرية الصلبة العنيفة قد استقرت في كل ميدان ، منذ سقوط السيف من يدها وهي مشخنة بالجراح ، فكانت مقاومتها مستمرة تكتسى مرة صبغة الثورة المساحة العنيفة ، وتكسى مرة أخرى صبغة الكفاح السياسي المرير .

الزعاطشة :

فما لأحد أن ينسى مثلا تلك المقاومة الصارمة التي وقعت ببلاد الجنوب الجزائري ، وخاصة بواحة « الزعاطشة » الشهيرة ، التي هبت للدفاع عن كرامة والحياة الحرة ، تحت قيادة الزعيم الشهيد الأبر ، السيد أبو زان ، سنة ١٨٥٢ .

فهاجمت القوى الفرنسية تلك الجهة الزاخرة بالحياة ، واستمرت الحرب بين الجانبين أمداً طويلاً ، إلى أن تغلبت الكثرة والأسلحة الحديثة ، على القلة والوسائل الضعيفة ، فأعمل الفرنسيون السيف في رقاب أهل الواحة وما حولها وذبحوا كل ذى كبد حراء فيها ، إنساناً كان أو حيواناً ، ولم يرحموا طفلاً ولم يشفقوا على امرأة أو شيخ ، فلما انقضى أمر السكان جميعاً ، حول الفرنسيون نقماتهم إلى المساكن والديار ، والأشجار ، فأعدموها تماماً ، ولم يبقوا بالواحة حجراً على حجر ، ثم هم لم يسمحوا من بعد أن تقا في هاتيك الجهة واحة أخرى على أنقاض الواحة القديمة .

ولذكري هذا النصر العظيم ، نصر الجسة والدناءة والندالة ، اطلقوا اسم هذه الواحة الشهيرة على طريق من طرقات الجزائر العاصمة . أم الزعيم أبو زيان فقد أعدموه رمياً بالرصاص .

وفي نفس تلك السنة ، أعلنت مدينة الأغواط في الجنوب الجزائري المقاومة لما يراد بها ، فسارت إليها الفرق الفرنسية بمدافعها ، وأصلتم نيراناً حامية ، ثم هاجمتها وفعلت بها الأفاعيل ، فمات أكثر سكانها تحت حد السيف وبين السنة اللهب ، وخرب أكثر عمرانها ، لكنها تمكنت فيما بعد من تضميد جراحها شيئاً فشيئاً .

أولاد سيري السبخ :

وما رضح العربي يوماً لضيم ، وما استسلم المسلم يوماً لمذلة وهوان

ورغم أن حوادث الزعاطشة ، والأغواط ، قد سارت بذكرها
الركبان ، وأدبت قلوب القاصي والدان ، فإن الجزائريين الميامين قد صمموا
على الانتفاض والثورة ، ما وجدوا للانتفاض والثورة سبيلاً . ففي سنة ١٨٦٤ ،
نادى بالجهاد بطل من أبطال الجنوب الغربي ، الباش أغا سليمان بن حمزة بن
بوبكر ، والنفث حوله قبائل « أولاد سيدي الشيخ » وأصلوا الفرنسيين
نيراناً حامية ، فارتدوا على أعقابهم ، ثم أعادوا الكرة تحت قيادة
الـكـولونيل بوبيريتي ، وكان من بينهم جماعة من « القوم » أي الجند
العربي المتطوع مع فرنسا ، وما كادت المعركة تلهب وتشتد ، ويستبسل
العرب الأبحاد في ميدان العزة والشرف ، حتى أخذت الحمية ، حمية الإسلام
لاحمية الجاهلية ، جماعة « القوم » فانتفضوا على الفرنسيين ، وانضموا
للمجاهدين ، وكانت نتيجة المعركة موت سائر رجال الفرقة الفرنسية المعتدية ،
بما فيها من الكولونيل قائدها . وقد تمكن البطل سليمان بن حمزة من قتله
بينه أثناء المعركة ، ثم استشهد بعد ذلك خلالها رحمه الله .

واستمرت الحرب بعد ذلك النصر العظيم ، وانتشرت في الجبال الجنوبية
كلها ، ودامت خمسة أعوام كاملة . إلى أن جردت عليها فرنسا جنداً عرمرماً
زودته بسلاح فتاك ، وتواتت الوقائع ، وتتابعت أعمال الفرنسيين التـكـيـلـية
الـفـظـيـعة ، إلى أن تمكنوا من التغلب على تلك الثورة في آخر معقل من
معاقلها الذي كان جبال عمور ، سنة ١٨٦٩ .

ثورة المجرمجة :

ما كادت فرنسا تنهار ، في مذلة وصغار ، أمام الجند الألماني سنة ١٨٧١ حتى هبت جبال المجرمجة الأبية ، معقل الهمة والشرف ، ترفع لواء الثورة القومية الكبرى ، سميا وراء التخلص من الاحتلال ، وارجاع عهد الاستقلال .

ولقد تولى كبر الثورة الباش آغا السيد الحاج محمد المقراني ، وشد أزره وأعانه على جمع المسلمين تحت راية الجهاد ، الشيخ محمد بن الحداد ، وسارت جموع الثائرين تحطم مراكز الاستعمار الفرنسي ، في الجهات الشاسعة الممتدة من بجاية على ساحل البحر شمالا ، إلى برج بوعريج جنوبا ، ثم إلى ضواحي مدينة الجزائر غربا . وأخذت الثورة تنتظم ، وأمرها يشتد ، ودعوتها تنتشر ، إلى أن تمكنت فرنسا من استرجاع جندھا الذي كان أسيرا في ألمانيا ، فوجهته ضد الفرق الوطنية الثائرة . عندئذ وقعت معركة البويرة التي اندحر فيها الوطنيون بعد ثبات عجيب ، واستشهد فيها زعيم الثورة الوطنية الحاج محمد المقراني رحمه الله .

إنما المجاهدون لم يلقوا السلاح بعد هذا الانكسار ، فانسحبوا إلى جبالهم المنيعه ، وتحصنوا فيها . لكن الجند الفرنسي أظهر أمامهم من شدة المراس ما لم يبذل بعضه أمام الألمانين ، وأخذ في ارتكاب أعمال الخسة والحقارة ، من ذبح الجماعات البريئة ، وهتك الأعراض بصفة فاضحة دنيئة ، ومحطيم القرى واتلاف المزارع ، وأعدام الأقوات والمدخرات ، فمن لم يمت



(شكل ٢٩) المجاهد محمد المقراني

محمد السيف ، مات جوعاً ، أو تحت وقع الفضيحة ، في بلاد تتخذ من الشرف الإنساني مثلاً الأعلى في الحياة . .

وهكذا استمرت الممارك ستة أشهر أخرى ، إلى أن احتل الاستعماريون الطغاة تلك الماقل الطبيعية جيلاً جديلاً ، واستولوا على مداشرها قرية قرية ، فأسفرت تلك الممارك العنيفة عن استشهاد ما يزيد عن الستين ألفاً من الأحرار الأبرار ، وموت ما يزيد عن العشرين ألفاً من جنود الاستعمار .

ولقد قضى الاستعمار على ذلك الجبل الأشم ، جبل زواوة ، بالموت السريع ، إذ غرم أهله ، ٣٦ مليون فرنك ذهباً ، وحجز كامل الأرض الفلاحية (٥٠٠ ألف هكتار) ووزعها على المستعمرين . ثم أصدر أحكام الأعدام ، على كل من شارك في الثورة أو كانت له يد فيها . أما زعيم الثورة الذي خلف الشهيد المقراني ، وهو السيد أبو مزراق ، والشيخ محمد بن الحداد ، وولده الشيخان محمد وعزيز ، وخمسمائة من وجوه القوم وكبراء البلاد ، فقد حكم عليهم بالأشغال المؤبدة وسارت بهم السفن إلى كاليدونيا الجديدة في المحيط الهادي ، حيث ماتوا رحمهم الله موت الأباء والشرف .

البدوي :

في نفس مدينة الجزائر ، وفي الجهات الممتدة غربها إلى بلدة شرشال ، قامت الثورة كذلك ، في تلك الآونة ، إلا أنها لم تكن عنيفة قاسية ، وأعلن أحد رجال الماصمة المعدودين السيد محمد البدوي ، في ساحة

الحكومة استقلال البلاد . وأخذ ومن معه يحاولون تنظيم الإدارة المستقلة الجديدة ، لكن الحركة أخفقت ، وأرسل الفرنسيون السيد البدوي إلى السجن المضيق يقضى به سبعة أعوام .

أوراس :

لم يستطع الأوراسيون الأحرار صبرا على احتلال الاستعمار الفرنسي لجبالهم الآهلة المنيمة ، وقراهم الجميلة ، فأعلنوا الثورة والانتفاض المار العديدة ، وأهمها ثورة سنة ١٨٥٣ الكبرى ، وأرسلوا زهرة شبابهم وخير رجالهم ، يحاربون الفرنسيين ويحاولون إبعادهم عن الديار . فكانت الحرب سجالا ، وكانت الوقائع متوالية ، فما انتصر الفرنسيون مرة إلا أعاد الأوراسيون الأحرار الثورة مرة أخرى . إلى أن كانت الثورة الكبرى سنة ١٩٥٤ . فنحن نستطيع القول بأن الأوراس هو الجبل الذي لم يخضع أبدا .

المقاومة السياسية في دورها الأول

اتخذت المقاومة الجزائرية السياسية أشكالا مختلفة ، منذ توطد قدم الاحتلال بالبلاد الساحلية إلى قيام الثورة الكبرى .

الهجرة :

كانت المظاهرات الأولى التي وقعت بعد إخفاق الثورات الكبرى ،

هى الهجرة الجزائرية للبلاد الإسلامية الحرة . فما كادت جموع الجزائريين
تعتقد أنه قد حكم عليها بالحياة الشقية الذليلة تحت نير الاستعمار الفرنسى
الفظيع ، حتى أخذت تغادر البلاد جماعات وآحادا فصار بعضها إلى تونس
الخضراء ، وسار بعضها الآخر إلى الإسكندرية ، وبلاد الشام ، حيث
قبلوا أحسن قبول على الرحب والسعة ، ووجدوا أن أخوة الإسلام ليست
مجرد كلمة تقال .

ولا يزال أبناء هؤلاء المهاجرين يعمرون تلك الجهات كمواطنين
صالحين . ثم أن فرنسا أعلنت سنة ١٩١٢ قانون التجنيد الإجبارى
للمسلمين ، فازدادت هجرة الجزائريين إلى البلاد الإسلامية الأخرى ،
كيلا يعملوا تحت الراية التى قاوموها عشرات السنين .

أول مقاومة قلمية :

ولا يسعنا إلا أن نسجل بمداد الشرف ، على صفحات التاريخ الجزائرى ،
إسم الأستاذ الشهم الكريم ، السيد محمدان عثمان خوجة ، فلقد كان أول
جزائرى رفع عقيرته بالاحتجاج الصارخ ، منذ فجر الاحتلال البغيض .
فقد بعث به أهل مدينة الجزائر سنة ١٨٣٢ على رأس وفد يطالب حكومة
فرنسا بالإقلاع عن مظالمها وآثامها ، وإرجاع ممتلكات المسلمين إليهم ،
والاعتراف لهم بحق الحياة .

وقد ترك لنا هذا الشهم الكريم وثيقة من أغرب وأثرى وثائق

التاريخ الجزائري الحديث ، إذ ألف كتابا ضخما أسماه « مرآة الأحوال » نقله إلى الفرنسية أحد مهرة اللبنايين ، وطبع في مجلد ضخيم سنة ١٨٨٣ بمدينة باريس . ومما امتاز به هذا السفر الجليل :

أولا : اثباته إن عدد سكان القطر الجزائري كان عند الاحتلال عشرة ملايين من النفوس (والسيد حمدان كان المدير الثاني لمصلحة الضرائب في الحكومة الوطنية الجزائرية) .

ثانياً : أنه سجل أعمال اللصوصية والنهب التي قام بها الجند الفرنسي ، وصور أبشع صورة تلك المنكرات التي فعلها الأذنياء دون حياء أو رادع ، وأثبت بوثيقة فرنسية على يد محضر فرنسي ، أن الفرنسيين كانوا يسرقون عظام موتى المسلمين من المقابر الإسلامية ، ويرسلون بها ضمن عظام الحيوانات لمعامل تكرير السكر بمرسيليا .

ثالثاً : بيانه عن الأملاك والأرزاق المصادرة ، والمظالم التي ارتكبتها الطغاة أثناء الاحتلال . وحكاية مارآم المؤلف منها رأى العين .

وقد رجع السيد حمدان للجزائر خائباً ، بعد المجهود الضخم الذي بذله ، ولم يرجع الاستعمار عن غيه ، بل زاد في طغيانه ، وبقى كتاب « المرأة » في الخزائن العامة ، يشهد على الاستعمار ، بالخزي والعار .

الصفحة الأولى :

كانت فرنسا قد أوجدت في البلاد مجلس النيابات المالية عام ١٩٠١ ،

فاعترفت للجزائر (الفرنسية) بمبدأ الاستقلال المالى ، وكان ذلك المجلس يشمل الثلثين من الفرنسيين ، مقابل الثلث من الجزائريين ، الذين تتدخل الحكومة فى انتخابهم تدخلا فاضحا .

لكن النهضة التركية ، والانقلاب العثمانى ، قد أحدثا تغييرا فى حالة البلاد المعنوية . وكان المدوان الطليانى على ولايتى طراباس وبرقة ضعفا على إباله ، فأخذ المسلمون يتململون ويتذمرون ، ونشأت فى البلاد صحافة ضعيفة أخذت تعبر عن استياء الرأى العام الإسلامى من حالته الوضيعة .

وكانت البلاد تقاسى الأمرين من قانون الانديجينا « التديجين » الذى تنصب نغمته على المسلمين خاصة ، فمن لم يدفع منهم الضريبة يسجن ، ومن سكن فى جهة نائية يسجن ويحطم بيته ، ومن اجتمع مع إخوانه فكانوا فوق الخمسة عوقب بتهمة عقد اجتماع دون ترخيص ، ولا يسوغ للجزائرى أن ينتقل من بلدة إلى بلدة أخرى ، ولو كانت مجاورة له ، إلا بإذن خاص . أما القبائل الجزائرية كلها ، فى السهول وفى الجبال ، فقد كانت خاضعة لأحكام . « الضمان الجماعى » بحيث أن احترق غاب ، أو وقعت جناية ، فسائر أهل القبيلة مشتركون فى المسؤولية ، وهكذا .

فلاساتذة الرحومون ، أحمد بن اسماعيل بوضربة ، والحاج عمار . والصادق دندان ، قد قاموا منذ سنة ١٩١٠ بتأسيس صحف وطنية ، تكتب باللسان الفرنسى ، وتدافع عن حقوق ورغائب المسلمين ، مثل صحيفة الهلال وصحيفة الرشيدى وغيرهما ، وأحدثت هذه الصحف رجة

عنيفة في الافكار ، وأخذت المقاومة السياسية تشتد وتتصاب ، وأخذ الشبان المثقفون ثقافة فرنسية يشاركون فيها ، ويتقدمون إلى الامام .

الحرب الكبرى

جندت فرنسا من مسلمي الجزائر لمحاربة ألمانيا مايزيد عن الاربعمائة ألف رجل ، مات منهم في ميدان الحرب مايزيد عن الثمانين ألفا .

وزيادة على ذلك العدد ، فقد جهزت فرنسا ثمانين ألفا من الجزائريين يعملون في المعامل الحربية الفرنسية ، وفي المعامل المدنية .

وإذ كان الجزائريون يقومون بذلك المجهود الحربي العظيم — إجباريا — ، كانت النخبة منهم تطالب برفع المظالم ، وبالتسوية في الحقوق ، وتندد بمساوىء النظام الاستعماري ، واشتهر من تلك الطبقة أمثال المرحومين : عمر بوضربة ، وعباس حماني ، الذي اغتاله الاستعمار غدرا ، ومحمد ابن رحال ، وإضرابهم ، ثم أصبحت القضية منتشرة في فرنسا ، وقد تولى فيها النضال عن حقوق المسلمين رجال من أمثال المأسوف عليهما ، جون جوريس الزعيم الاشتراكي الكبير ، والبان روزي ، وغيرها .

نالت الأمة الجزائرية مقابل كل جهودها ، ونضالها وعدا .. ينفذ بعد الحرب . على أن جبال أوراس لم تقنع بهذه المطالب وهذه الوعود ، فامتنعت عن تسليم أبنائها للجنودية الفرنسية ، ونطق البارود من جديد بين الجانبين ، (م — ١١ هذه هي الجزائر)

بينما التجأ ما يزيد عن المائة ألف من شبان المسلمين إلى الغابات والجبال فرارا من العمل تحت راية فرنسا الاستعمارية .

المقاومة السياسية في دورها الثاني

قوانين ٤ فيفري سنة ١٩١٩ :

انتهت الحرب الكبرى ، ورأت فرنسا أن لا بد من عمل شيء للجزائريين ، من قبيل ذر الرماد في العيون على الأقل ، فأصدرت قوانين ٤ فيفري ، تلغى بها أكثر قوانين الأنديجينا السالفة الذكر ، وتسوى فيها بين سائر السكان من حيث الضرائب ، حيث كان الجزائريون يدفعون أكثر من الأوربيين ، وكانت عليهم إلى جانب ذلك ضرائب خاصة بهم . أما من ناحية الحقوق السياسية فقد اكتفت قوانين ٤ فيفري بزيادة عدد الناخبين الجزائريين ، بعد ما كانوا في دائرة خاصة ضيقة ، لا يشارك فيها إلا التجار وأصحاب الأملاك ، وخيبت هذه « الإصلاحات » آمال الجميع .

الأمير خالد الرهاسمى :

ولأول مرة في تاريخ الجزائر الحديث ، رأت الأمة زعيما سياسيا مقداما جريثا ، هو الأمير خالد بن محي الدين بن الأمير عبد القادر الجزائري رحمه الله ، فقد كان هذا الأمير عمل برتبة ضابط كبير في الجندية الفرنسية ، وشارك الفرنسيين حروبهم وآلامهم ، فما انتهت الحرب حتى شكل وفدا

لم ساحة فرساي ، حيث كان الرئيس الأميركي ولسون يحاول عبثا فرض بنوده التي نادى بها زمن الحرب، ومنهاجرية سائر الأمم في تقرير مصيرها. لكن سرعان ما علم الجزائريون - كما علم التونسيون - أن تلك المبادئ ما كانت في نظر الأوروبيين إلا خديعة حرب لا غير ، وأن المنتصر الحقيقي في الحرب العظمى الأولى إنما هو الاستعمار والطغيان الأوروبي ، فرجع الوفد الجزائري ، خائبا ، وجمع الأمير خالد هيئة سياسية أسماها « وحدة النواب المسلمين » وأسس لها صحيفة حرة اللهجة دعاها « الإقدام » فكان ينادى بوجوب « اصلاح » الحالة في قطر الجزائر على قاعدة تسوية الجزائريين بالفرنسيين في كل شيء ، ودخول الجزائريين لمجلس النواب الفرنسي ، وإلغاء سائر الأحكام الاستثنائية . والتف المسلمون حول الأمير خالد ورأوا فيه خير خلف لخير سلف. ثم أخذت الأيام تبدى من شدة شكينة الجزائريين ، ومن صلابتهم في الحق ، ما طال عليه عهد المستعمرين ، فتألبوا وتكالبوا ، وقاموا في البلاد الجزائرية وفي البلاد الفرنسية بحملات شعواء على المسلمين ، ووقفوا صفقا متينا ضد الحقوق التي يطالبونها ، واشتد ضغط المستعمرين للدرجة أن رأت فرنسا نفسها مضطرة لإرجاع قوانين الانديجيا من جديد ، وأخرجت الأمير خالد من أرض الجزائر . لكن السنة الالهيب كانت قد ارتفعت عالية ، فم تخمد بعدها أبدا .

واستمر الجزائريون يطالبون بواسطة النواب وبواسطة الوفود ، بتحقيق برنامج الأمير خالد الذي أصبح هاتيك الاثناء ، وإلى ساعة قيام الحركات الوطنية الكبرى ، ميثاقا قوميا جزائريا ، لا تقوم حركة إلا على أساسه .

نجم شمال إفريقيا :

رأت سنة ١٩٢٦ حادثين عظيمين ، كان لهما التأثير الأكبر على مستقبل القطر الجزائري : أولهما تأسيس جمعية نجم شمال إفريقيا في باريس ، وثانيهما ، تأسيس « نادى الترقى » بعاصمة الجزائر .

أما جمعية نجم شمال إفريقيا ، فقد ساهم في تأسيسها ثم ترأسها السيد الأستاذ أحمد الحاج مصالى ، وأزرتة جماعة من الشبان الأحرار الجزائريين والراكشين والتونسيين ونادت هذه الجمعية بمبدأ التحرير التام من الاستعمار الفرنسى ، وأعلنت حق شعوب المغرب العربى فى الاستقلال والحرية . ومنذ ذلك التاريخ ، لم تزد دعوة الاستقلال إلا انتشارا وذبوعا ، حتى أصبحت العقيدة المملنة للشعب ، وحتى أدت إلى الثورة الكبرى الحالية .

ورغم الاضطهاد العظيم الذى لقيته « جمعية نجم شمال إفريقيا » فقد تمكنت من الحياة والاستمرار على كفاحها طوال ١٢ سنة ، فما حلتها الحكومة إلا سنة ١٩٣٧ يوم ٢٩ مارس .

وكانت جمعية نجم شمال إفريقيا التى التف حولها أكثر العمال المسلمين الجزائريين بفرنسا ، تنادى بوجوب انتخاب برلمان قومى جزائرى ، وجعل الوظيفة العامة فى القطر الجزائرى مفتوحة أمام الجزائريين ، والاستقلال الكامل للبلاد الجزائرية ، وارجاع الأرض المقتصبة إلى الجزائريين ، ثم انسحاب جيش الاحتلال من القطر الجزائرى .

تلك هى الصرخة التى دوت فلم تخمد ، وذلك هو المشعل الذى ارتفع فلم يهدم .

نادى الترقى :

لم يكن الجزائريون يعرفون الاجتماعات منذ الاحتلال الفرنسى ، وكانت
قوانين الانديجينات تحرم الاجتماعات كما أسلفنا ، فكانت كل الحركات
الجزائرية تنسب بقلة النظام — داخل القطر الجزائرى — إلى أن وفقنا الله
لوضع معقل بعاصمة القطر الجزائرى ، كان له تأثيره العظيم على الحياتين السياسية
والاجتماعية ، وذلك هو « نادى الترقى » الذى تمكنا من تأسيسه بعد
جهود عظيمة ، فى أحسن موقع من عاصمة الجزائر . فكانت قاعاته الفسيحة
تجمع النخبة المفكرة كلها ، سواء بالعاصمة أو بداخل البلاد ، وكانت
المحاضرات والمسامرات والحفلات الكبرى تتوالى فيه ، ويقبل الناس عليها
إقبالا عظيما . وكنا نسير بنادى الترقى — رغم القوانين الصارمة — فى
طريق الدعوة الملية الوطنية من جهة ، وفى طريق الدعوة الإسلامية
والمروية الشاملة من جهة أخرى . وقاوم النادى نزعات الاندماج كما قاوم
طلاب الجنسية الفرنسية قصد الاحراز على الحقوق السياسية . وفى هذا النادى
البارك ، تمكنا من تحقيق الحلم الذى كان يراود دعاة النهضة العربية
الإسلامية ، إلا وهو تأسيس هيئة إسلامية عربية ، تنهض بالبلاد نهضة
جبارة ، داخل عروبتها وقوميتها وإسلامها ، فكانت « جمعية العلماء
المسلمين الجزائريين » .

الاحتفال المئوي :

ولقد أعاننا على عملنا ، ومهد لنا السبيل ، تلك الأعياد الهوجاء التي أقامها الاستعمار سنة ١٩٣٠ ، احتفالا بمرور مائة عام على احتلال القطر الجزائري . فلم يبق هنالك من جزائري ، إلا وأحس بفتح ذلك الجرح الدامي من جديد ، وتذكر تلك المآسي والموبقات التي ارتكبت منذ فجر الاحتلال إلى يوم الاحتفال ، ورأى رأى العين كيف يحتفل المستعمرون بذكرى إنكسار الجزائريين ، وكيف كانوا ينادون بأن الجزائر فرنسية ، وستبقى فرنسية إلى الأبد ! ، وكيف كانوا يتفنونون في ابتكار أساليب الثلب والشتم لتاريخنا ، ولرجالنا ، ولماضيها ، ولديننا ، وللغة .

إن احتفال الفرنسيين بمرور قرن على احتلالهم أرض الجزائر ، قد قدم القضية الجزائرية عشرين سنة على الأقل .

جمعية العلماء :

كنت أنادي في نادي الترقى ، وفي غيره ، أثناء كل خطاب : الإسلام ديننا ، الجزائر وطننا ، العربية لغتنا ! واتخذنا من هذه القاعدة أساساً لمقاومة الاتجاه الفرنسي ، داخل البلاد ، كما كانت جمعية نجم شمال افريقيا ، تقاوم ذلك الاتجاه في الخارج .

ولم نكن إلا أربعة رجال عند ما أخذنا في ركن من أركان النادي ، نضع الأسس لتكوين «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» . وشاءت إرادة

الله أن تنجح الدعوة نجاحاً منقطع النظير ، فأقدم علماء المسلمين من كل جهات البلاد رغم التهديد والوعيد يؤسسون في يوم مشهود هذه الجمعية التي تمكنت من بعث العروبة والإسلام في قطر أراد له الاستعمار ، التفرانس والمسخ ، وانتخبت رئيساً لها علامة القطر الشيخ عبد الحميد بن باديس ، وكان صاحب دروس في قسطنطينة ، وكان قائماً بدعوة إصلاحية دينية عظيمة ، وكان يصدر مجلة الشهاب ، بعد أن أصدر جريدة « المنتقد » .

واقترحت جمعية العلماء ميدان حرب محفوف بالمزالق والأخطار . فخاربت أول ما حاربت أنصار الأستعمار ، ثم قاومت وحطمت البدع والضلالات الدينية التي استغلها الأستعمار تحت ستار الطرقية ، حتى تمكنت من تطهير الدين وأرجعته لتعاليمه الطاهرة الأولى .

ثم أخذت في الحملة التعليمية العربية الإسلامية الكبرى ، فوفقها الله إلى تكوين ذلك الجيل الصالح الذي أخرجته مدارسها ، والذي هو اليوم قوة العروبة والإسلام في البلاد (انظر الفصل السابع) وامتدت فروعها في كل جهات القطر ، ورسخت جذورها رسوخاً متيناً .

على أن الجمعية قد شاركت إلى جانب أعمالها الإسلامية العربية ، في أكثر الأعمال السياسية ، سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة ، لتحفظ لكل تلك الأعمال السياسية طابعها العربي الإسلامي ، ولتوجه السياسة توجيهاً عربياً إسلامياً ويرأس الجمعية اليوم العلامة المجاهد الشيخ محمد البشير الأبراهيمي .

وحدة النواب :

وأعاد النواب المسلمون الجزائريون تشكيل وحدة النواب التي كان قد ابتكرها الأمير خالد رحمه الله ، فعادت إلى الظهور تحت رئاسة الدكتور ابن جلول ، وأخذت تشن الغارة الشمواء على المظالم الاجتماعية ، والاجحاف السياسي ، وسيرت الوفود العديدة إلى باريس للمطالبة بالحقوق وإخراج الحكومة ، وشدت الأمة أزر الوحدة بصفة فعالة .

فكان من نتائج الأعمال الذي سبق ذكرها ، والنهضة الجديدة التي ظهرت في الأمة ، والتسكتل الشعبي حول المطالبة بالحق ، أن عمدت فرنسا من جديد لسياسة الإرهاب ، وخنق الحريات ، فأصدرت قراراً (قرار روني وزير الداخلية) يلحق صارم العقوبات بكل من يتهم بمحاولة النيل من النفوذ الفرنسي ، وهكذا ما ازدادت الأمة نهضة ، إلا ازدادت الحكومة عتوا .

وكان الأستاذ عباس فرحات ، من أنشط عناصر وحدة النواب .

حزب الشعب الجزائري :

في اليوم الحادي عشر من شهر مارس سنة ١٩٣٧ ، أعلن السيد مصالي الحاج أحمد ، تأسيس « حزب الشعب الجزائري » بدلا عن جمعية نجم شمال افريقيا التي حلها الاستعمار . فكان هذا الحادث من أعظم حوادث التاريخ الجزائري الحديث ، وطبع حزب الشعب الجزائري بطابعه

الاستقلالى الثوروى كامل السياسة الجزائرية ، منذ تأسيسه إلى ما بعد حله ، واستجاب الشعب لنداء هذا الحزب ، استجابة منقطعة النظير . وكان جواب الحكومة الفرنسية على إعلان هذا الحزب ، أن ألقت القبض على الزعيم أحمد مصالى وبعض رجال الحزب ، وقضت بسجنهم سنتين ، بدعوى أنهم أعادوا تنظيم مؤسسة حلها القانون (١٧ أوت ١٩٣٧) لكن حزب الشعب انطلق فى السماء كالشهاب الثاقب ، ولم ترده مظالم الاستعمار ولا مكائد الحكومة ، واستمر منتشرأ متغلغأ فى سائر أوساط الأمة .

برنامج فيوليت :

ما كادت تنتصر الجبهة الشعبية بفرنسا فى انتخابات سنة ١٩٣٦ ، حتى برزت فى العالم الجزائرى فكرتان :

فكرة أبدأها الوالى العام الأسبق ، موريس فيوليت ، وصادقه عليها زعيم الحكومة الاشتراكية ، ليون بلوم ، وهى تقضى باعطاء الحقوق الفرنسية لعدد كبير من المثقفين المسلمين ، كى يشاركوا مع نفس الفرنسيين فى انتخابات القسم الفرنسى بالمجالس النيابية . أما بقية المسلمين فتستقل بقسمها الثانى . على أن يكون المسلمون ممثلين بالمجالس النيابية الفرنسية . وقد كان الوالى العام فيوليت ، قد قاوم الاستعمارين الفرنسيين وقاوموه بصفة عنيفة ، إن أن تمكنوا من عزله عن الولاية العامة ، فأكد يستقر به المقام فى باريس حتى اخترع برنامجا هذا وألف كتابه الشهير « هل

تعميش الجزائر؟» فسدد به للاستعمار ونظمه ومظالمه ضربات فتاكة، وأظهر حقائق لم يكن يعرفها الناس، وكانت آراؤه وأفكاره — سواء في كتابه أو في مشروعه — تتلخص في الكلمة الآتية : إذا لم تنصف الجزائريين، ونسرع بإدخالهم ضمن العائلة الفرنسية، متساوين في الحقوق والواجبات، فإنهم سيندفعون في الميدان الاستقلالي التحرري، وعندئذ تخسر فرنسا أرض الجزائر نهائيا.

المؤتمر الإسلامي :

أما الفكرة الثانية، فكانت تنادي بجمع مؤتمر إسلامي جزائري عام يضم قادة الرأي في القطر الجزائري، لتقرير خطة موحدة جزائرية، تجمع فيها الأمة على رأي.

وتولى كبر الدعوة لـ دكتور ابن جلول، على أن يشمل المؤتمر : النواب، ورجال الفكر، وجماعة من العلماء، باسمهم الخاص ولا باسم جمعية العلماء.

واجتمع المؤتمر يوم ٧ يونية سنة ١٩٣٧، ولاحظ الناس أن رجال حزب الشعب الجزائري الجديد، أو رجال نجم شمال أفريقيا القديم، لم يحضروا ذلك المؤتمر، لأن دعوتهم الاستقلالية الانفصالية، كانت تتنافى مع المبادئ التي نادى بها فيوليت وبلوم، والتي ظهر أن المؤتمر قد انمقد على مقتضاها. أما العلماء الذين شاركوا، فقد أعلنوا أن مشاركتهم كانت للدفاع عن السكيان العربي الإسلامي، وادماج المطالب الدينية (فصل الدين عن

الحكومة الفرنسية) والعربية (تعليم اللغة العربية اجباريا في المدارس الحكومية ، وحرية التعليم العربى بالمدارس الخاصة) ضمن برامج المؤتمر . وأسفر المؤتمر عن مقررات لاتكاد تخرج من ناحيتها السياسية عن برامج فيوليت : الانتخاب العام فى صندوق واحد مشترك بين الجزائريين والفرنسيين ، والغاء قوانين الانديجينا بصفة نهائية ، والاعتراف بالعربية لغة رسمية بقطر الجزائر ، ومحافظة المسلمين ممن يدخلون ضمن الطبقات الفرنسية الانتخابية ، على حالتهم الشخصية الاسلامية ، فلا يعتبرون متجنسين ، وتمثيل المسلمين ببرلمان فرنسا .

وقد كانت جمعية العلماء قد أفتت بأن المسلم الذى يمتنع الجنسية الفرنسية بطل منه ، يعتبر مرتدا ، لأنه يقبل طوعا واختيارا الخروج عن أحكام الشريعة الاسلامية فيما يتعلق بحالته الشخصية (الزواج ، الطلاق ، الميراث) . فازداد فرار الناس من التجنس ، ولم يكونوا قد قبلوه يوما من الأيام .

وذهب وفد يمثل المؤتمر لدى حكومة باريس ، خلال ذلك الشهر . وتألب الفرنسيون الاستعماريون ضد هذه المطالب ، وحملوا عليها فى باريس . وفى الجزائر حملة شعواء ، إلى إن اخفق مشروع بلوم فيوليت أمام المجلس الفرنسى ، وخاب رجال المؤتمر فى أعمالهم ومساعدتهم ، وأيقن الكثير منهم يومئذ ، أن الطريق الوحيد الذى يجب على الأمة أن تسلكه ، إنما هو طريق الاستقلال الوطنى . فما عتمت فكرة المؤتمر أن تلاشت ، وأخذت

الفكرتان الأساسيتان الجزائريتان في النمو والانتشار : فكرة الشعب الاستقلالية ، وفكرة جمعية العلماء العربية الاسلامية .
الفكرتين واحد ، إلا وهو إنشاء المجتمع الجزائري الذي يسير نحو والاستقلال تحت راية العروبة والاسلام .

اضطهاد حزب الشعب :

أخذ الحزب ينظم صفوفه ، ويجمع حوله الرجال الأشداء الذين الاستقلال الوطني عقيدة لهم ، ومنهاجا لأعمالهم ، وأخذت الدعوة في البلاد ، والفروع تؤسس في كل جهة ، وكانت الحالة الأوربية مظلمة تحت تهديد هلتر ، ووعيده ، وريح الحرب تهب عاصفة ، بحية الجميع يعلمون أنها واقعة لا ريب فيها . لكن الفرنسيين بدل أن سياستهم أمام ذلك التهديد الخفيف ، ما أزدادوا إلا شدة وعنفاء ضد المسلمين : فأكاد رجال حزب الشعب يخرجون من السجن عام ٩ حتى أعيدوا إليه ، بتهمة تهيئة الثورة والتحريض على العصيان ، بالسيد مصالى ورفقائه في السجن يوم ٤ أكتوبر سنة ١٩٣٩ ، وحكم بالسجن ١٦ عاما مع الاشغال الشاقة ، والابعاد ٢٠ سنة بعد انتهاء السجن ، وتغريمهم مقدار ثلاثين مليوناً من الفرنكات ...

الحرب العظمى الثانية :

هكذا كانت الحالة السياسية ، عندما اشتعلت نيران الحرب العظمى :

ولا ينكر أحد أن كثيراً من المسلمين الجزائريين كانوا — رغم عاطفتهم الديمقراطية — يتمنون من صميم قوادهم انتصار ألمانيا ، لا حبا فيها ، ولا طمعا في خير ينجر من وراء انتصارها ، بل كانوا يريدون الانتقام من فرنسا المستعمرة ، والانتقام ليس إلا .

دخلت فرنسا الواهية ، المنحلة ، تلك العممة عن غير استعداد ، يقودها جماعة من المترفين ، بعضهم جاهل ، وبعضهم مغرور ، إلى أن ضرب هاتر ضربته الحاسمة ، فنكبهم شر نكبة ، وفرقهم أيدي سباً ، فلم تستطع تلك الدولة الفرنسية المتكاملة على الاستمرار ، الظالمة الجبارة ، أن تثبت بسلاحها ورجالها نصف شهر أمام الجحافل الألمانية ، فخرت صريعة ، وفقدت كل شيء حتى الشرف ، وما وسعها إلا أن استسلمت في مذلة وصغار . وذات كأس الاحتلال المرير الذي طالما جرعتة الشعوب ، وخاصة الشعب الجزائري .

ولقد كان الجزائريون يستعدون يومئذ لتصفية الحساب نهائيا مع فرنسا ، واستعمارها ، ومظالمها ، واحتلالها ، لولا تدخل الألمان من جهة وقد كانوا يقولون : انتظروا معاهدة السلام فستنصف كل أحد ، ولولا تدخل الدعاة الأميركيين الذين كانوا يقولون : لا تفعلوا شيئا وانتظروا الأميركيين فسيربحون الجولة الأخيرة ، وسينصفون كل أحد . وصدق بعض الجزائريين هؤلاء ، كما صدق بعض الجزائريين أولئك ، وباليتم لم يصدقوا أحداً من الجانبين . وبقي الجزائريون ينتظرون ماتأني به الأيام ، ولم يكن ذلك الانتظار من الصالح في شيء .

« أصحاب البيان والحرية » :

وقع ما كان منتظراً . ففي ٨ نوفمبر سنة ١٩٤٢ تمكن الأميركيون من احتلال الشمال الأفريقي ، وأبعدوه عن نفوذ حكومة فيشى السورية ، ونفوذ لجان الهدنة الألمانية الطليانية الفعلية . لكن وقع أيضاً ما لم يكن منتظراً . فإن الأميركيين اعتمدوا في حكم البلاد على الفرنسيين خاصة ، ولم يفكروا — رغم وعودهم القديمة — في إنصاف المسلمين أى إنصاف . وكانوا يقولون جهاراً : نحن جئنا لمحاربة المحور ، أما قضاياكم الخاصة فبينكم وبين الفرنسيين .

قلنا : — وماذا يكون موقفكم لو أننا أخذنا في تصفية حسابنا مع الفرنسيين الآن ؟ . فقال المتحدث الرسمي باسمهم : ان الفرنسيين في الشمال الأفريقي حلفاؤنا ، وأننا نسعى لاستمالة الفرنسيين في فرنسا ، فكل عمل يقع ضد الفرنسيين هنا إنما نعتبره موجهاً ضدنا ، ونقاومه إلى جانبهم بكل شدة .

وهكذا خاننا الألمانيون وخدعنا الأميركيون ، ولم يبق أمامنا من باب نظرقه إلا باب الأعمال السامية ، القليلة الجدوى ، في تلك الأوقات الحرجة . ففي ٣ فيفري سنة ١٩٤٣ ، اجتمع رجال من أحرار الجزائر ، فيهم من أنصار حزب الشعب ، ومن العلماء ، ومن النواب ، ومن المستقلين ، وتفاوضوا في مستقبل الأمة الجزائرية ، وفي خروجها نهائياً من المنطقة الاستعمارية إلى المنطقة المستقلة الحرة ، فقرروا تحرير « بيان » ينشرونه على

للأمة الجزائرية ، ويقدمونه للأمة الفرنسية ولرجال الدول المتحالفة ، وقد اتفقوا على النقط الرئيسية منه ، وكلفوا الأستاذ عباس فرحات بتحريره في صيغته النهائية ، فكان « البيان » يعلن :

أولاً : إفلاس الاستعمار في سياسته ، مع تفصيل مراحل الإفلاس .

ثانياً : ان الاستعمار قد حكم على الأمة الجزائرية بالفقر والجهل والتشرد ، وأبعداها عن كل ميادين الحياة ، وان الأمة لن تستطيع بعد اليوم صبراً على هذا النظام .

ثالثاً : أن المخرج الوحيد للأمة الجزائرية مما هي عليه من المهانة الاستعمارية ، إنما هو « إعلان الجمهورية الجزائرية المستقلة » مع ارتباطها بفرنسا ارتباطاً تماقدياً ، ومع احترامها لحقوق سائر السكان دون تمييز بين جنس ودين .

على أن تكون للجمهورية الجزائرية جنسيتها الخاصة ، وعلمها الخاص . وانضم أغلب الناس إلى هذا « البيان » وتوحد في هيئة أسمت نفسها « أحباب البيان والحرية » كل الرجال العاملين لخير الجزائر ، على قاعدة الاستقلال والتحرير ، وجأهروا بدعوتهم وتحمسوا لها وأستمدوا للتضحية في سبيلها .

جواب الحكومة :

أما الحكومة الفرنسية التي كانت تدعو نفسها حكومة « فرنسا

الحرية » ، والتي يرأسها الجنرال دي قول ، فقد هالها الأمر ، وعزمت على الشر ، وجاء ديقول بنفسه إلى مدينة قسطنطينة يعان برنامجاً هو أشبه بشيء برنامج فيوليت السالف الذكر ، ويعد المسلمين بمدد من « الإصلاحات » بصفتهم فرنسيين ، تعتبر بلادهم جزءاً من فرنسا إلى الأبد حسب الأنشودة العتيقة .

ثم نكلت برجال حزب البيان ، وألقت القبض على الأستاذ عباس فرحات وزجت به مع أحد رجال البيان في السجن ، وأرسلت بالأستاذ أحمد مصالى إلى المنفى في الصحراء ، بعد أن كانت أطلقت سراحه مع رفقائه من السجن ، ثم بعثت به إلى بلاد الكونغو بقلب إفريقيا ، يقاسى آلام المنفى .

٨ ماي سنة ١٩٤٥ :

كانت الأمة الجزائرية تغلي غلياناً أثر هذه الحوادث ، ينذر بانفجار شديد ، وكان الأستاذ عباس قد خرج من سجنه ، وعاد رجال « أحباب البيان والحرية » إلى العمل والاجتماع ، ومعالجة الموقف بما يجب ، والاستعداد لخوض معارك السياسة عند ما تضع الحرب أوزارها قريباً ، وقد كانت أشرفت على نهايتها .

وانتهت الحرب بعد قليل ، بانهزام ألمانيا ، تحت ضربات السلاح الأمريكي الفتاك . وشاء ربك أن تلعب فرنسا دور المنتصر الجبار مع

المتصرين ، بعد أن كانت تقف في مؤخرة المندحرين ، وصارت تلقب :
أكبر الدول الصغرى ، وصغيرة الدول الكبرى .

ففي يوم ٨ ماي سنة ١٩٤٥ احتفل العالم الغربي « الحر... » بمقدالهدنة
مع ألمانيا . وأراد الجزائريون أن يشاركوا في هذا الاحتفال ، وأن يتخذوا
منه وسيلة لظهار عواطفهم ، وبيان أهدافهم ، لكن الاستعمار كان قد هيا
برنامجا ، واختار مكان المعركة ، فما كادت مظاهرة سلمية تقع بمدينة سطيف
صبيحة ذلك اليوم ، حتى تحرش بها الفرنسيون بدعوى أن المتظاهرين كانوا
يرفعون علما جزائريا محجرا ، وقتل محافظ البوايس بيده ، غلاما مسلما كان
يرفع العلم . فكان ذلك الحادث ايذانا بالاندفاع في مذبحه من أفضع وأقذر
المذابح الاستعمارية في العالم . واجتمع على المسلمين في الجهة الممتدة بين
سطيف ، وخراطة ، وقالة ، رجال الجند الفرنسي بين مشاة وطيارين
وفرق مصفحة ، ورجال البحرية الفرنسية الذين كانوا مستعدين على
السواحل ، ورجال الجالية الأوربية الذين كانوا قد تسلحوا واستعدوا لذلك
اليوم الأحمر الرهيب .

وفتح الجميع موسم الصيد الأدمى ، وطورد المسلمون في المدن والقرى
والمدامر كما تطارد السباع في الغابات ، ودمت المذابح فدهيت ضحيتها القرى
العديدة ، لم ينج منها رجل ولا امرأة ولا صبي ، وكانت المصفحات
الفرنسية تسير صفا فتدمر القرى على رأس من فيها من رجال ونساء
وأطفال ، حتى تسوى بها وبما فيها الأرض ، فكانت الدماء تجري غزيرة
(م - ١٢ هذه هي الجزائر)

وقد صبغت الأرض بلونها الأحمر ، وبصفة ظاهرة أمكنت المصورين من أخذ مناظر لها من الطائرات .

وهنا لك قري أخرى ، دمرت بالطائرات تدميرا فلم يبق منها شيء .
أما بالمدن الكبيرة ، كسطيف ، وقالة ، فكان رجال « الميليشيا » من المتطوعين الأوربيين يهاجمون الديار ، ويقبضون على النخبة المثقفة الجزائرية ، وينهبون بها خارج المدينة ويأمرونها تحت تهديد الرشاشات بحفر القبور الجماعية ، ثم يقتلون الفوج أثر الفوج ، ويأمرون كل فوج بدفن الفوج السابق .

أما النساء فقد امتهن شر امتهان ، وانتهكت حرمتهن انتهاكا جديرا بأعمال وحوش الاحتلال الأولين ، وقطعت آذانهن من أجل الأقرط ، وايديهن من أجل الخواتم ، وأرجلهن من أجل الخلاخل ، وكان الجند يتباهى بتلك الغنائم ، ويتفاخر بالاحراز على أكبر عدد منها . . .

دامت المذبحة أياما وليالي سوداء . واسفرت عن مقتل ٤٥ ألفا من المسلمين واضمحلال قري كاملة وخراب جهات فسيحة ، وأعدام النخبة المفكرة في كامل الجهة . . . ولولا تدخل رجال من الأحرار اندفعوا ينصرون الحق ويندون بالمذبحة ، ولولا ضجة عالمية قامت ضد هذه الجريمة المنممة النظير ، لكان قد حل بالمسلمين سنة ١٩٤٥ ، ما هو واقع ببلادهم اليوم ، من جراء الثورة الكبرى .

بادرت الحكومة مع ذلك بحل جماعة « أحباب البيان والحرية » وألفت القبض على رئيسها الأستاذ عباس فرحات وانصاره ، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء والبارزين من أعضاء الجمعية ، وعدد كبير من الرجال الاحرار ، فيهم كل رجال حزب الشعب الجزائري الذين لم يكونوا في السجون أو في المعتقلات . فكان عدد المقبوض عليهم ٤٥٦٠ رجلا هم نخبة الأمة ومفكروها : وصدرت الأحكام على ١٣٠٠ رجل ، منهم ٩٩ حكما بالاعدام ، و ٦٤ بالاشغال المؤبدة ، و ٣٢٩ بالاشغال لوقت معين . والبقية بعدد من الأعوام سجنا .

أما من الناحية الأوربية ، فالسليوني تمكثوا من قتل ١٠٢ من الفرنسيين فقط ، ولم يستطيعوا أن يدافعوا عن أنفسهم ، أو يثأروا لموتهم وينتقموا لأعراضهم بأكثر من ذلك .

فحادثة يوم ٨ ماي الرهيبة ، كانت الاساس الأول الذي بنيت عليه قواعد الثورة الجزائرية الكبرى ، وغرست شجرة الحرية الباسقة ، في بركة من دماء الشهداء الابرار .

بقى قادة الأمة في السجن ، تحت خطر الموت الاجرائي ، إلى يوم ١٦ مارس سنة ١٩٤٦ ، حيث صد الأمر باطلاق سراحهم . وكانت الحكومة قد حلت جماعة أحباب البيان ، كما حلت حزب الشعب الجزائري . فقام الأستاذ عباس فرحات بتأسيس حزب جديد أسماه : حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري . أما رجال حزب الشعب ، فقد أسموا كذلك حزبا جديدا دعوه : حزب انتصار الحريات الديمقراطية .

واستمد الجميع لمعممة جديدة ، من ورائها الموت أو من ورائها الحياة .

الدستور الجزائري :

استمرت الحكومة الفرنسية تعالج الموقف معاملة الجاهل أو معاملة الأعمى . فبعد أن قدمت الامة جماعة من خير أبنائها لتمثيلها بالمجلس التأسيسي الفرنسي ، وبعد المناقشات الطويلة الصعبة التي اظهرت سوء نية الحكومة وسوء نية الأغلبية الفرنسية حيال قضية الجزائر ، انتهى الأمر بأن « منحت » فرنسا بلاد الجزائر قانونا أساسيا ، مشوها ، ابتز ، كان أبعد ما يمكن عن الحق وعن مبدأ الحرية ، وكان أبعد ما يمكن عن رغبة الامة ، نخابت الآمال مرة أخرى ، وما رأى شعب الجزائر من فرنسا ومن استعمارها إلا خيبة الأمل ، خلال قرن وربع قرن .

فالدستور الجزائري قد بنى على الأسس التالية :

- ١ — البلاد الجزائرية قطعة من الأرض الفرنسية : تتألف من ثلاث مقاطعات ، يتساوى سكانها في الحقوق والواجبات . جنسياتهم فرنسية .
- ٢ — المسلمون يحافظون على حالتهم الشخصية الإسلامية ، ولا يحول ذلك بينهم وبين الحقوق السياسية .
- ٣ — تتمتع أرض الجزائر ، تحت سلطة الوالى العام ، بنظام خاص تقتضيه طبيعة أرضها وحالة سكانها ، وهذا النظام يقتضى إنشاء « مجلس جزائرى » ينتخب الفرنسيون والمسلمون الذين يتشاركون معهم في

الانتخاب ، نصفه ، أى ، ٦٠ نائباً ، وينتخب المسلمون الذين لا يشاركون الفرنسيين — أى غير المثقفين أو الموظفين أو قدماء الجنود — نصفه الآخر ، أى ٦٠ نائباً ، وتكون الرئاسة مداولة بين القسمين كل سنة .

٤ — هذا المجلس الجزائرى مختص بدراسة ميزانية الجزائر ، وله حق ابتكار المشروعات التى تتعلق بحياة الجزائر الاقتصادية والاجتماعية ، لكن الميزانية الجزائرية لا توضع موضع التنفيذ إلا بعد مصادقة الحكومة الفرنسية عليها . وكذلك لا يمكن أن ينفذ أى قرار من قرارات المجلس الجزائرى إلا بعد مصادقة الحكومة الفرنسية .

٥ — القوانين الفرنسية كلها تنفذ على القطر الجزائرى ، إنما بعد أن يدرسها المجلس الجزائرى ويتخذ فى أمرها قراراً .

٦ — المسلمون الجزائريون يرسلون لساثر المجالس الفرنسية بباريس ، عدداً من النواب يتساوى مع عدد نواب الفرنسيين المستقرين بالجزائر .

٧ — تعتبر اللغة العربية لغة رسمية ثانية بأرض الجزائر ، وتدرس بساثر المدارس ، ويعتبر الدين الإسلامى مفصلاً عن الحكومة . وعلى المجلس الجزائرى أن يجد الطرق التى تنفذ هذين القاعدتين .

٨ — الوظائف العامة — مدنية وعسكرية — مفتوحة أمام سكان القطر الجزائرى على السواء .

٩ — إلغاء البلديات الممتزجة فى قطر الجزائر وإلغاء الحكم العسكرى ببلاد الجنوب .

١٠ - يتألف حول الوالى العام « مجلس الحكومة » وهو يتركب من ستة رجال : اثنين يعينهما الوالى العام ، واثنين ينتخبهما قسما المجلس ورئيس المجلس ، ونائب رئيسه . (٣ من المسلمين و ٣ من الأوربيين) وينظر هذا المجلس فى تنفيذ مقررات المجلس الجزائرى وما يتعلق به .
وهكذا شاء هذا الدستور أن تبقى الجزائر قطعة من فرنسا ، وأن تكون جنسية الجزائريين فرنسية ، وأن لا تملك الجزائر شيئاً من حقوق التشريع ، وأن يمثل ٦٠ نائباً التسعة ملايين . بينما يمثل ٦٠ نائباً كذلك المليون من الأوربيين ، وأن تبقى الجزائر دون حكومة ودون كيان دولى . فازداد ضغط الأزمة وأصبحت تنذر بانفجار العاصفة قريباً .

الفرنسيين والجزائريين

لكن الفرنسيين فى قطر الجزائر رأوا أن هذا الدستور « السخى » . يمكن أن ينتزع زمام السلطة من بين أيديهم ، ويمكن أن يستعمله الجزائريون لتوسيع نفوذهم أو الإفادة من نصوصه ، والوقوف الموقف الضارم على تنفيذها . فاخترعت الحكومة الفرنسية فى قطر الجزائرى ، بإعانة شيوخ المدن الإستعماريين ، وإعانة سائر رجال السلطة ، ما يدعى فى عالم السياسة الحديث : « الانتخابات الجزائرية » فشهدت البلاد من أصناف التدليس ، والسرقة ، واللصوصية الانتخابية ، ما نؤكد أنه لم يقع فى قطر آخر من أقطار العالم ، وفى أى زمن من الأزمان .

ذلك أن الحكومة ورجالها ، وأقطاب الاستعمار ، وأصحاب الامتيازات والإقطاعات ، رأوا أن الخطر كل الخطر يهددهم إذا ما هم تركوا الجزائريين أحراراً في انتخاب نوابهم ، لأن أولئك النواب لا يكونون إلا من رجال الحزبين الاستقلالين : « حزب انتصار الحريات الديمقراطية » و « حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري » ، فاستقر رأيهم على الوقوف في وجه الأمة ، و « منحها » طائفة من النواب الصالحين ، كما منحوها الدستور الصالح من قبل . . .

وتفصيل هذه السرقات وهذا التدليس الذي باشرته الإدارة الجزائرية بصفة فاضحة ، تحت إشراف الوالى العام السيء الذكرم ناجلان . وبمباشرة المدير المسئول فى الولاية العامة م . سيوزى ، هذا التفصيل المخجل الفاضح ، لا يتفق وخطة الإيجاز التى التزمناها فى هذه الفذالة . إنما هى باختصار كانت تقع على الطريقة التالية :

أولاً : حرية الترشيح مباحة للجميع

ثانياً : الدولة تعين المرشح الرسمى المسلم . . . الذى تختاره ، وترى به إلى ميدان الانتخاب ، وتضمن له النجاح ، وتزوده بما يلزمه من المال .

ثالثاً : يتمتع المرشح الرسمى بكل التسهيلات فى تجولاته وتنقلاته ، بينما توضع كل أنواع المراقيل فى وجه المرشحين الحزبيين .

رابعاً : كارثة يوم الانتخاب تقع على النحو الآتى : —

(أ) في عدد من الجهات لا توزع أوراق الانتخاب ، بل يباشر الموظفون الإداريون العملية ويعمرون الصناديق كما يريدون .

(ب) يترك الناخبون أحراراً في جهات أخرى ويتم عملية الانتخاب على الوجه الأكمل . لكن في آخر لحظة ، يقع « حادث » فيأمر شيخ البلدة أو المتصرف بإخراج سائر الناس ويستبدل بالصندوق صندوقاً آخر ثمّ في الظلمات باسم المرشح الحكومي .

(ج) قبل موعد الانتخاب . يباشر أعوان الإدارة ملء الصندوق بواسطة الرقاع الانتخابية الراجعة ، والتي مات أصحابها أو تغيبوا ، فتوضع بأسمائهم أوراق المرشح الحكومي ، وتستعمل طرق أخرى لتحقيق الأغلبية الساحقة له .

(د) يقف الحاكم « الادمسراتور » أو القائد في قاعة الانتخابات ، ويمنع دخول ممثلي المرشحين الأحرار ، ويعلم الناخبين بأن الحكومة تريد « فلاناً » وأنه إن لم يقع انتخابه ، فليس للسكان أن يعتمدوا أبداً على أى إعانة من الحكومة ، وأن الدولة تعاملهم معاملة الأعداء . فتتم الجريمة . أما من ذهب غاضباً ، ولم ينتخب ، فإن أعوان الإدارة يستعملون صوته ، وينتخبون باسمه المرشح الحكومي .

وإننى لأكتفي بهذا المقدار ، وهو نقطة من يم ، لإعطاء قارىء هذه المجالة صورة عن المأساة الانتخابية ، التي كانت تليجتها إبعاد الأمة وممثليها الحقيقيين عن المجلس الجزائري . فأسفر هذا التدليس الشنيع عن تشكيل المجلس الجزائري المدلس المشوه كما يلي :

الفائزون الحكوميون ، الذين يدعونهم بالمستقلين ٤٣

» من حزب انتصار الحريات الديمقراطية ٩

» » الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري ٨

٦٠

خشب مسندة :

كانت النتيجة أن الحكومة تمكنت بواسطة هذه الأعمال المخجلة من وضع خشب مسندة على مقاعد النيابة في المجلس الجزائري ، ساومت أغلبيتهم على ضمائرهم ، فلم يكونوا ينبسون ببنت شفة ، إلا متى قال لهم الاستعمار تسكلموا ، أو متى حرر لهم نص الكلمات التي يقولونها .

وكانت نتيجة هذا الوضع الشاذ ، أن الاستعمار وإدارته وحكومته ، قد ضمنوا لأنفسهم عدم تنفيذ الدستور الجزائري ، طوال المدة التي انقضت بين عامي ١٩٤٨ — ١٩٥٤ ، فلا الوظائف فتحت في وجه المسلمين ، ولا التعليم العربي نال الصبغة الرسمية ، ولا الدين الإسلامي فصل من إدارة الاستعمار ، ولا البلديات الممزجة الكربة الغيت ، ولا النظام العسكري زال من البلاد الجنوبية . ورأى الناس كافة ، حتى أكثر المتفائلين منهم ، وأكبر المعتدلين فيهم ، أن الاستعمار قد تمكن بواسطة الدستور الجزائري الابر ، وبواسطة تدليس الانتخابات ، من حكم البلاد الجزائرية ، لفائدته الخاصة ، وضد مصالح الجزائريين ، أكثر من أي وقت آخر مضى .

وهل تكون نتيجة هذا اليأس النهائي ، إلا التفكير في استعمال الوسيلة الوحيدة الباقية : الثورة المسلحة ، والاقدام عليها ؟ .
وهكذا كان .

ولم يكتف الاستعمار بتدليس انتخابات المجلس الجزائري ، بل أصبحت الانتخابات بعد ذلك ، لكل المجالس النيابية ، كلها تدليس وسرقة ، وتزوير حتى أصبحت كلمة « الانتخابات على الطريقة الجزائرية » تستعمل في المضمار العالمي ، للتعبير عن كل انتخاب مزور مدلس . ففي هذه الأوقات والجزائر تنسكتب في آمالها ، وتمتهن في ديارها ، ويحال بين نخبتها الوطنية وبين مجالس النيابة الهزلية ، كان الجزائريون يعلمون أن موجة التحرر قد شملت العالم أجمع ، وأن أمم آسيا قد تحررت : أندونيسيا - الهند - الصين - باكستان - برما - سيلان - العراق - سوريا - لبنان - وأن أمم أفريقيا قد مزقت قيود الاستعمار : مصر - الحبشة - ليبيا - أريتريا - الصومال . فقالوا : وهل كتب الله أن لا يبقى في العالم إلا الاستعمار الفرنسي ، وأن لا يبقى هذا الاستعمار إلا في بلادنا ؟ . ؟ .

فطاعة وأهوال :

أخذت الأمة تتجه منذ تلك الساعة ، اتجاها يسير نحو الثورة على خط مستقيم . ولو كانت الإدارة الجزائرية موضوعة تحت قيادة جماعة من الصم البكم الغمى الذين لا يعقلون ، لما تصرفت غير تصرفها في هاتيك الأيام التي كانت من أسوأ أيام التاريخ الجزائري ، وأشدّها سواداً .

كانت الفضاخ تتلوا الفضاخ ، وكانت الأعمال التنكيلية الزاجرة تتلو الأعمال التنكيلية الفظيمة .

فى بلاد القبائل الكبرى وقعت خلال شهر يوليو سنة ٤٨ حوادث هوسونفيل وجهتها ، حيث أحرق الجندرية والجند ورجال البوليس . القرى والديار ، وأنلفوا المؤن والأرزاق ، وانتهكوا حرمة النساء والبنات وقد كان وقع مثل ذلك من قبل فى جهات برج أم نائل ودلس وغيرها . وفى سبتمبر وأكتوبر من نفس تلك السنة . هاجم الجند والجندرية ورجال الدرك قرية « سيدى على بوناب » الباسلة ، بدعوى التفطيش عن رجل هارب من الجندرية ، فخطموا القرية تحطيا ، واعتدوا على عفاف النساء والبنات بصفة شنيعة ، وسرقوا ونهبوا ، وأهانوا ، ودام ذلك العدوان القذر ١٥ يوماً

وفى بلاد الأوراس ، هاجم الجند خلال سنتى ١٩٥٠ — ١٩٥١ ، القرى والديار ، وارتكبوا من الأعمال الشنيعة والمظالم المنكرة ، ما يزال يتحدث به الناس فى جهات الجنوب ، وذلك بدعوى البحث عن أحد الرجال المجرمين ، فذاقت أمة الأوراس عذاب النكال من جراء ذلك ، وأقسمت جهد إيمانها لتنتقم من للشرف المداس والكرامة المهينة .

التنكيل بحزب انتصار الحريات الديمقراطية :

خلال شهر مارس سنة ١٩٥٠ ، أعلنت الحكومة الاستعمارية ، أنها اكتشفت مؤامرة حاك أطرافها حزب الشعب السابق ، الذى أصبح يدعى حزب

«انتصار الحريات الديمقراطية» ، فأطبقت على الحزب في كل جهة ، وفقت كل مرا كزه بالمدن والقرى ، بقصد البحث عن « المنظمة السرية » التي شكلها الحزب ، وهياها للقيام بالثورة ، وعن أسلحتها وعتادها ، وقد اقترنت هذه التفتيشات بمظالم لا توصف ، واستعمل البوليس لاستنطاق المتهمين ، المقبوض عليهم ، وكانوا يزيدون عن الألف ، وسائل لو وصفناها لقراء هذه الرسالة ، لاقشعرت منها جلودهم ، ولما وجدوا لها نظيراً ، إلا في ديوان التفتيش الأسباب السبي الذ كر .

ثم قدم الرجال إلى المحاكم ، فحكمت على نحو النصف منهم بمدة تتراوح بين العامين سجنًا ، وبين الأشغال الشاقة المؤبدة . ولا يزال أكثرهم يقاسى عذاب الهون في سجون البلاد الجزائرية ،

ثم قررت الحكومة بمد كل هذه الحوادث إبعاد السيد أحمد الحاج مصالى رئيس الحزب عن أرض الجزائر ، فوضعت تحت الإقامة الجبرية في البلاد الفرنسية .

جبهة الدفاع عن الحرية :

كانت الأمة تضغط على الأحزاب ضغطاً عنيفاً ، قصد الاتحاد وجمع الكلمة ، ومجابهة الاستعمار وإدارته صفاً واحداً . فبعد محاولات عديدة أسفرت الجهود عن تأسيس « جبهة الدفاع عن الحرية » ولم تكن ذات منهاج متسع ، إنما كانت محاولة أولى لاتحاد شعبي عام وجد مستقره النهائي وطريقه الثمر ، في جبهة التحرير الوطني الجزائري ، التي أسفرت عنها الثورة الكبرى .

كانت الجبهة تطالب ، بحل المجالس المداسة ، وبانتخابات حرة ،
وبتنفيذ فصل الدين عن الدولة ، وترسيم اللغة العربية ، وإطلاق سراح
المعتقلين ، والإفراج عن الزعيم السيد أحمد مصالى . إنما المقصد الحقيقي منها
كان جمع سائر أحزاب الأمة ومنظماتها فى هيئة واحدة ، لعمل مشترك
واحد ، فقد اشترك فى الجبهة حزب انتصار الحريات الديمقراطية ، وحزب
الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائرى ، وجماعة العلماء ، وجماعة الأحرار المستقلين
والشيوعيون الجزائريون على قلتهم .

وكان يوم خامس أوت ١٩٥١ ، يوماً مشهوداً فى تاريخ الأمة الجزائرية
يوم عقدت الجبهة اجتماعها العام فى الملعب البلدى ، للاعلان عن غايتها
وأهدافها .

مقاطعة الانتخابات :

عزمت الأمة عزماً نهائياً ، على مقاطعة الانتخابات العامة ، وعدم تقديم
الأحزاب لمن يمثلها فيها ، وكان ذلك أثر أعمال التدليس والتزوير التى
صحت انتخابات ١٧ جوان سنة ١٩٥١ ، والتى ابتكرت الحكومة فيها أساليب
أخرى لم تكن معروفة من قبل فى ميدان اللصوصية الانتخابية . وهكذا
تركت الأمة المجال فسيحاً للإدارة ، تستقل بأعمال الانتخابات ، وتغفل
فيها ما تشاء ، إذ لم يكن فى استطاعة الأمة أن تغير من ذلك المنكر شيئاً .
ذلك أن الأمة قد عزمت على الاتجاه فى طريق آخر ، هو الطريق

الوحيد الذى بقى مفتوحاً أمامها ، إلا وهو طريق الثورة التحريرية التى
تخطم الاستعمار وتقوض أركانه .
والثورة هى آخر وسيلة تلجأ إليها الشعوب ، وبها تحقق الأمة الحق ،
وتبطل الباطل ، وتثل عروش الظالمين .

انقسام حزب الانتصار الحريات الديمقراطية :

كان حزب الشعب العظيم ، قد تضخم وكثر عدد أعضائه ، وتطور
مع الزمن تطورا ادخل فى هيئته الاداريه عددا من الرجال المثقفين ، الذين
يدينون للمبادئ وللنظم المصرية ، أكثر مما يدينون « للزعامة » .
ففى شهر أبريل سنة ١٩٥٣ ، اجتمع مؤتمر الحزب ، وانتخب مجلسا
اداريا جديدا ، أخذ يسير الحزب فى طريق النظام ، والخضوع لحكم
الأغلبية ، وكان السيد احمد الحاج مصالى فى اقامته الاجبارية بفرنسا
(حيث سير به يوم ١٤ ماى سنة ١٩٥٢) فأخذت المصادمات تقع بين
الأساليب القديمة والأساليب الحديثة . وبينما كان رأى الرئيس فيما سبق هو
للمرجح ، واراادته هى العليا ، أصبحت آراؤه تناقش ، واراادته تعارض
احيانا من قبل الأغلبية ، فأعلن أن هذه الطريقة تؤدى إلى فساد الحزب
وإلى اضمحلاله وانحلاله . وطالب باعطائه « التفويض المطلق » فى سياسة
الحزب ، فرفضت الأغلبية عليه ذلك ، وأصبح الانقسام ضربة لازب ، إذ
تصلب السيد مصالى مع رأيه ، وهاجم أغلبية اللجنة المركزية هجوما
عنيفا ، وأذاع أمر ذلك الخلاف على الناس .

ففي أيام ١٣ و ١٤ و ١٥ يوليو سنة ١٩٥٤ ، انعقد في بلجيكا مؤتمر الحزب ولم تحضر جماعة اللجنة المركزية ، وقرر السيد مصالى وانصاره « فصل » أعضاء اللجنة المركزية عن الحزب ، وتفويض الرئيس لإدارة سياسة الحزب وتوجيهها ، حسبما يراه صالحا .

لكن لم يعض على ذلك شهر واحد ، حتى عقد رجال اللجنة المركزية مؤتمرا في مدينة الجزائر أيام ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ أوت من سنة ١٩٥٤ ، اعلنوا فيه أن الزعامة الفردية قد انقضت اجلها ، واعلنوا فصل السادة : أحمد الحاج مصالى ورفاقه عن الحزب ، وأن رجال اللجنة المركزية هم الذين يمثلون الحزب ويسرون سياسته ، ويتولون توجيهه .

ووقعت من جراء هذا الانقسام بعض الحوادث المؤلمة ، بين الأخوان الذين كان إلى الامس القريب يدا واحدة ، يوجهون الامة نحو حركة تحرير في معركة نهائية . لكن الامة حسمت بدمائها وبأرواح شهدائها هذا النزاع .

لجنة الثورة للعمل والتمحاد

في هذه الاثناء كانت الثورة التونسية على أشدها ، مما اضطر فرنسا لأعلان الاستقلال الداخلي في زيارة مندس فرانس لتونس (جويلية ١٩٥٤) . وكان المغرب الأقصى يلتهب نارا بعد اقضاء ملكه وزعيمه سيدي محمد الخامس . وكانت حرب الهند الصينية الاستعمارية الخاسرة قد اضعفت فرنسا وحطمت معنوياتها .

أما حالة الأمة الجزائرية فكانت لاتطاق من حيث الضغط الحكوى والمبث الادارى ، والاستهتار الاستعمارى . وفى الكثير من الجهات ، عازمت الأمة على اعلان الثورة ولوبصفة غير منظمة ، لأنها لم تستطع الصبر أكثر من ذلك على ما حاق بها من مكر الاستعمار وشروره وآثام إدارته .

فحزم بمض رجال اللجنة المركزية والمناضلين امرهم ، وعقدوا اجتماعا فى «مكان ما» بأوربا الغربية ، وقرروا أنه قد جاءت الساعة التى يجب فيها اعلان الثورة المسلحة المنظمة ، قصد تحرير الأمة من اغلال الاستعمار ، وسمياً وراء الحرية والاستقلال . وكانوا قد اتصلوا قبل ذلك بالتشكيلات الموجودة بكل الجهات « المنظمات السرية O. S » ، فاستجابت كلها فى جند وفى اندفاع منقطعى النظر ، وجمعت الأسلحة القليلة والمتفجرات الموجودة بين ايدي رجال المنظمات ، ووقع الاتفاق على أن يكون يوم الثورة الكبرى ، هو يوم غرة نفامبر سنة ١٩٥٤ ، على الساعة الواحدة بعد منتصف الليل .

وهكذا أندلع لهيب الثورة الكبرى ، التى كانت الأمة تنتظرها بفارغ صبر وكانت مستعدة لها منذ اجيال ، وقد ادركت ، كما ادرك قارىء هذه الرسالة منذ صفحاتها الأولى ، انه لم يبق فى الجزائر من امكان للحياة مع الاستعمار الظالم الخبيث ، فاما حياة حرة شريفة ، دون استعمار ولا تحكم اجنبى ، واما موت شريف ، يحفظ الكرامة ويخلد المجد على صفحات التاريخ ، ولا توسط بين الحالتين .

كل مكان ، والاستعداد في كل مكان ، وهكذا تمكنت الثورة من فتح واجهتها الأولى .

أخذت السلطة الفرنسية تلقى القبض على الناس جزافاً ، في كل جهة ، سعيًا إلى إحداث الفراغ حول الثورة ، لكن الرجال الذين دبروا الأمر ، وفتدوه ، فأحكموا تدبيره وأحكموا تنفيذه ، كانوا في مرا كزهم على رأس وجالهم ، أو كانوا قد احتلوا المرا كز التي عينت لهم في الخارج ، لإمداد الثورة ولتنفيذها ، فلم تؤثر اعتقالات الحكومة للناس أى تأثير على سير الثورة ، فاندفعت كاللارد ينطلق من عقاله ، باسم الله مجراها ومرساها ، تحطم الاستعمار على بناته وأنصاره ، وترفع ألوية الحرية خفاقة فوق ربوع أرض كانت منذ الأزل مهد الحرية ومنبت الاستقلال .

فبعد ثمانية أيام من ذلك الحادث العظيم ، أصدرت الحكومة أمرها بحل حزب انتصار الحريات الديمقراطية ، وألقت القبض على الجماعات الكثيرة من رجاله ، سواء أكانوا من أنصار اللجنة المركزية ، أو من أنصار السيد الحاج مصالى ، (ثم أطلقت سراحهم ، حين تأكد قاضى التحقيق أنهم لا ضلع لهم في إيقاد نيران الثورة) وقال وزير الداخلية يومئذ قولته الشهيرة ، التي كانت إعلان حرب حقيقية على الأمة الجزائرية ، : « إن الجزائر فرنسية ، وستبقى فرنسية ، وأن لا جواب لنا على هذه الثورة ، إلا الحرب إلى النهاية » .

الأحرار الأبرار ، حسب الخطة التي رسمها قادة « لجنة الثورة للاتحاد والعمل » C R. U. A. وسارت كل جماعة نحو الهدف المعين لها ، وقد ودعت الحياة ، حياة الذل والمهانة والعبودية ، واستقبلت الموت ، موت الشرف والإباء والكرامة . ولم يكن عددهم يومئذ عظيماً ، فالذين أوقدوا النار المقدسة في يومها الأول لم يكونوا يتجاوزون الألف رجل ، ولم يكونوا مسلحين تسليحاً قوياً ولا مزودين بما يلزم لمثل هذه الأعمال بل كان سلاحهم بنادق وبعض رشاشات قديمة ، أما القذائف والمتفجرات التي ألقيت على مراكز السلطة ، والمنشآت العامة ، وثكنات الجندرية والجند ، فقد كان الكثير منها من الصنع المحلي ، فأحدثت رعباً كبيراً ، ولم تحدث ضرراً عظيماً . رغم ذلك فعملية اليوم الموفقة الناجحة ، فقد أتت بالنتائج المطلوبة منها : أولاً — إشعار الأمة الجزائرية ، وإشعار فرنسا ، وإشعار العالم أجمع ، بأن الجزائر قد ثارت لأجنادها ، وكرامتها ، ولاسترداد حريتها واسترجاع ما اغتصب من حقها .

ثانياً — تمكن المجاهدين في الكثير من الجهات ، من الاستيلاء على أسلحة وعتاد الجند الفرنسي الذي لم يكن ينتظر أصلاً أن تقع مثل تلك الحوادث ، فنام آمناً مطمئناً ، أو أخذ يتمتع بأجازته لقضاء يوم عيد الأموات بين أهله وذويه أو في الحانات والمراقص الخليعة .

ثالثاً — التعمية على رجال العسكرية الفرنسية ، فلم يعرفوا في الأيام الأولى ما هي الجهة التي ستركز فيها الثورة ، فاضطروا لتوزيع قواهم في

إذن فلتكن الحرب إلى النهاية ، إلى نهاية الاستعمار ، إلى نهاية الحكم
الأجنبي !



وأنتى أثناء هذا العرض الموجز ، لا أستطيع أن أسطر كل حوادث
الثورة ، ولا أن أشيد بسائر ما وقع خلالها من أعمال البطولة النادرة التى
لا يعرف التاريخ لها مثيلا ، إلا فى هذا القطر الزاخر بالأجناد ، المنبت
للصناديد ، لـكننى سأحاول — وسأوفق فى محاولتى إن شاء الله —
عرض أعمال الثورة فى مختلف ميادين الثورة ، منذ يومها الأول إلى هذه
الساعة ، (موفى يوليو سنة ١٩٥٦) ثم ما يحيط بكل ذلك من أعمال الأمة ،
ومنكرات الحكومة ، وملابسات السياسة ، بحيث يكون الإلمام تاماً ،
بحالة القطر الجزائرى ، من كل جهاته ، والحالة البشعة التى أوقع الاستعمار
فيها الأمة ، حتى فقدت كل شىء ، إلا الأمل والإيمان ، وحتى لم يبق أمامها
من باب تطرقه إلا باب الثورة ، فطرقته بصفة مدوية ، لا يزال صداها
يرن فى الآذان إلى الآن ، وإلى ما بعد الآن .

العبد القومى :

وأبادر قبل كل شىء بوصف الحالة النفسية التى قابلت الأمة بها
هذه الثورة .

لقد رأيت فى حياتى يومين من أيام الجذل الشمي والحبور الإجماعى

في قطر الجزائر ، جذلا وحبورا جعلوا الناس يندفعون في غمرة فرح وسرور ،
 يهنئ بعضهم بعضا ، ودموع الفرح تتقاطر من المآقي : كان اليوم الأول ،
 هو يوم انهيار فرنسا واستعدادها لإمضاء الهدنة المخجلة المهينة التي أملاها
 عليها الألمان ، في شهر يونيو سنة ١٩٤٠ ، أما اليوم الثاني ، فقد كان
 دون منازع يوم غرة نوفمبر ١٩٥٤ . حين أذيعت على الناس ، الأنباء
 الأولى للثورة ، وحين علموا أن الأمر جد وليس هو بالهزل . كان الناس
 يهنئ بعضهم بعضاً ، كانوا يتبادلون القبل ، كانوا يتسارعون بنقل الأخبار
 ويسرون بها ، يبشر دانيهم قاصيهم ، كانوا يقولون جهاراً وعلانية ، أن
 عهد الاستعداد قد ولى وأدبر ، كانوا في المدن والقرى والبادي يعلنون
 استعدادهم للموت ، في سبيل الحياة ، كانوا يتساءلون في لهفة : أين نجد
 السلاح ؟ من أين نأتي بالسلاح ؟ ما هو أقرب طريق وأضمنه للانضمام إلى
 المجاهدين ؟ . أما النسوة — وقد قمت ببحث شخصي في الموضوع —
 فقد كن يعيرن القاعدين بالمجاهدين ، وكن يتساءلن في لهفة عن الدور
 الذي يجب أن يقمن به في هذه الوثبة الوطنية النهائية ، التي فيها الانعتاق
 وفيها التحرر بإرادة الله ، وبقوة سواعد الأمة الأبية .

جبهة التحرير الوطني الجزائرى :

أن المنشورات التي وزعت منذ اليوم الأول على الأمة ، تبلم بإعلان
 الثورة الكبرى ، وتحدد أهدافها التي هي استقلال البلاد والتخلص من
 الحكم الاستعماري ، كانت تحمل إمضاء « لجنة الثورة للاتحاد والعمل » .

لكن سرعان ما تطورت الحالة تطوراً كان منتهظراً . فأمام الاندفاع الشعبي العظيم نحو الثورة ، وأمام الرغبة الجماعية ، التي ظهرت من كل طبقات الأمة — وخاصة رجال السياسة ورجال العلم فيها — في المشاورة مشاركة فعالة في المسؤوليات وفي إدارة العمليات ، تخلى المسئولون الأولون عن اسم اللجنة الأولى ، وأعلنوا تشكيل « جبهة التحرير الوطني الجزائرى » التي فتحت أبوابها لقبول كل جزائرى مخلص ، مهما كانت هويته القديمة ، ومهما كان حزبه السابق ، فالثورة تجب ما قبلها . فأصبحت فرق « جيش التحرير الوطنى » تشمل الجميع دون ذكر حزب سابق ، وصارت منظمة « جبهة التحرير الوطنى » وهى التى تعمل لتحقيق أهداف الجيش ، السياسية والعسكرية ، مفتوحة كذلك للجميع ، قد ذابت فيها كل الشخصيات ، وكل الحزبيات ، وكل النزعات الخاصة . وتمت المعجزة الثانية ، بعد معجزة الثورة : إلا وهى الاتحاد الوطنى المقدس فى سبيل الله والحرية والاستقلال ، فاندمج فى هذا الاتحاد ، فوق ميدان الثورة ، وبين مسيل الدماء وتصاعد اللهب رجال اللجنة المركزية لحزب الانتصار ورجال الاتحاد الديمقراطى للبيان ، ورجال جمعية العلماء ، وأغلب الرجال الذين كانوا وطنيين مستقلين عن الأحزاب^(١) .

(١) لهذه الجبهة وقد كبير بالخارج ، مركزه مدينة القاهرة ، يعمل تحت رئاسة الأستاذ محمد خيضر ، من قدماء زعماء حزب الانتصار ، والنائب السابق بالجلس الوطنى ، والأستاذ أحمد بن بله ، من كبار زعماء الحزب ومنظفاته السرية ، وقد كانت معاً بالقاهرة عند اندلاع الثورة ، يعملان لها ويهيئان أسبابها . ثم أرسلت الجبهة بقية أعضاء الوفد الذين يعملون فى كل ميدان . من أقصى آسيا إلى أقصى أميركا . وهم : =

المنشور الأول

من جهة التحرير الوطني الجزائرى

» إلى الشعب الجزائرى

إلى أنصار القضية الوطنية

إليكم أنتم المدعويين إلى الحكم علينا ، — الشعب بصفة عامة والأنصار بصفة خاصة — نتيجة بهذا البيان . وغايتنا هي أن نوضح الأسباب العميقة ، التى دفعتنا لأن نشرح لكم برامجنا ، ومغزى حركتنا ، التى بقى هدفها دائماً هو تحقيق الاستقلال الوطنى فى نطاق الشمال الإفريقى . ولنا غاية أخرى فى ذلك ، وهى أن نجنبك الوقوع فى الغموض الذى يريد الاستعمار أن يحفك به ، هو وعملاؤه من رجال الإدارة والسياسيين المنحرفين .

إننا نعتبر قبل كل شىء ، أن الحركة الوطنية قد دخلت مرحلتها النهائية ، بعد مراحل طويلة مرت بها . ذلك أن هدف الحركة الثورية ، قد توفرت الآن جميع شروطه المرضية ، التى تيسر لهذه الحركة أن تشن الحملة التحريرية . ونحن نرى أن الشعب تحت ضوء ظروفه الداخلية ، قد أصبح متحداً وراء فكرة الاستقلال والعمل ، وأنه تحت ظروفه الخارجية قد

== محمد اليزيد — الحسين آيت أحمد — بوضياف — الحسين الأحول — دكتور محمد أمين الدباغين — أحمد بودا — احمد توفيق المدنى العباس بن الشيخ الحسين — عباس فرحات — عبد الرحمان كيوان — دكتور أحمد فرانسيس — عبد الحميد مهرى — محمد بن يحيى — محمد ابراهيمى .

بلغ مرحلة مرضية ، لحل المشا كل الصغرى ، التى من بينها مشكلة بلادنا ، وذلك بفضل المساعدة السياسية التى يبذلها لنا أخواننا العرب والمسلمون ، وحوادث تونس ومراكش ، لها مغزاها فى هذا الصدد ، وهى تسجل جانباً عظيماً من جوانب قضية تحرير شمال أفريقيا ، ولنسجل فى هذا الصدد ، أننا كنا منذ زمن طويل ، حريصين على وحدة العمل ، الذى لم يتحقق مع الأسف بين أقطارنا الثلاثة .

ساعة الخطر

« أما اليوم فإن كلا من تونس ومراكش قد دخلتا فى هذه الطريق ، وبقينا نحن وراءهما نتحمل عواقب من فاتهم الركب ، وهكذا فإن حركتنا الوطنية ، التى مرت عليها سنوات من الجود ، والتوجيه المنحرف ، وفقدان المساندة الشعبية الضرورية ، قد أخذت تدخل شيئاً فشيئاً ، فى الحالة التى يغتبط بها الاستعمار أعمق الاغترباط ، حتى أصبح يعتبر أنه تحصل على أكبر انتصار ، على قيادة الحركة الوطنية الجزائرية . »

ان الساعة ساعة خطر ، وأمام هذه الوضعية التى توشك أن تصبح ميؤوساً منها ، رأى جمع من الشبان المسؤولين الواعين لهذا الخطر ، والذين جمعوا حولهم عناصر سالمة ، ذات تصميم واضح ، رأت أن الوقت قد حان ، للخروج بالحركة الوطنية من المأزق الذى تردت فيه ، بسبب تناحر الأشخاص ، وتزاحم النفوذ ، وعزموا على أن ينطلقوا إلى جانب إخوانهم التونسيين والمراكشيين ، فى المعركة التحريرية الحقيقية .

ونحن نحب أن نؤكد في هذا الصدد ، أننا مستقلون عن الطرفين ،
الذين يتنازعان النفوذ في الحركة الوطنية . وحركتنا التي وضعت
المصلحة الوطنية فوق جميع الاعتبارات الحقيرة ، حول الأشخاص
ومكاناتهم ، والتي تتمشى مع المبادئ الثورية ، لا عدو لها تقاومه إلا
الاستعمار الأعمى ، الذي لم يتح لنا في أى وقت من الأوقات ، أن ننظم
نضالا سلميا .

جبهة التحرير

هذه هي الأسباب التي جعلتنا نتقدم بحركتنا تحت اسم ، « جبهة
التحرير الوطنى » . وبذلك تتيح هذه الحركة لجميع الوطنيين الجزائريين ،
مهما كانت طبقاتهم الاجتماعية ، ومهما كانت احزابهم وحركاتهم الجزائرية
الخاصة ، أن يندمجوا في معركة التحرير دون أى اعتبار آخر .

ولكى نزيد الأمر تفصيلا وتوضيحا ، فها هي الخطوط العامة لبرنامجنا
السياسى :

الهدف — هو الاستقلال الوطنى ، بواسطة ايجاد دولة جزائرية ذات
سيادة و نظام ديمقراطى اشتراكى ، فى دائرة المبادئ الاسلامية ، مع
احترام جميع الحريات الأساسية ، دون أى ميز فى الدين أو المعتقد .

وغايتنا فى الميدان الداخلى ، هى التطهير السياسى ، وذلك باعادة الحركة
الوطنية فى طريقها الثورى الصحيح ، والقضاء قضاء مبرما على جميع ألوان

الاحتلال ، والدخول في سياسة الاصطلاحات ، التي هي سبب تفهقرنا الحالي . وغايتنا هي أيضاً لم شتات جميع الطبقات السليمة للشعب الجزائري ، لتصفية حساب النظام الاستعماري .

وغايتنا في الميدان الخارجي ، هي تدويل القضية الجزائرية ، وتحقيق وحدة شمال أفريقيا في نطاقها الطبيعي ، الذي هو النطاق العربي الإسلامي . وموقفنا في دائرة ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، هو تأكيد صداقتنا الفعالة لجميع الدول التي نساند قضيتنا التحريرية .

أما وسائل الكفاح فهي — تبعا للمبادئ الثورية ، ونظراً للوضعية الداخلية والخارجية — هي مواصلة الجهاد بجميع الوسائل إلى أن يتحقق هدفنا إن شاء الله .

مهمتان مرهقتان

« وجهة التحرير الوطني ، لكي تحقق هذا الغرض ، يجب عليها أن تقوم بمهمتين أساسيتين متماثلتين في وقت واحد . أولاهما : عمل داخلي في الميدان السياسي ، وفي ميدان العمل والكفاح ، وثانيتها : في الميدان الخارجي ، حتى تصبح المشكلة الجزائرية حقيقة في نظر العالم كله ، بمساعدة جميع حلفائنا الطبيعيين .

وهذه المهمة المزدوجة مهمة ثقيلة الوطأة مرهقة ، تتطلب تجنيد جميع الطاقات ، وجميع الموارد الوطنية . وصحيح أن المعركة ستكون طويلة الأمد ، ولكن انتصارنا فيها لا شك فيه إن شاء الله .

وأخيراً — لكي يقع تجنب جميع التأويلات الخاطئة أو المفوضة ولكي يقع تجنب إزهاق الأرواح وإراقة الدماء — فإننا نقدم أساساً شريفة ، لمفاهيم مع السلطات الفرنسية ، إذا كانت لهذه السلطات استعدادات طيبة ، للاعتراف أخيراً للشعوب التي تتحكم فيها بحقوقها في تقرير مصيرها . وهذه الأسس هي :

أسس المفاوضات

« ١ — فتح مفاهيم مع الممثلين الحقيقيين للشعب الجزائري ، على أساس الاعتراف بالسيادة الجزائرية ، الموحدة التي لا تتجزأ .

٢ — إيجاد جو من الثقة ، وذلك بإطلاق سراح جميع المساجين السياسيين ، ورفع جميع التدابير الاستثنائية ، والتوقف عن تتبع قوات المقاومة .

٣ — الاعتراف بالشخصية الجزائرية في تصريح رسمي ، ينسخ جميع القوانين التي صيرت الجزائر أرضاً فرنسية بالرغم من التاريخ ، والجغرافيا ، واللغة ، والدين ، والعوائد التي يتصف بها الشعب الجزائري .

وفي مقابل ذلك نتمهد بما يلي :

١ — إن المصالح الفرنسية الثقافية والاقتصادية ، التي تحصلوا عليها بطريقة شريفة تكون مضمونة ، وكذلك الأشخاص والعائلات .

٢ — جميع الفرنسيين الراغبين في البقاء بالجزائر يكون لهم الخيار بين جنسيتهم الأصلية — وفي هذه الحالة يعتبرون أجانب بالنسبة للقوانين المعمول بها ؛ وبين الجنسية الجزائرية — وفي هذه الحالة يكونون معتبرين جزائريين لهم ما للجزائريين من حقوق وعليهم ما على الجزائريين من واجبات — .

٣ — العلاقات بين فرنسا والجزائر ، يقع تحديدها ، وتكون موضوع مفاوضات بين الدولتين ، على قدم المساواة والاحترام المتبادل .

وبعد ؛ فيا أيها المواطن الجزائري الحر . . . إننا ندعوك إلى التأمل في هذا الميثاق . وإن واجبك المقدس يدعوك إلى الانضمام إليه ، لإنقاذ بلادنا وإعادة حريتها إليها .

إن جبهة التحرير الوطني جبهتك ، وانتصارها هو انتصارك .

أما نحن الذين عزمنا على مواصلة الكفاح ، والذين لانشك في عواطفك المعادية للاستعمار ، والذين نعتبر أنفسنا أقوياء بمساندتك وتأييدك ، فإننا سنهب أعز ما نملك لوطننا .

« جبهة التحرير الوطني الجزائري »

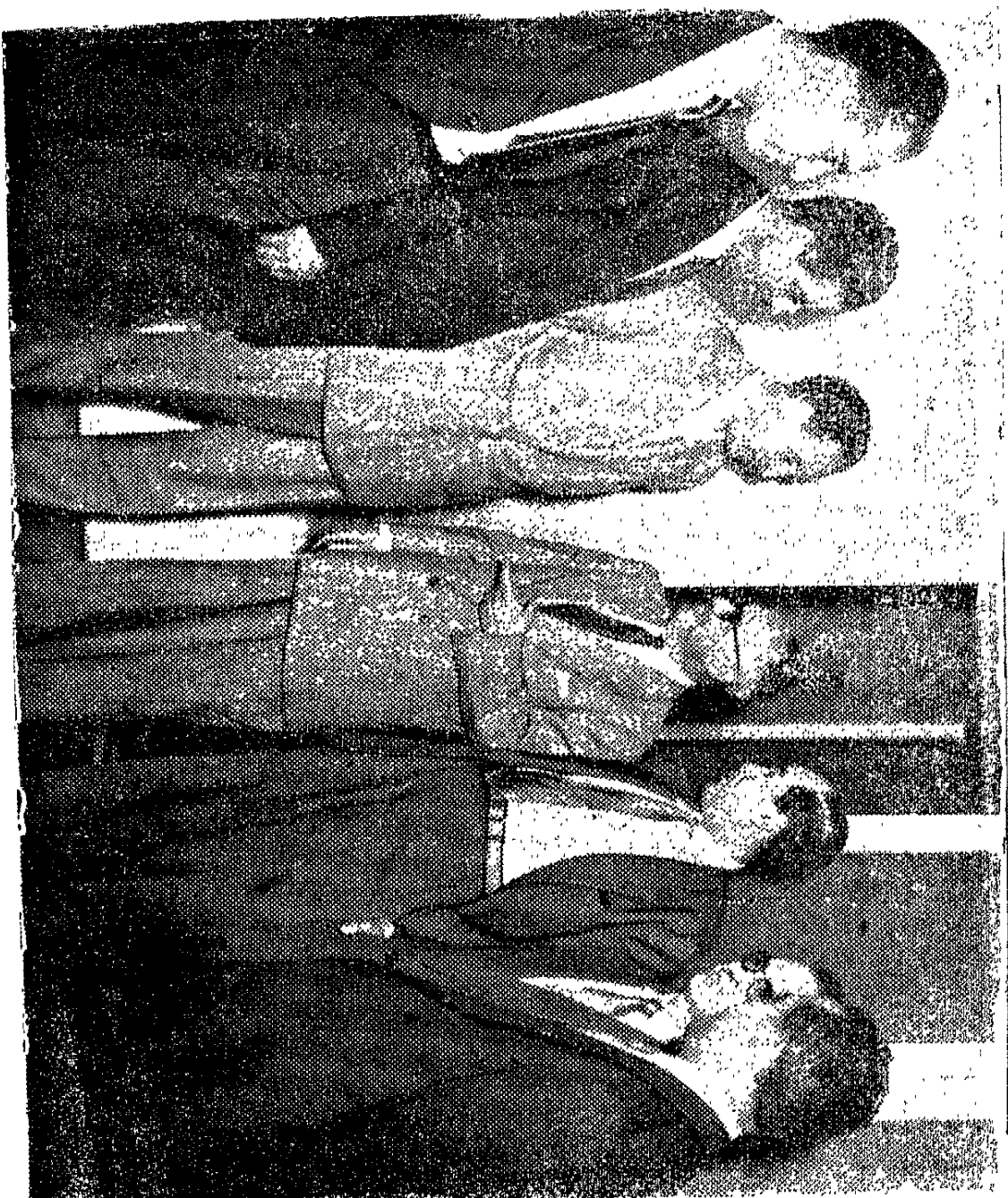
الحركة الوطنية :

إنما لم يرد السيد أحمد الحاج مصالى ، ومن بقى معه ، الانضمام لهذه الحركة الوطنية الجماعية التلقائية الفريدة ، فأعلنوا تأسيس « الحركة الوطنية الجزائرية » . لكن كامل فرق جيش التحرير العاملة في كل جهات البلاد قد أعلنت استنكارها لهذا الموقف ، ووصفته بأشنع الأوصاف ، وأعلنت في صراحة وفي صرامة ، أن الجيش واحد ، هو جيش التحرير الوطنى ، وأن القيادة السياسية واحدة هي « جبهة التحرير الوطنى » . وهكذا نجت الأمة باجماعها وبوحدتها ، ولم يقع في صفوفها الداخلية أى اضطراب . وسيقول التاريخ كلمته في ما عدا ذلك .

ولنسر الآن مع الحوادث العسكرية ، في إيضاح موجز، كي نلم بحوادث الثورة من جميع أطرافها .

جبال أوراس

ما كادت تنقضى أيام الدهشة الأولى ، حتى فهم العسكريون الفرنسيون أن الثورة قد استقرت بصفة متينة ، راسخة ، في جبال أوراس الكثيفة ، ذات القمم الشاهقة والمغاوير والكهوف . فأخذت القوى الفرنسية تتوجه مسرعة نحو ذلك الهدف الصعب . وكان الناثرون في جبال أوراس قد استعدوا فعلا لحرب طويلة المدى ، وجمعوا لها سلاحا وعقادا وذخيرة ،



جامعة من أعضاء

وفد جبهة

التحرير الوطني

بالقاهرة .

من الميادين إلى

اليسار ، الساحة

محمد خيضر

الدكتور أمين

الدباغين

الدكتور أحمد

فرنسيس

أحمد توفيق

المدني

عباس فرحات

أحمد يوده

عبد الرحمن

كيوان .



من أعضاء وفد
جبهة التحرير
الوطني بالقاهرة
من اليمين إلى
اليسار، السادة
أحمد بن بللة
عباس فرحات
أحمد توفيق
المدني

ثم أخذوا يوالون نصب الكمين للجند الفرنسي ، في الطرق الملتوية التي تخترق شعاب الجبال نحو الصحراء ، فكانوا يرجعون من كل كمين بالشىء الكثير من السلاح والذخيرة ، وبعدد من الأسرى ، بعد قتل الجماعة الكبيرة من رجال الفرقة الفرنسية أو افنائها بصفة تامة .

وكان بطش الفرنسيين شديدا . فالقوى التي بعثوا بها على جبال أوراس أخذت تدمر بواسطة الطائرات القرى والمداشر ، والمدفعية الجبلية تفتك بالسكان فتكا ذريعا .

ثم ابتكر الجند الفرنسي وسيلة لأبعاد السكان عن الجبل ، فعينوا لهم منطقة وأمروهم بالارتحال إليها . لكن لم يطمع أروهم إلا النزر اليسير ممن تحت سلطانهم المباشر ، وبقى الناس رجالا ونساء في الجبل الأشم ، إلى جانب جيش التحرير يحيون معه محياه ، ويموتون معه مماته ، ويبنون معه بدمائهم ، وفوق أشلائهم ، معقل الحياة الحرة الجديدة .

وتطورت الحالة تطورا سريعا . وأخذت النجيدات الفرنسية تتوالى ، وأعمال المسف والتنكيل ، وسنصفها فيما بعد ، تعظم وتشتد .

لكن المجاهدين كذلك كانوا يمززون قواهم ، وكان الأباة الأحرار يفدون عليهم من كل حذب وصوب ، فبينما هم ظلوا يقاومون الفرنسيين على حدود الجبل ، وفي طرقاته وشعابه ، كانوا من جهة أخرى يحطمون المراكز الفرنسية المتغلغلة في جهات الجبال الآهلة (سكان الأوراس

يزيدون عن المأتى ألف نسمة) ، وهكذا تمكنوا من تحرير أكثر جهات الجبال الداخلية التي لم يبق فيها ممثل للسلطة الفرنسية . ومنعوا عن الفرنسيين نهائياً اجتياز الطرق الجبلية نحو الجنوب .

كانت خسائر الثائرين المجاهدين مؤلمة . وقد استشهد في الأيام الأولى أحد كبار قادتهم : الشهيد بلقاسم قرين ، لكن خسائر الفرنسيين كانت — باعتبارهم — أعظم وأكبر سواء في الأنفس أو في السلاح والعتاد الذي غنمه المجاهدون . واستمر ضغط الفرنسيين على الأوراس عظمياً قاسياً إلى أن رأت القيادة التحريرية تخفيف ذلك الضغط ، بفتح واجهات أخرى منظمة استعدت لها ، فاضطر الفرنسيون حينئذ لمقابلة الأخطار الجديدة ، وخففوا من عملياتهم ضد الأوراسيين الذين ثبتوا في صياصيمهم ثباتاً ستذكره الأجيال بعد الأجيال . ويكتفى الفرنسيون اليوم باحتلال المدن التي تحيط بالجبل تاركين إدارته لبيده ، والمجاهدين فيه ، تحت قيادة الزعيم مصطفى بن بولعيد .

فسائر المنطقة التي تقع بين مدن : خنشلة شرقاً ، وباطنة غرباً ، وبسكرة جنوباً ، يمكن اعتبارها منطقة محررة ، هي معقل الحرية ، وهي التي تنكسر فوق صخورها الموجات العسكرية الفرنسية . وقد جرب الفرنسيون استعمال نار « النابالم » من الطائرات ، كما جربوا عدة وسائل تكتيكية أخرى فلم ينالوا — ولن ينالوا — من الأوراسيين منالاً ، وقد ذاع ذكر معارك فم الطوب ، ومدينة ، ومنمة ، ومشونش ، وخنقة سيدي ناجي ، وفي كل أحرز المجاهدون انتصارات باهرة .

(م — ١٤ هذه هي الجزائر)

جبال النمامشة

فما بين جبال الأوراس الآنف الذكر وهي جبهة القتال الأولى ، وبين حدود المملكة التونسية ، تقع جبال النمامشة ، في الجنوب الشرق ، تسكنها فرقة من الجباليين الجزائريين ؛ من أصلب الناس عوداً وأشدهم مراساً . وتعتبر جبالهم أصعب من جبال أوراس ، لقلة سكانها ، وقلة طرقاتها . فلما اشتد ضغط الفرنسيين على بلاد أوراس الأبية ، وحاولوا الاحداق بها من كل جهة ، وجدت الثورة متنفسها الطبيعي في جبال ابطال النمامشة الأحرار فأتجهت إليها ، وكانت على استعداد ، واستجاب أهلها لداعي الجهاد استجابة الرجولة والهمة والشرف ، وحمل الناس اجمعون مالدتهم من السلاح ، وأثخنوا في الفرنسيين وكبدوهم خسائر عظيمة وغنموا مرارا كل ما كان مع الفرنسيين من سلاح ومن عتاد ، فكانت معارك « الجرف » المتكررة كما كانت معارك « قنطيس » من أووع صفحات التاريخ الحربى الجزائرى ، في هذه الملحمة التحريرية الكبرى .

ورغم أن القوم منوا بخسائر كبيرة ، من جراء رى الطائرات ، فإن كافة بلاد النمامشة تعتبر محررة ، مع جبال الأوراس ، فلا يجتازها الجند الفرنسى إلا نادراً . وبواسطة تضحيات جمة . ويتولى قيادة هذه الحملة القائد « سى صالح » .

بلاد القبائل الكبرى

جبال زاووة الشهيرة في التاريخ الجزائري ، كانت منذ أقدم العصور مهد الحرية وموطن الأحرار ، وكانت في كل أطوارها القديمة والحديثة ، منبع ثورات عظيمة ، تمتاز بالشدة والعنف وقوة الشكيمة . ولا ننسى ماذا كبرت الاستعمار ، وماذا كبدتها الاستعمار ، من خسائر عظيمة ، اثناء ارضاخها للاحتلال اولا ، واثناء ثوراتها المتوالية بعد ذلك .

فعندما كانت نيران الحرب تتقد في جبال اوراس اتقادا ، وحين كان كبس الفرنسيين عظيما على تلك الجهة ، رأت قيادة جيش التحرير الوطني وجوب المبادرة بمعمليات حربية على نطاق واسع ، وفي جهة بعيدة عن الجنوب الشرقى فتقدم لها الاحرار اباء الضيم ، من رجال زاووة وجرجرة ، وهى البلاد التى تدعى بلاد القبائل الكبرى .

وقد كانت المناوشات تقع في تلك الجبال الشاهقة منذ اليوم الأول وكانت الطرق تقطع على الفرنسيين باستمرار ، لكن الجبال التهمت كلها دفعة واحدة بعد ذلك في حملة ثورية صادقة ، شملت كل الجهات على السواء . ولقد اضطرت القيادة الفرنسية لتجريد كل قواها الموجودة ، ضد اهل هذه الجبال . لكن الجيش الفرنسى لم يكن مستعدا لمقاولة حرب المصائب او حرب السككين ولم يكن مجهزا للقيام بمثل هذه الحركات فكان يكتفى بضرب المدن والقرى ، وتخطيط الديار والمنازل ، واحتلال المدن وبعض القرى الضخمة ، ومنع الزاد والميرة عن المجاهدين .

وكانت طريقة الجهاد في هذه الجبال تسير وفق الطرق التقليدية العتيقة : تطهير الداخل من كل احتلال ، ونصب إدارة محلية في الجهات المحررة ، والانقضاء على الجند الفرنسي في معاقله ، وأثناء تجوله أو سيره ، وتحميله الخسارة الفادحة في الأرواح والسلاح والعتاد .

كانت نكبة فرنسا مؤلمة لها جد الألم بهذا القطر الجبلي ، لأنها كانت تسمى السعى الحثيث لفصله عن بقية القطر الجزائري ، والسير به في طريق الفرنسة بله في طريق المسيحية ، فإذا به يكون في طليعة المقاومة الوطنية ، وتكون جهة القتال فيه ، سواء في وسطه أو على أطرافه ، أشد ما يكون عنفا ، وأعظم ما يكون مراسا .

وقد استعملت السلطة الفرنسية أكثر ما لديها من وسائل البطش والقمع ، وتجاوزت الحد في الفظائع والموبقات ، وصبت على الجبل وابلا من القنابل الحارقة والدمرة : لكن المجاهدين ثبتوا ثباتا مدهشا ، وما تركوا للفرنسيين شيئا مما كانوا قد احتلوه .

ثم حاول الفرنسيون تطويق الجبال ، والفصل بينها بمعاقل فرنسية . لكن المحاولة باءت بفشل ذريع ، وبقيت الجبال الداخلية محررة تحررا تاما ، تحكمها إدارة محلية اسلامية ، بينما تستمر الحرب العوان على الخطوط المحاذية لأسفح الجبال ، من سيدى عيش وازفون شرقا ، إلى يسر وبالسترو غربا .

ولا تزال الجندية الفرنسية تقاسى إلى اليوم عذاب الهون ، من جراء

هذه الحرب القاسية الجبلية ، في جهة حساسة جدا ، لأنها تحتل واجهة على البحر طويلة ، من جهة ، ولأنها من جهة أخرى تتحكم في طرق المواصلات الكبرى مع كامل الجهة الشرقية .

ويقود المجاهدين في هذه المنطقة الجبلية الوعرة ، القائد كريم بلقاسم ، والقائد بو عمران ، ولا تزال ، كدالوراس ، منطقة حرية ، ونضال شديد المراس .

الشمال الشرقي

هذه الناحية تشمل في الحقيقة عدداً من الواجهات ، تمتد على ساحل البحر من القالة على حدود تونس شرقاً ، إلى القل غرباً ، ثم تنحدر مع « الميلية » إلى ميلية وتتجه صوب الشرق مع الخروب ، وعين عبيد ، إلى جبل الوزنة على الحدود التونسية . فهذه الجهة التي يهيمن عليها القائد « يوسف زيفود » هي أوسع الجهات مساحة ، وأكبرها عمراناً ، وأعظمها ثروة ، ثم هي لا تمثل وحدة متماسكة ، بل هي مجموعة من وحدات صغيرة ، يقع بعضها في الشمال : كالقالة ، والقل وبعضها في الشرق : كداوروش وسوق أهراس . ومجاز الصفا . وصدراته ، ومرسط ، وبعضها في الوسط ، كالخروب ووادي الزناتي وعين عبيد ، وأم البواقي . وبعضها في الغرب ، كالميلية ، وميلة ، وقرارم ، وفج مزالة . وغيرها .

هنا تقع جهات كثيرة جداً تحت سلطة الثائرين المجاهدين وإدارتهم المباشرة ، ولا يتجول الجند الفرنسي إلا بكل صعوبة بين ناحية وأخرى . فالمدن الكبيرة في هذه الجهة ، وهي أكبر جهات الجزائر خصباً وعمراناً

تقع تحت الاحتلال الفرنسي ، وتجرى بها أعمال المجاهدين بين حين وآخر .
أما البادية والقرى ، والطرق ، فهي تحت إشراف جيش التحرير الوطني ،
يتصرف فيها كما يشاء .

وكما كانت أغلب جهات هذه الناحية الفسيحة ، مسرحاً لتلك الفظائع
والمنكرات التي وقعت أثناء مذابح ٨ ماي ١٩٤٥ ، فإن العسكرية الفرنسية
قد اتخذت منها ميداناً جديداً لأعمال القمع والزجر والتنكيل ، والقتل
الجماعي ، كما سيرد ذكره فيما بعد ، فمُنيت هذه الناحية بالحسائر الفادحة
في الأموال والأنفس والثمرات . لكن كل محاولات الفرنسيين قد أخفقت
اخفاقاً تاماً في إرضائها وإذلالها . وهي اليوم (موفى يوليو ١٩٥٦)
أقوى ما تكون إيماناً وحمية ، وتماسكاً وإيماناً في إلحاق الهزيمة بالجند
الاستعماري .

وقد كانت حوادث ٢٠ أوت ١٩٥٥ في هذه الناحية ، صفحة
جديدة من صفحات الثورة الجزائرية ، فقد التهمت الحوادث التهاباً غريباً
بكامل هذه المنطقة ، مما غير شكل الثورة واكسبها صورة أخرى

وادي الساحل

هذه المنطقة تعتبر متممة لواجهة بلاد القبائل الكبرى ، فهي تقع
جنوبها الشرق ويدير العلميات فيها القائد الزعيم « عميروش » وتشمل هذه
المنطقة التي أذاقت الاستعمار الأمرين جهات : قنرات ، وبني ورتيلان ،
وقرقور ومجانة إلى سطيف .

ولقد نشطت الأعمال الحربية فيها نشاطاً عظيماً خلال سنة ١٩٥٦ ، إذ كان المجاهدون قد طهروا الأرض فيها ، من كل استعمار ، وحرورها بصفة تكاد تكون تامة ، فلم يبق للاستعمار إلا القليل من السلطة في بعض المدن ، لكن الجيش الفرنسي قد أعاد الكرة بقوة وبعنف ، واحرق بكامل الجهة وأراد أن يسجل لنفسه نصراً (يكون هو الأول منذ اعلان الثورة) بمحق القوة المجاهدة بوادئ الساحل وجبل قرقور . لكن المجاهدين الذين هيجتهم الحمية ، قد قابلوا الجند الفرنسي وجها لوجه ، وتسكبدوا خسارة كبيرة ، وكبدوه كذلك اضعافها ، إنما هم لم يقعوا في الشرك الاستعماري ، ونجوا بفرقهم المجاهدة إلى مرا كز أخرى ، فما كاد يمر الجند الفرنسي حتى رجعوا إلى مرا كزهم وتحصنوا فيها من جديد : فاذا استثنينا بعض المدن والقرى الكبيرة التي يحتلها الفرنسيون ، فإن معظم جهات البلاد سهولا وجبالا ، تقع تحت إشراف المجاهدين .

منطقة وهران

لم تكن هذه المنطقة قد تحررت كثيراً ، وكانت تكتفي بمناوشات خفيفة ، ومعارك قليلة ، لا تتمدى النطاق المحلي . إنما كانت تستعد أثناء ذلك . وكانت تحزم أمرها للقيام بالعمل الحاسم . ففي خلال سنة ١٩٥٥ أخذت تقض مضاجع الفرنسيين ، وأجبرهم على نقل القوي العديدة لمجاهمة الخطر فيها ، ثم انتهت الثورة فيها بصفة مذهشة خلال سنة ١٩٥٦ وانتشرت ،

وانضم إليها الناس أفواجا ، فكانت هذه الجهة ميدانا لوقائع عظيمة ومما مع مدهشة ، كبدت الفرنسيين خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد ، واضطروا لارسال قوى البحر والبر والجو عليها ، في عملية كانت من أكبر عمليات هذه الحرب (يونيو ١٩٥٦) ، لكن المناورة الفرنسية اخفقت أخفاقا تاما ، وارتد الفرنسيون دون أن ينالوا من المجاهدين الذين بقوا سادة الموقف ، وبقوا مالكيين زمام المبادرة .

وتتمتد هذه المنطقة من الحد المراكشى غربا إلى حوالى مدينة مستغانم شرقا ، وتنحدر إلى سيدى بلعباس ثم تشمل كامل جبال تلمسان ، واشتهرت بها معارك بنى صاف ، والغزوات (نمور) وندرومة ، وتساله ، وضواحي تلمسان ، وقد نال المجاهدون في جميعها انتصارات كبيرة ، وغنموا من الفرنسيين غنائم عظيمة ، ولا تزال هذه الواجهة ثابتة ثبات الأطواد في وجه القوة الفرنسية ، بحيث لا وجود لسلطة الاستعمار فيها إلا في بعض المدن والقرى الكبيرة . أما البادية ، وبقية القرى ، والطرق فهي تحت حكم أو تحت إشراف المجاهدين . ويقود هذه الواجهة ويدبر أمورها ، القائد « المبروك » .

جبال الوسط والجنوب

تعتبر جبال تيطرى والونشريس ، وهى العمود الفقرى لجبال الاطلس التلى ، واجهة ثانوية ، تشد ازر الواجهات السابقة ، وتساعد على أعمالها ،

ب تراقب جهات البليدة ، والمدينة ، والبرواقية ، وثنية الحد ، وقصر بخارى ، فالاستعمار فى هذه الناحية كلها يذوق كل يوم وكل ليلة العذاب ليم ، وتحطم منشآته ، وتحرق مزارعه ، ولا يستطيع الجندى الفرنسى يجتاز هذه المنطقة الحيوية لمواصلاته إلا بجهد جهيد ، وبعد تكبد خسائر حقة مستمرة . وقد ذهبت كل جهوده لاختاد حركتها أدراج الرياح .

أما فى جبال الجنوب ، فإن حركة الثورة قد امتدت واشتدت ، وشملت التوالى جبال الزاب (وكانت السابقة منذ عهد الثورة) ثم جبال عمور ، خيراً جبال القصور إلى الحد المر اكشى الجنوبي . وهذه حركة خطيرة جداً النظام الفرنسى فى سائر جهات إفريقيا المستعمرة : لأن الطرق الاستعمارية الكبرى ، التى تصل شمال الجزائر ببلاد الجنوب وتتسرب إلى الصحراء الكبرى ، وإلى موريطانيا ، وإلى التشاد وغيرها ، تجتاز هذه الجبال ، فإذا انقطعت هذه الطرق ، أو أصبحت غير آمنة ، لم يبق للفرنسيين من نائل الاتصال ، إلا طريق الجو .

فجماعة الأوراس وإزاب قد جعلوا طريق سوف الثائر وتقرت وورقلة ، صالحة للاستعمال ، وجماعة جبال أولاد نائل ، يهددون كل يوم وكل الطريق العسكرية الكبير الذى يصل الجلفة بالأغواط . فلا تسير ، إلا القوافل المسلحة ، ولا تمر غالباً إلا بعد معارك ومقتلة عظيمة .

وجماعة جبال القصور قد أعدموا المواصلات الفرنسية على طريق البيض جرفيل « وعين صفراء . ثم أن انتشار الثورة فى هذه الجبال المتواصلة ،

جال الأطلس الصحراوي ، من الأوراس شرقاً ، إلى القصور غرباً ،
يحصر الجند الفرنسي في المنطقة الشمالية ، ويفصل بين الشمال والجنوب ،
ويجبر الفرنسيين على حشد قوى عظيمة بهذه الجهات الوعرة ، كيلا يفقدوا
بصفة تامة كل اتصال بالجنوب ، فهذه العمليات خففت الضغط كثيراً
على الواجهات الست الآتية الذكر .

وختاماً فلا يجب أن نغفل نتيجة اشتعال الثورة بجبال القصور ، ألا
وهي وقوع المعارك الحربية الكبيرة على حدود المغرب الأقصى ، واستيلاء
المجاهدين فعلاً على واحات الفتيق ، وجهات بشار الجنوبية .

الجهة الداخلية : المدن ، الطرقات ، المزارع ، المنشآت

العمليات في كل منطقة من مناطق الثورة التي فصلناها فيما سلف ،
تقع على ثلاثة أنواع :

أولاً : معارك حربية ناشطة ، قوية ، تقع بصفة مستمرة بين المجاهدين
والجند الفرنسي في حالة ما إذا أراد هذا الجند مهاجمة مركز المجاهدين ، أو
اجتياز طريق يكمن فيه المجاهدون ، أو في حالة ما إذا رأى المجاهدون مهاجمة
مركز فرنسي لتحطيمه ، وقتل حاميته أو أسرها ، والاستيلاء على سلاحها .

ثانياً : داخل المدن والقرى الكبيرة التي يحتلها الفرنسيون ، ومنها
العواصم كمدينة الجزائر ، وقبطنطينة ، ووهران ، وتلمسان ، وعنابة ،
وبجاية ، وسكنة ، وبسكرة ، وباطنة ، وغيرها ؛ يوالى المجاهدون .

أعمالهم دون انقطاع ، منذ ما شبت الثورة إلى الآن ، فيقتلون الجند وكبار المستعمرين ، ويقتلون كبار الخونة المحكوم عليهم بالاعدام من قبل محاكم الثورة ، وينسفون المراكز الحكومية ، ويهاجمون الثكنات للاستيلاء على الأسلحة ؛ ويحرقون في المدن والقرى والبادية سائر المدارس الحكومية التي يسكنها الجند ويتخذ منها ثكنات ، وسائر ديار حراسة الغابة التي صارت مراكن عسكرية استعمارية ، بحيث أصبح الأوربيون من سكان المدن والقرى في حالة ذعر وخوف شديدين . فإذا علمنا أن هؤلاء السكان هم عمدة الاستعمار ، وهم أكثر الناس معاكسة لآمال الجزائريين ، وأنهم قد تسلحوا وشكلوا فرق « الدفاع الذاتي » لصيد المسلمين والامعان في قتلهم وتعذيبهم ، رأينا جدوى عملية المجاهدين داخل المدن والقرى ، فلولا هذا العمل الذي أصبح كابوساً جاثماً على صدر الجند الفرنسي وعلى صدر غلاة رجال الجالية الفرنسية ، لأمعنوا في قتل وتعذيب الجزائريين والاعتداء عليهم بصفة لا يتصورها العقل .

ثالثاً : بما أن الاستعمار مادي بحت ، دينه المال ، ومبدؤه الثروة ، وعاقبته الرقابة ، فيجارية الاستعمار لا تقع في الميدان الحربي ، وبعمليات ضد الجند الفرنسي فحسب ، بل تقع إلى جانب ذلك وأكثر من ذلك ، في الميدان الاقتصادي .

فالمجاهدون في كل منطقة من مناطق الثورة قد خربوا معظم الثروة الاستعمارية الفرنسية ، وحطموا أغلب المزارع ، واحرقوا أكثر المزارعات .

بوقطعوا أشجار الكروم والأعشاب التي هي منبع ثروة الاستعمار . فكانت
خسارة المستعمرين من هذه الناحية تتجاوز حسب إحصاء مبدئي مبلغ
٣٥٠ ملياراً من الفرنكات ، (٣٥٠ مليون جنيه) واضطراً أكثر المستعمرين
في الداخل إلى الالتجاء إلى المدن تاركين القرى والمزارع المحطمة للمجاهدين

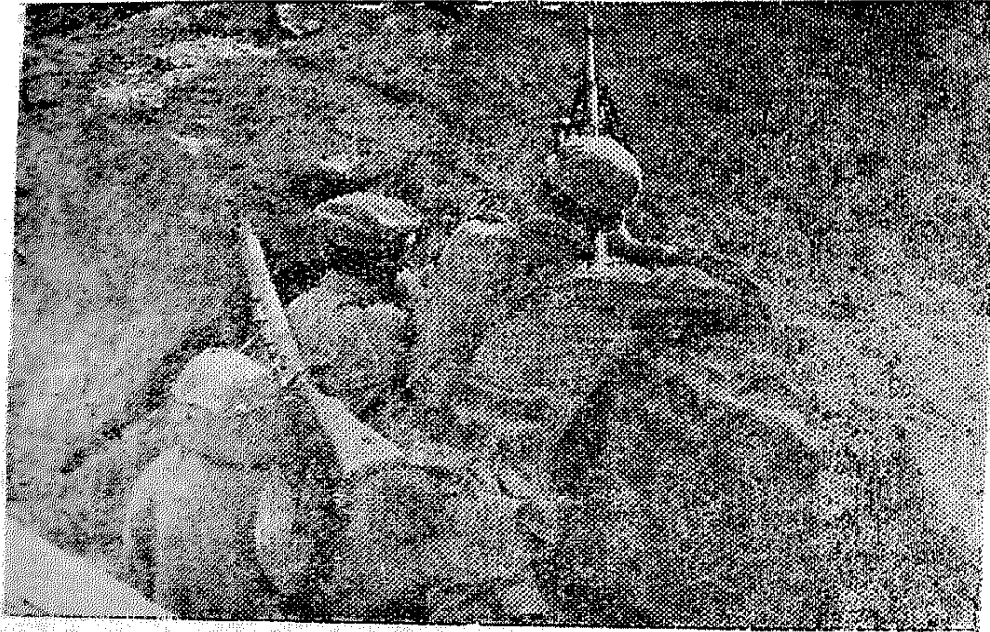
القوى المتقابلة

قوة المجاهدين

أنت ترى من هذا العرض البسيط المختصر ، أن الثورة قد شملت كل
جهات القطر الجزائري ، وأنهم — تحارب الاستعمار عسكرياً واقتصادياً
و « عصبياً » في كل مكان : في كل بادية ، وفي كل جبل ، وفي كل مدينة
وفي كل قرية ، فما هي قوة المجاهدين يا ترى ؟ وما هي القوة التي تقابلهم
بها فرنسا ؟ وما هو البوان الشاسع بين القوتين من جهة السلاح ؟ .

إن القوة الأساسية التي يعتمد عليها المجاهدون الأبرار ، هي قوة الروح ،
قوة المزيمة ، قوة الإيمان . وتلك قوة ما غلبتها في العالم قوة .
فالمجاهدون المسلحون ، لا يتجاوز عددهم في القطر الجزائري بأسره
الثلاثين ألف رجل . وهم ينقسمون إلى قسمين :

١ — الجند النظامي الجزائري ، وعدده نحو خمسة عشر ألفاً ، وهو
يرتدى اللباس العسكري الكاكي اللون . ويخضع لنظام عسكري في انقياد
صارم ، ويتألف معظمه ممن خدموا الجندية من قبل ، وشاركوا في الحرب



(ش ٣٠)

الجنـد النظامي في خندق يتنازل طائرة

الكبرى أو حرب الهند الصينية ، وفيه جمع عظيم من الجزائريين الذين فروا من الجندية الفرنسية ، وانضموا للمجاهدين بسلاحهم وعتادهم ، إلى أن تفاقم أمرهم ونما عددهم ، فاضطرت فرنسا لتسفير الجنود المسلمين العاملين في صفوفها كرها ، إلى خارج البلاد .

٢ - نحو خمسة عشر ألفاً من المجاهدين المتطوعين ، الذين تدربوا على حرب الكمين ، وأغلبهم جاء من الجهات التي دمرها الجند الاستعماري تدميراً ، وارتكب فيها الموبقات والفظائع والآثام . فهؤلاء المتطوعين جاؤوا انتقاماً لعرضهم ولشرفهم ولأمواتهم ، والمشاركة في تقويض أركان هذا الاستعمار الآثم الذي أفقر البلاد وأذلها ، وأراد أن يستأثر فيها بكل شيء ، فانتزعت الثورة منه كل شيء .

السلاح :

البندقية والخنجر والمسدس . ذلك هو السلاح الأساسي لفرق المجاهدين ، وخاصة المتطوعين منهم .

أما الفرق النظامية ، فتملك الرشاشات ، والبندقيات السريعة الطلقات (المترايات) وتستعمل القنابل اليدوية بكثرة وإجادة .

ولدى الكثير من فرق المجاهدين ، وخاصة في الأوراس ، وجهات الشمال الشرقي الجزائري ، والبلاد القبائلية والوهرانية ، عدد من المدافع المضادة للطيران وعدد من مدافع الهاون ، وبعض القطع المدفعية الجبلية ، وقد غنموا أغاب ذلك من الفرنسيين .

فقليل من هذا السلاح كان موجوداً بالبلاد ، مدخراً لوقت الحاجة .

وقليل منه جاء البلاد أيام الثورة بواسطة التهريب ، وقد اشترى من مختلف الأسواق العالمية . أما معظم السلاح ، فقد غنمه المجاهدون من الجند الفرنسي ، أثناء المارك ، بواسطة الهجوم على الثكنات والمراكز ، أو جاء به الجنود الجزائريون الذين كانوا يعملون تحت راية الجندية الفرنسية فهذه القلة في السلاح ، هي التي جعلت الحرب تطول في البلاد الجزائرية مدة عشرين شهراً إلى اليوم . ولو كنا نملك في القطر الجزائري عشرين ألف بندقية ورشاشه إلى جانب ما لدينا ، لكنا قد صفينا حسابنا مع الاستعمار منذ أشهر طويلة .

الرديف :

ذلك أنه يوجد نحو الثلاثمائة ألف رجل من الأشداء الأقوياء ، يرغبون المشاركة في أعمال القتال ، ويريدون الاندفاع في معركة التحرير ، وقد سجلت مختلف قيادات الثورة أسماءهم ، لكن قلة السلاح تركبتهم ينتظرون ، فما سقط مجاهد في ميدان الشرف ، إلا وأسرعت جماعة من رجال الرديف تتزاحم على أخذ بندقيته ، واحتلال محله .

القيادة :

كل منطقة من مناطق الثورة تقع تحت سلطة « القائد العام » الذي يعتبر المسئول لدى جيش التحرير الوطني عن كل ما يقع داخل منطقة الثورة عنده .

وتجتمع حول القائد العام هيئة أركان حرب ، مؤلفة في أغلبيتها من قدماء ضباط الجند الذين عمل أكثرهم في الحرب الكبرى وحرب الهند الصينية ، وإلى جانب القيادة العسكرية يوجد « المندوب السياسي » الذي يمثل جبهة التحرير الوطني ، ويسهر على نظام المنطقة ويشرف على إدارتها ، ويتولى الضباط الجزائريون الأقدمون قيادة الجند ، على نفس نظام الجند الفرنسي ، ثم أن عدداً من هؤلاء الضباط يقودون وينظمون أمور الفرق المتطوعة التي تعمل إلى جانب الجند النظامي وتحت أمره .

ولكل منطقة من مناطق الثورة أستقلال واسع في إدارة حركاتها العسكرية . إنما هي تنفذ بكل دقة أوامر وتوجيهات « القيادة العليا للجيش التحرير الوطني » الموجودة بالبلاد الجزائرية .

الشعب :

أما نظام التموين ، والتمريض ، وتهيئة الألبسة ، فكل ذلك من عمل السكان المدنيين ، فالأمة الجزائرية كلها مجندة تجنيداً فعلياً في هذه المعركة . ولا يستطيع انسان أن يدعى بأن جزائرياً واحداً لم يقم بواجبه في هذا النضال الوحيد في العالم . فكل رجل مدني تابع لجيش من الجيوش ، عامل ضمن إطار قيادة من القيادات العامة . فهناك الفرق المدنية التي تعمل لتزويد الجيش بالمال ، وهناك الفرق التي تعمل على تهريب الأسلحة ، وهناك الفرق التي تقيم في ديارها نوعاً من المستشفيات البسيطة التي يعمل بها الرجال والنساء لمعالجة الجرحى ، أما نساء سائر

فقوة المجاهدين الحقيقية ، ليست في الثلاثين ألف قطعة من السلاح الخفيف التي يملكونها ، إنما هي كما قلنا ، قوة إيمانهم ، وعزمهم على الخروج من المذلة والهوان ، من جهة ، والتفاف الأمة حولهم ، رجالا ونساء التفافا روحانيا صادقا ، لا يضعف ولا يتزعزع ، من جهة أخرى .
وكم من فئة قليلة غابت فئة كثيرة بأذن الله . والله مع الصابرين .

حكم الجهات المحررة .

الجهات المحررة - وهي كثيرة في القطر الجزائري - تقع من ناحيتها العسكرية والمدنية تحت إشراف وإدارة القائد العام ؛ ويعينه « المرشد



(شكل ٣٣) فريق من المجاهدين النظاميين ، عند رجوعهم من معركة
(م - ١٥ هذه هي الجزائر)

السياسى « الذى يتولى السلطة باسم جبهة التحرير الوطنى . و هذه السلطة :

أولاً : القضاء ، ويتولاه أحد الشيوخ ، العلماء أو الطلبة ، أهمية السكان ، فيحكم بين الناس بما أنزل الله . ولا تصدر أحكام فى لأن الأمة قد اختمرت بفكرة الثورة ، وأندجت فى روحها ، بالانقلاب فى اسمى معانيه ، فتركت النزاع والخصام وأقبات على الجماعى المنظم . فان شجر خلاف فسرعان ما يحله « القاضى » - غالباً من المدارس العربية الحرة - بواسطة الأفاع والتراضى .

ثانياً : الجباية ، فيقوم مستخلص الضرائب القومى بأخذ الف المستحقة على الناس ، حسب الدفاتر الحكومية القديمة ، ويسلم الوصل الذى يبرىء الذمة . وقد أقبل الناس إقبالا منقطع النظير ، سائر ما عليهم من الضرائب ، ومنهم من تطوع إلى جانب ذلك بمغ أو بكل ماله نصراً للثورة وتأيداً لها .

ثالثاً : المرافق العامة ، كإصلاح الطرقات ، وإحياء الأرض ، والأغذية ، وإعانة الفلاحين على البذر ، والعناية بالمرضى والفقراء ، المدارس ، وتمهد الأمة ، وتهيئها للدور العظيم المقبل ، دور والاستقلال . وفى كثير من الجهات ، تولت السلطة القومية توزيع الاستعماريه على مستحقيها ، توزيعاً فردياً أو جماعياً . ويمين « السياسى » على مهام مسئولياته ، جماعة من قدماء الموظفين المحليين الـ

أن ثبت صلاحهم وإخلاصهم ، أو جماعة من الذين لم تستعملهم الجندية .
ويجتمع حوله غالباً « مجلس جماعة » يمثل أحسن تمثيل سكان المنطقة .

القوة الفرنسية :

لم يؤمن الفرنسيون لحقهم وغرورهم ، بالثورة وقوتها ، فى الأيام الأولى .
وقد ظنوا أنها فوران محلى لا يلبث حتى ينتهى أمره فى بركة من الدم وأنون
من النار . كما انتهى أمر الثورات السابقة . وقد خالوا أنهم قد قضوا القضاء
البرم على الأمة الجزائرية ، فلا يمكن أن تقوم لها قائمة ، بثورة أو بأعمال
إيجابية حقيقية .

لذلك اكتفوا بإرسال مالدتهم من القوى أول يوم ، أى نحو المائة ألف
جندى ، ووزعهم على بعض النقاط الحساسة ، ورموا ببعضهم فى ميدان
الأوراس قصد إخماد حركته والتنكيل بأهله . ثم أخذوا يستعملون وسائل
الزجر والفظاعة للقضاء على الثورة ، كما سيمرىك . لكنهم رأوا أنهم
همما ازدادوا إمعاناً فى سياسة البطش والتنكيل ، إلا وازدادت الأمة اندفاعاً
فى ميدان الثورة وتأييدها والالتفاف حولها ، وعندئذ أخذوا ينادون بالويل
والثبور ، ويرسلون بالنجيدات ، ويأتون بكل أنواع الأسلحة ماخف منها
وما تكل ، وأعلنوا فى بلادهم نوعاً من التجهيز العام ، على كره من الأمة ،
خاصت بحت قوتهم اليوم فى قطر الجزائر تشمل :

أولاً : ٤٠٠ ألف جندى ، من الفرق التى ساحتها أميركا لمواجهة
ها اصطالحوا على تسميته بالخطر الشيوعى فى أوربا .

ثانياً : ١٠٠ ألف رجل من رجال الشرطة والجند رمة والحرس الوطنى وكلهم مسلح مشارك فى العمليات .

ثالثاً : ١٠٠ ألف من السكان المدنيين الفرنسيين ، الذين وزعت عليهم الأسلحة الخفيفة ، داخل المدن والقرى ، ليتولوا أمر الدفاع عن أنفسهم ضد الجزائريين ، وألف هؤلاء المدنيون الأوربيون فرقامن «الميليشيا» قامت بأدوار فظيعة فى ميادين العدوان على الجزائريين الآمنين ، وقتلت الجموع الكبيرة منهم أشنع قتلة ، ولولا خوفها من رد الفعل القوى ، لاستمرت على أعمالها الفظيعة . ولقد توزعت الفرق العسكرية الفرنسية على مختلف المدن والقرى والمنشآت العامة والجسور والسدود وغيرها ، لحراستها ، وحراسة السكان المدنيين الأوربيين ، وخصص قسم منها كبير ، لمجابهة الثورة



(شكل ٣٤) بعد المعركة . قتلى من الفرنسيين وأسرى بين يدي أبطال جيش التحرير الوطنى

ومحاولة كسر شوكتها أو الوقوف دون امتدادها . وأنت تعرف ماذا كانت النتيجة ...

أما السلاح الفرنسي ، فهو مؤلف من تلك الأسلحة الحديثة الصنع ، المختلفة الأنواع والأشكال التي أمدت بها أميركا الجندية الفرنسية ، حسب نظام حلف الدفاع « الأطلسي » والتي كانت مهيئة لمواجهة روسيا ودول الحلف الشرقى .

فالجند الفرنسي فى القطر الجزائرى مجهز أعظم تجهيز ، بحيث أن القوة التى يقابل بها الشعب الجزائرى اليوم ، أعظم من القوة التى قابل بها سيل الجند الألمانى الهتلرى عام ١٩٤٠ .

ويعتمد الفرنسيون زيادة على أسلحتهم المختلفة ، على ١٤٠٠ طائرة مختلفة الأنواع ، و ٨٠ طائرة عمودية من نوع الهليكوبتر ، و ١٧٠٠ دبابة وسيارة مصفحة ، إلى كامل ما يلزم الجندية الحديثة من آلات وأدوات ، ومستشفيات متنقلة ، وآلات الاتصال اللاسلكى ، وغير ذلك . مع أسطول بحرى ضخم .

كل هذا تقابله الأمة بقوة إيمانها ، فتتغلب عليه ، ويقابله المجاهدون ببنادقهم القليلة ووسائلهم الضعيفة ، فيقهرونه ، ويهزمونه . وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

التربيعة :

لكن الجند الفرنسي لا يعتمد في حربه مع الجزائريين على الطرق الحربية المألوفة ، ولا على المقابلات الشريفة العسكرية في ميدان القتال وجها لوجه . إنه لمجزه وفتوره لا يكاد يقابل المجاهدين إلا ما عندما يجبرونه على المقاتلة ، إنما يصب جام انتقامه ويسلط سوط عذابه على الجموع المدنية ، في القرى والبادى والمدن ، فيقتل دون شفقة ولا رحمة ، ويسلك سياسة الإفناء الجماعى بصفة لانعرف أنها وقعت في حرب استعمارية أخرى .

والتربيعة هي آخر اختراعاته : يحدد فوق الخارطة مربعا من الأرض في الجهة التي تقع تحت تصرف الثورة ، ثم يحيط الجند بذلك المربع ، وتنصب حوله المدافع المختلفة ، وتحوم الطائرات فوقه ، وتسدد نحوه بطائرات السفن الحربية مدافعها إن كان قريبا من البحر . وفي الساعة المعينة ، تنقض سائر القوى من البر والبحر والجو على ذلك المربع ، فتتركه بعد حين قاعا صفصفا ، وتترك سائر ما فيه من قرى ومشاتي وغيرها .

فالرجال المسلحون يعرفون المسالك . ويسرعون ساعة ابتداء القذف إلى مخابئهم ، ريثما يتمكنون من الإنسحاب خارج المنطقة الجهنمية ، بينما يحصد الموت الزؤام كل إنسان من المدنيين وكل حيوان داخل تلك المنطقة .

ولقد تكررت مثل هذه العملية مرارا عديدة ، وخاصة بمنطقتي الثورة في الشمال الشرقى ، وفي وادى الساحل ، وفي بعض الجهات من بلاد القبائل الكبرى ، بحيث جاوز عدد الضحايا المدنيين ، من جراء هذه



(شكل ٣٥) هكذا يقع التفقيش المحجل. كل يوم ، وفي كل مدينة أو قرية ، من قبل الجنود الفرنسيين بالبلاد الجزائرية

التربيعات وغيرها من أنواع المذابح الجماعية ، المائة والثلاثين ألفاً ، إلى يوم
٢٠ يوليو سنة ١٩٥٦ .

الفظائع والمنكرات :

ولقد خيل للجنود الفرنسي ، أنه يستطيع قهر قوة الشعب المعنوية ،
وإرغام المجاهدين على وضع السلاح ، بما يرتكبه في المدن والقرى والبوادي
من المذابح الفظيعة ، والقتل الجماعي ، والاعتداء على عفاف النساء ، وسرقة
الأمثلة ، وإتلاف المؤن والأقوات ، مما أصبح مضرب المثل ، ولا يستطيع
الإنسان أن يفصله على صفحات هذه الفدائس الوجيزة ، إنما هو مسجل
مسطور ، وستصدر به كتب ومجلدات ، لتخليد آثار المدنية الاستعمارية
الفرنسية ، في القرن العشرين .



(شكل ٣٦) هكذا يقع تشريد النساء والأطفال من مئات القرى ، لإنتقاماً من المجاهدين



(شكل ٣٧) جثث مئات من شهداء الجزائريين ، قتلوا أثناء عملية « تطهير » ومرضوا في اللعب البلدي بمدينة سكيكدة

السجون والمعتقلات :

أما في المدن وفي القرى ، فهناك أنواع من الإهانة ومن التعذيب تصب على الجزائريين ، لا يستطيع تحملها إلا من علم أنها نوع من أنواع الجهاد ، وأن يوم الحساب عنها قريب .

فأغلب رجال وشبان الطبقة المثقفة من الأمة ، أودعوا السجون ، أو سيقوا إلى الفسيح من المعتقلات . وفي السجون اليوم ١٤٩ رجلا قد حكم عليهم بالإعدام ، ونحو الأربعة آلاف ممن صدرت عليهم أحكام تتراوح بين العامين سجنًا ، والأشغال المؤبدة . وثلاثة آلاف رجل لا يزالون ينتظرون ما تأتي به أيام الاستعمار ولياليه ، فهم كل يوم في خطر جديد .

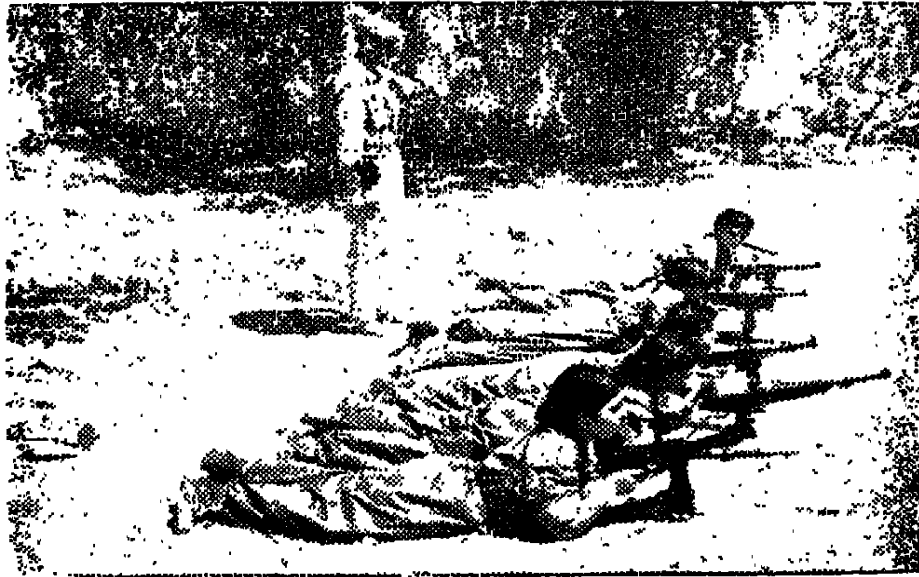


(شكل ٣٨) البنت الجزائرية تعمل في مركز قيادة عامة

أما المعتقلات ، وهى ١٩ فقد جمعت أغلب النخبة المفكرة العاملة من الأمة . وبين جدرانها أو أسلاكها الشائكة نحو عشرة آلاف رجل هم نخبة رجال الأمة وزهرة شبابها .

وقليل من رجال الأمة ومفكرها ، ممن لم يتمكنوا من الالتجاء لمناطق الثورة ، قد استطاعوا الاختفاء أو السفر للخارج .

وهكذا تحاول السلطة الفرنسية ، بواسطة القتل الجماعى والفتك الذريع ، وبواسطة السجون والمعتقلات ، وبواسطة الفظائع والموبقات والآثام ، أن تحطم إرادة الثورة ، وأن تنال من عزيمة الثائرين المجاهدين . أما فى المدن ، فباب القتل والتنكيل مفتوح على مصراعيه . والتفتيش المؤلم الجارح يشمل فى كل بلدة عشرات الآلاف من الرجال والنساء .



(شكل ٣٩) البنات الجزائرية ، تتدربن على استعمال الأسلحة الحديثة
استعداداً لحوض معركة الحياة والشرف

ومنهم من يؤخذ بعد التفتيش إلى ساح الإعدام دون محاكمة أو سؤال ، وعددهم كثير جداً ، ومن أشهرهم الحكيم الكبير الدكتور ابن دزيرجب ، القلمساني ، والأديب الكبير الأستاذ أحمد رضى حوحو القسطنطيني ، والمئات من أضرابهم ، رحمهم الله ، وعوض الأمة عنهم خيراً .

* * *

وماذا كانت نتيجة كل هذا ياترى ؟

كانت النتيجة ، بعد عشرين شهراً من إعلان الثورة ، وبعد المذاب والتنكيل والزجر ، وبعد الآثام والموبقات العسكرية ، وبعد الآتيان بقوة تستطيع تدويخ دولة من الدول الأوروبية ، كانت النتيجة اليوم ، موفى يوليو ١٩٥٦ ، أن فرنسا الاستعمارية قد أصابها الوهن ، وما أصاب الوهن الأمة الجزائرية .

كانت النتيجة ، أن المجاهدين قد ثبتوا في سرا كزهم ، كل مرا كزهم ، وأنهم يوسعونها شيئاً فشيئاً .

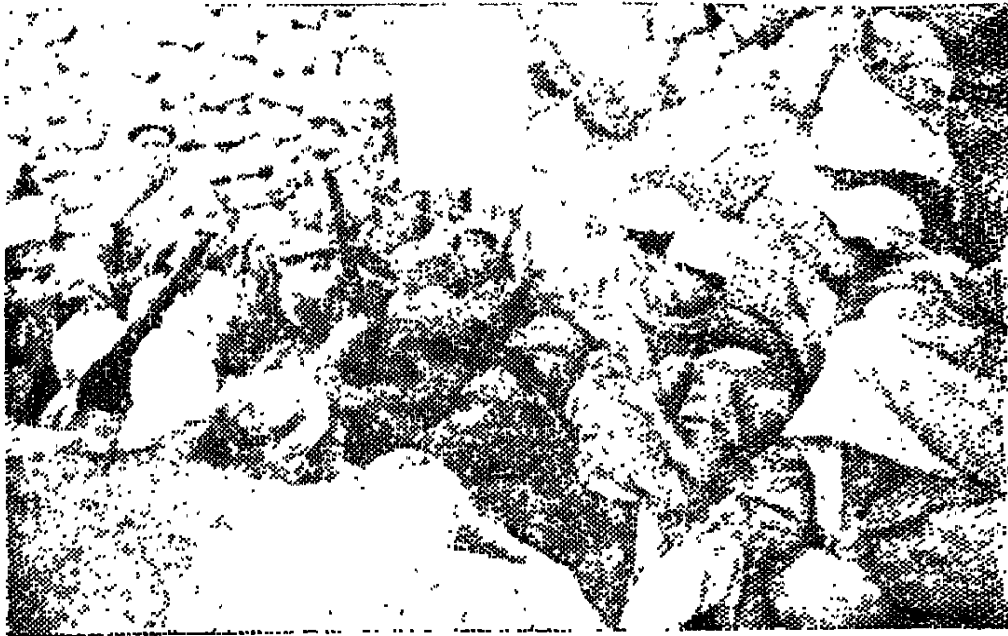
كانت النتيجة ، أن الأمة الجزائرية قد اشتدت مقاومتها ، وتصلبت تصلباً فاق الرقم القياسي الذي كانت مشتهرة به منذ أقدم المصور .

كانت النتيجة ، أن الأمة مستعدة اليوم لخوض معركة تدوم إلى ما شاء الله ، بينما أخذت فرنسا تتعامل ، وازدادت نعمة رأيها العام على حكومتها ، وتكاد تعلن الانتفاض على سياسة هذه الحزب الاستعمارية الفاشلة .

كانت النتيجة ، أن المجاهدين يثبتون ، وأن الأمة تلتف حولهم كأنها

درع من زرد ، بينما الفرنسيون يتظاهرون ضد التجنيد ، وينامون فوق قضبان السكة الحديد ، لمنع القطار الذى يحمل المجندين عن المسير لأرض الجزائر .

كانت النتيجة ، أن فرنسا أصيبت بخراب مالى لا نظير له . فهى لم تستطع تحمل أعباء مليار فرنك يوماً ، نفقات هذه الحرب الجزائرية الفاشلة . وقد أصيبت معاملها بالشلل ، من جراء التجنيد الذى حرّمها من قسم من اليد العاملة ، وأصيبت تجارتها بكارثة فى الصميم ، لأن القطار الجزائرى الذى كان يغذيها ، وكان يطعمها ويسقيها ، قد أصبح لا يكاد ينتج شيئاً ، ولا يكاد يستهلك شيئاً من مصنوعاتها .



(شكل ٤٠) قرية تحتفل بمرور فريق مؤلف من الشابات والشبان وقد تجندوا واستعدوا للموت فى سبيل الحياة

نظرة الى الخارج :

فإذا ما نحن جللنا بأبصارنا جولة فاحصة حول أرجاء العالم ، وتأملنا وقع هذه الثورة المدهشة ، رأينا عجباً ، وسمعنا أعجب .

أنظروا الصحافة العالمية ، من أميركا إلى جنوب استراليا ، تروا أن الرأي العام العالمى قد أصبح مركزا حول هذه البقعة من الأرض الإفريقية ، أرض الجزائر المجاهدة ، يدرس قضيتها ويسجل أعمال مجاهديها ، ويحمل فى الغالب على الاستعمار الفرنسى حملات واسعة عريضة ، وينادى بوجوب إنصاف هذه الأمة التى نهضت كالرجل الواحد تريد حياة الحرية ، أو تريد موت الكرامة ، إنما لا تريد بحال ، ولا تقبل بحال ، ولا ترضى بحال ، أن تعيش يوما واحدا تحت سلطة الاستعمار وتحت قوانين الاستعمار .

أنظروا جامعة الدول العربية ، وانظروا مجموع الدول العربية ، وانظروا كل أمم العروبة على الاطلاق : لقد التفت كلها حول القضية الجزائرية التفاتا قلبيا صادقا ، وانفجرت براكين الشعور العربى حول الشعب الجزائرى ، حتى لاكان الجزائريين قد حلوا فى كل قلب عربى أبى ، ويتدفق هذا الشعور ماديا بشتى أنواع الإعانة ، فإن لم تكن هذه المعاونات متناسبة مع ثورة الشعور ، ومع حاجات الثورة الجزائرية ، فهى على كل حال موجودة ، وهى على كل حال مستمرة ، ونرجو أن تكون على كل حال سائرة فى طريق الزيادة لا فى طريق النقصان .

انظروا تونس والمغرب الأقصى ، ولا يزال استقلالهما في المهد صيبا ،
أنهما قد ربطتا رسميا مستقبلهما بمستقبل الكفاح في القطر الجزائري ،
وعلمتا علم اليقين ، وأعلنتا علمهما ، أنه لا استقلال لها بصفة حقيقية إلا متى
تحررت الجزائر من قيود الاستعمار ، وشدت أزر شقيقتي الشرق والغرب في
تضامن مغربي عربي متين ، فيه الرفعة والسؤدد والنهضة الكبرى .

انظروا ذلك الحدث العالمي العظيم ، ذلك المؤتمر الذي يعتبر انقلابا في
أوضاع السياسة وفاروقا بين العالم القديم والعالم الحديث : مؤتمر باندونج .
أرايتم ذلك المؤتمر الذي يمثل ثلاثة أرباع الأرض ؛ ويمثل قوى المستقبل
في هذه الدنيا ، يقرر الاعتراف بحق الشعب الجزائري في حريته ، والمناذات
باستقلاله ، ويقرر وجوب التضامن البشري حوله ، قولاً وعملاً وجهوداً
لكي يخرج من هذه المنطقة الاستعمارية الآفنة ، إلى منطقة النور والعلم
والكرامة والاستقلال والحريه ؟ .

انظروا هيئة الأمم المتحدة تقرر خلال دورتها السابقة (اكتوبر ١٩٥٥)
أن قضية الجزائر المجاهدة ليست قضية فرنسية بحتة حسب ادعاء فرنسا ،
بل هي قضية أممية ، وأن لهيئة الأمم المتحدة حق دراستها وفحصها ،
ووفق إصدار التوصيات بشأنها .

فإن لم يتم في تلك الدورة شيء ، خضوعاً للملابسات سياسية خاصة ؛
فالؤكد الذي لا ريب فيه هو أن هيئة الأمم ستدرس هذه القضية دراسة
عميقة أثناء دورتها المقبلة ، مفتح سنة ١٩٥٧ ، وستجد أغلبية محترمة تؤيد

الجزائر في مطالبتها بالحرية والاستقلال ، مطالبة سجلت بالدماء و بالأرواح .

انظروا الهند ، انظروا باكستان ، انظروا يوغسلافيا ، انظروا السوفييتي ، فالرجال المسئولون في كل هذه الدول ، قد تدخلوا رسميا فرنسا ، وسمعوا السعي الحثيث للتأثير عليها ، حتى تعدل عن سياسة العسكرية ، وقد ظهر عدم جدواها ، وتركن لسياسة التفاهم مع المجاهدة ، على قاعدة العدل والانصاف وحق تقرير المصير .

انظروا مؤتمر بريوني ، يسير له بطل العروبة جمال عبد الناصر ، له بطل الهند ، شري نهرو ، ويؤمه بطل يوغسلافيا المارشال : فيجتمعون ليفحصوا قضية الجزائر ، وليجدوا مخرجا عادلا للجزائر ، على الأسس التي وضعها مؤتمر باندونغ .

بل انظروا نفس حكومة فرنسا تنهار وتتخلى شيئا فشيئا عن س التقليدية المتطرفة ، فتقول رسميا أن الحل العسكري مستحيل في الجزائر ، أي أنها تعترف بصراحة أنها لن تستطيع التغلب على قوة ثم هي تعترف رسميا ، بأن الجزائر في الغد لن تكون قطعة من كسائر القطع الأخرى .

ثم انظروا نفس الأحزاب التي تشكل الأغلبية الحكومية ، في الحزب الاشتراكي يقرر في مؤتمره بمدينة ليل ، أن قطر الجزائر ينال نظاما مقبلا ، يملك قوة التشريع ، وقوة التنفيذ (حكومة) مع فرنسا بواسطة تعاقد حر . والحزب الجمهوري الشعبي يقرر أ

فدرالية تكون دولة الجزائر ضمن أعضائها . والجزائريون يرفضون كلا من الحلين ، لأنهما لا يحققان الاستقلال المنشود . أما الحزب الشيوعي ، فينادى بالاستقلال واعطاء الكلمة للشعب .

وانظروا الكثير من أحرار فرنسا ، والكثير من كتابها ، والكثير من فلاسفتها ، والكثير من صحافتها . يتألب كلهم للدفاع عن الحرية في قطر الجزائر . ويمنون في مهاجمة الاستعمار ، وإظهار عيوبه ومساويه . ومنهم من سجن في سبيل هذه الحملة الصادقة ، ومنهم من ناله الأذى الكبير . ولا يزالون مستمرين .

وهكذا مآل القضايا العادلة .

وهكذا يعلو الحق ولا يعلى عليه .

فكل يوم يمر علينا في هذه الثورة ، ونحن صابرون صامدون ، يحقق لنا كسباً جديداً ، ويقربنا من الهدف الاسمي خطوات شاسعة . فقضيتنا تتلخص في ثلاث كلمات :

سلاح . ثبات . انتصار ! .

* * *

إن حكومة فرنسا تراودنا اليوم على أنصاف حلول . تريد فرنسا أن توقف الحرب دون شروط ، مقابل اعترافها لنا باستقلال داخل واسع ، ضمن المنطقة الترابية الفرنسية ، على أن تجرى انتخابات حرة (؟) بعد ثلاثة أشهر من وقف الحرب ، لتقع المفاوضات مع وفد المنتخبين ، حول تنفيذ سياسة الإصلاحات الفرنسية المعروضة . والأمة الجزائرية ترفض هذه العروض السخيفة رفضاً حاسماً .

(م — ١٦ هذه هي الجزائر)

هذه هي إرادتنا . وهذا هو سبيلنا

فماذا تريد الأمة الجزائرية يا ترى ، من وراء هذه الحرب القاسية التي
تحملت وقرها عشرين شهرا ، والتي لا تزال مستعدة لتحملها ، إذا لزم
الحال ، أشهراً أخرى ، أو أعواماً أخرى ؟ .

ولماذا هي ترفض بإباء وشمم عروض فرنسا ؟

هل هي تحارب حبا في الحرب ؟ هل هي تقبل أن تحطم ديارها ويقتل
رجالها ونساؤها وتصاب بالضربات الفتاكة ، كما تصيب خصمها بالضربات
الفتاكة ، لمجرد التلذذ بالفناء ، والتسلية بأعمال الفتك والتخريب ؟
كلا !

بل هي تقول في لسان فصيح ، منطق ، معقول : أنها لن ترضخ أبداً ،
ومهما كانت الحالة ، ومهما تغيرت الظروف ، لحكم النظام الاستعماري
الذي ضرب عليها الذل والمسكنة ، والذي حال بينها وبين العلم والعمل
والثروة والسعادة ، والذي جعلها محكومة بغير بنيتها ، ووزع ثروتها على
غير ذويها ، وأبقاها تحت نظام هو شر أنواع النظم الرأسمالية ، بينما يستقبل
العالم أجمع حياة النور والحرية ، والعزة والكرامة . وما عروض فرنسا ،
مهما تفتنت في زخرفتها نفاقاً وتضليلاً ، إلا تثبيت للنظام الاستعماري ،
وقضاء على الحرية والاستقلال .

أمة الجزائر تريد الاستقلال بأرضها . الاستقلال بحكمها . الاستقلال
بتقرير مصيرها . تريد أن تكون أمة كسائر الأمم ، ودولة كسائر الدول ،
ذات جنسية كسائر الجنسيات ، وذات علم كسائر الأعلام . ثم أن أمة
الجزائر لم تصب بعدوى المنصرية ، ولا تريد أن تسقى غيرها من الكأس
التي سقاها بها . فهي في استقلالها المقبل ، الآتى قريباً لا ريب فيه ، تفسح
في وجه الفرنسيين الذين استقروا في أرض الجزائر ميادين العمل ، على
قاعدة التساوى التام ، على شرط أن يعتنقوا غلصين الجنسية الجزائرية ،
وعلى شرط أن لا يكون لهم أدنى امتياز ، مها كان أمره على بقية
المواطنين ، لا من حيث السكم ، ولا من حيث الكيفية .

ولا تتسامح الأمة الجزائرية في أى شبر من تراب أرضها ، كما هو محدد
الآن ، وخاصة صحراءها الجنوبية التي هي جزء لا يتجزأ من تراثها القومى .
فما تدعيه فرنسا هذه الأيام من محاولة بتر الصحراء عن أرض الجزائر ،
إنما هو ادعاء باطل خاسر ، تقف الأمة الجزائرية ضده موقفاً صارماً لا هوادة
ولا لين فيه .

وأمة الجزائر تريد أن تكون دولة ديمقراطية حرة ، تسير مع العالم
الحديث متساوية في الحقوق والواجبات ، واضعة جهودها في خدمة المثل
العليا الإنسانية ، وتحقيق السلام العالمى الدائم . مع شقيقاتها من الدول
العربية الحرة .

إنها تعلم أن كل حرب لا تنتهى إلا بمفاوضات . وإنها تعلم أن حربها هذه لا تنتهى كذلك إلا بمفاوضات . لكن هذه المفاوضات لا يمكن أن تقع — بصفة مباشرة أو بصفة غير مباشرة — إلا على هذه الأسس :

أولها : الاعتراف الصريح من الجانب الفرنسى ، باستقلال البلاد الجزائرية ، استقلالاً تاماً ، يشمل كل مظاهر السيادة القومية ، وخاصة التمثيل السياسى ، والقوة العسكرية الوطنية .

وثانيها : اطلاق سراح سائر المسجونين والمعتقلين من أحرار البلاد .

وثالثها : المفاوضة مع جيش التحرير الوطنى وجبهة التحرير الوطنى بعد ذلك الاعتراف لوقف أعمال الحرب ، والأقدام على بناء المستقبل الجزائرى المستقل والقضاء على مخلفات الاستعمار ، وذلك بواسطة حكومة جزائرية حرة ، تشرف على انتخاب مجلس تأسيسى حر .

هذا هو الحل الوحيد ، العادل ، الإنسانى ، الذى تريده الأمة الجزائرية والذى هى مستعدة لقبوله والعمل به منذ الساعة ، متى رضخ الخصم للحق ، وكف عن العناد الاجرامى .

إنها تكافح وتنتظر ، ولا تمل الكفاح ولا تمل الانتظار ، لأنها واثقة من الفوز والانتصار .

أحمد توفيق المدنى

الفهرس

٥٣	الفتح العربى ،	١١	التعريف بالبلاد الجزائرية
٥٥	الدولة الرستمىة ،	١٢	ساحلها — حدودها ،
٥٧	التوحيد الفاطمى ،	١٣	مساحتها ،
٥٨	دولة بنى حماد ،	١٣	الثل والساحل ،
٦١	التوحيد « الموحدى » ،	١٥	النجد ،
٦٣	دولة بنى زيان ،	١٧	الصحراء ،
٦٧	الجمهورية الجزائرية ،	١٩	المحقات والطوارق — الأمطار ،
٧٦	الأحتلال الفرنسى ،	٢٠	الأودية والأنهار ،
٨٠	تسكية شرقية عامة ،	٢٢	السياخ والبحيرات ،
٨٣	روح الفضال الشعبى ،	٢٣	السدود ،
٨٤	أحمد باشا ،	٢٥	الغابات ،
٨٥	الأمير عبد القادر ،		سكان القطر الجزائرى
٥٩	فظائم وأهوال ،	٢٧	الإحصاء ،
	تخطيط أمة	٢٩	العرب ،
٩٦	استقرار الفرنسيين ،	٣٢	الأمازيغ (البربر) ،
٩٩	الحكومة ،	٢٤	الفرنسيون ،
١٠٠	العمالات (المديريات) ،	٤١	اليهود ،
١٠١	البلديات ،		تاريخ القطر الجزائرى
١٠٣	المجلس الجزائرى ،	٤٥	الفينيقيون ،
١٠٥	المجالس العمالية — والبلدية ،	٤٦	قرطاجنة وسلطانها ،
١٠٦	الجماعات — المجالس الفرنسية ،	٤٧	ملوك نوميديا الوطنيون ،
١٠٧	الأرض والاستعمار ،	٤٨	الاستعمار الرومانى ،
	الفلاحة : الأعشاب القمح — الشعير ،	٥٢	الوندال ،
	الطباق — الحلفة — الزيتون — ،	٥٣	الروم ،
١١٢	النخيل — التين — الماشية ،		

الفهرس

٥٣	الفتح العربى ،	التعريف بالبلاد الجزائرية
٥٥	الدولة الرستمية ،	١١ ساحلها — حدودها ،
٥٧	التوحيد الفاطمى ،	١٢ مساحتها ،
٥٨	دولة بنى حماد ،	١٣ التل والساحل ،
٦١	التوحيد « الموحدى » ،	١٥ النجود ،
٦٣	دولة بنى زيان ،	١٧ الصحراء ،
٦٧	الجمهورية الجزائرية ،	١٩ الملحقات والطوارق — الأمطار ،
٧٦	الأحتلال الفرنسى ،	٢٠ الأودية والأنهار ،
٨٠	تكبة شرقية عامة ،	٢٢ السباخ والبحيرات ،
٨٣	روح الفضال الشعبى ،	٢٣ السدود ،
٨٤	أحمد باشا ،	٢٥ الغابات ،
٨٥	الأمير عبد القادر ،	سكان القطر الجزائرى
٥٩	فظائم وأهوال ،	٢٧ الإحصاء ،
	تخطيط أمة	٢٩ العرب ،
٩٦	استقرار الفرنسيين ،	٣٢ الأمازيغ (البربر) ،
٩٩	الحكومة ،	٢٤ الفرنسيون ،
١٠٠	العمالات (المديريات) ،	٤١ اليهود ،
١٠١	البلديات ،	تاريخ القطر الجزائرى
١٠٣	المجالس الجزائرى ،	٤٥ الفينقيون ،
١٠٥	المجالس العمالية — والبلدية ،	٤٦ قرطاجنة وسلطانها ،
١٠٦	الجماعات — المجالس الفرنسية ،	٤٧ ملوك نوميديا الوطنيون ،
١٠٧	الأرض والاستعمار ،	٤٨ الاستعمار الرومانى ،
	الفلاحة : الأعناب القمح — الشعير ،	٥٢ الوندال ،
	الطباق — الحلفة — الزيتون — ،	٥٣ الروم ،
١١٢	النخيل — التين — الماشية ،	

١٦٨	حزب الشعب الجزائري ،	١٤٢	الثروة المعدنية ،
١٦٩	برنامج فيوليت ،	١٢٦	الصناعة والتجارة ،
١٧٠	المؤتمر الإسلامي ،	١٢٩	المراسي الجزائرية ،
١٧٢	لمضطهاد حزب الشعب ،	١٣٠	المواصلات ،
١٧٣	الحرب العظمى الثانية ،		نتائج المأساة الاقتصادية (الأجور
١٧٤	أحباب البيان والحرية ،	١٣٠	البطالة — المسكن — المرض — الهجرة
١٧٦	٨ ماي ١٩٥٤ ،	١٣٨	القضاء ،
١٨٠	الدستور الجزائري ،	١٣٩	سياسة التجهيل ،
١٨٢	التدليس والتزوير ،	١٤٤	التعليم الحر ،
١٨٥	خشب مسندة ،	١٤٦	التعليم الفنى ،
١٨٦	فضاعة وأهوال ،	١٤٧	الدين الإسلامى ،
١٨٧	التنكيل بحزب لانتصار الحريات ،	١٤٩	المعجزة النفسية ،
١٨٨	جبهة الدفاع عن الحرية ،		المقاومة
١٨٩	مقاطعة الانتخابات ،	١٥١	الزعاطشة ونسبتها ،
١٩٠	لانتقام حزب لانتصار الحريات ،	١٥٢	ثورة أولاد سيدي الشيخ ،
١٩١	لجنة الثورة للعمل والاتحاد ،	١٥٤	ثورة الجرجرة ،
	الثورة الكبرى	١٥٦	البدوى ،
		١٥٧	الاوراس ،
١٩٣	لاندلاع الثورة ،	١٥٧	المقاومة السياسية ،
١٩٦	العيد القومى ،	١٥٨	أول مقاومة قلمية وطنية ،
١٩٧	جبهة التحرير الوطنى ،	١٦١	الحرب الكبرى الأولى ،
	المنشور الأول المناهجى	١٦٢	قوانين ٤ فيفرى ،
١٩٩	لجبهة التحرير الوطنى ،	١٦٣	الأمير خالد الهاشمى ،
٢٠٣	المفاوضات ،	١٦٤	نجم شمال أفريقيا ،
٢٠٥	الحركة الوطنية ،	١٦٥	نادى الترقى ،
	جبال أوراس ،	١٦٦	جمعية العلماء ،
		١٦٧	وحدة النواب ،

٢٢٣	الرديف — القيادة ،	٢١٠	، النمامشة ،
٢٢٤	موقف الشعب ،	٢١١	القبائل الكبرى ،
٢٢٥	حكم الجهات المحررة ،	٢١٣	الشرق ،
٢٢٧	القوة الفرنسية ،	٢١٤	على الساحل ،
٢٣٠	التربية ،	٢١٥	نة وهران ،
٢٣٢	الفضائع والمنكرات ،	٢١٦	، الوسط والجنوب ،
٢٣٤	السجون والمعتقلات ،	٢١٨	ن -- الطرقات — المزارع ،
٢٣٦	نتيجة الزجر والتمنكيل ،	٢٢٠	المجاهدين ،
٢٣٨	نظرة إلى الخارج ،	٢٢٢	حهم ،
٢٤٢	هذه هي إرادتنا ،		

غلطات مطبعية

نرجو القارىء الكريم اصلاحها قبل مطالعة الكتاب

صواب	خطأ	س	ص	صواب	خطأ	س	ص
نشأت	تنشأت	١٦	٦٩	إنقاذه	المقاذه	٦	٩
انديوان	الدبوان	٣	٧٠	اطلب	اطب	٥	٥
التحرير لوا	التحرير الوقح	١١	٨٣	الزأغر	الزاغر	٧	٢٢
اصدقائها	اصدقائه	٣	١٠٤	بوخيفية	بوخيفية	١٢	٢٣
يستأثر به	يستأثر بها	١٤	١١٨	Liege	Hier	١٦	٢٥
٣١٠	٣٩٠	٧	١٣١	الونشريس	الونشربين	١٧	٢٥
العجب	-المجب	١٥	١٣٣	d'Alep	d'aep	١٨	٢٥
العمال	الممال	٨	١٣٤	الزياتين	الزاياتين	١	٢٦
الشيوخ	الشيوح	١١	١٤٥ ط	عدد ٦٨٦٨	عدد	٢٦	٢٦
وتأمر	وتأتمر	١٥	١٤٦	فتسكون	فتسكونت	١٤	٢٩
سنة	سنت	٨	١٥٨	بالأمازيع	بالمازيع	١٤	٢٩
فلم	فم	١٧	١٦٣	وقد كانت	وإذ كانت	١٤	٣٢
وينددوا	ويندون	١٦	١٧٨	شاهدت	شاهد	٢	٤٠
فعل عز	فعل من	١١	١٨٥	التنكيل	التنكيل	٨	٤٣
كانوا	كان	١١	١٩١	لغة	الفة	٤	٤٦
الأصلاحا	الاصطلاحات	١	٢٠٢	مستقلة	مسقةنتلة	٣	٥٦
بالسياد	يا لسيادة	١٠	٢٠٣	١٦٠	١٦٩	٤	٥٦
				سبعة	ستة	١٤	٥٦

To: www.al-mostafa.com